مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com
رابط بديل

الدكتور حسين الحاج حسن

# أدب العرب في صدر الإسلام

مكتبة
لسان العرب
رابط بديل
lisanerab.com
أ. علاء الدين شوقى
www.lisanarb.com
twitter مكتبة لسان العرب
facebook مكتبة لسان العرب
instagram مكتبة لسان العرب

الدكتور حسين الحاج حسن

# أدب العرب في صدر الإسلام

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1412هـ - 1992م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع أميل الله - بناية سلام

هاتف: ٨٠٢٤٢٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦

بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف: ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠

ص.ب: ٩٢١١/١١٣ بلكس: ٤٤٢٠٦٥ - ٢٠٩٨٠ - لبنان

# الإهداء

إلى ابنتي رب

في يوم عقد قرانك المبارك بإذن الله

أقدم لك هذا الكتاب ،

آملاً لشجرة حبك أن تنمو وتزهر وتثمر

« وتُساقِطْ عليكِ رُطباً جَنِيّاً »

المؤلف

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com
رابط بديل

# بسم الله الرحمن الرحيم

## تصدير

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، محمد المصطفى أفصح العرب ، وحجة البلاغة والأدب ، أدّبه ربه فأحسن تأديبه ، وأجرى جوامع الكلم على لسانه فأرسل بدائع الحكم وروائع البيان من أجل مصالح ورقي أفضل إنسان . لقد جعل سبحانه الإسلام دين حضارة إنسانية سليمة ترتقي إلى مجد الإنسان في دار الابتلاء ثم في دار البقاء .

وبعد : أقدم لقراء الأدب العربي كتابي هذا « أدب العرب في صدر الإسلام » يتناول عصراً من أزهى وأنضر عهود الأدب لم يشهد له التاريخ مثيلاً ، ولم تر الدوحة الأدبية له نظيراً . كان عصر صدر الإسلام فخر الإنسان وربيع الزمان ، وكان درة في تاريخ البشر عامة وفي تاريخ العرب خاصة ، لما له في حياتهم من عظيم الخبر وجليل الأثر .

عصر وما أجله من عصر أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ظلمات الجاهلية البغيضة والقبلية الضيقة والعصبية المريضة ، فمشت تتيه بجلالة الأيام ، واستظل جميع الناس بظله بخير وعدل وسلام .

عصر وما أعظمه في مقاييس الزمن الحضارية ينتقل الإنسان في رحابه من مجد إلى مجد إلى نصر ، يضيء طريقه الدين القويم وتهديه إلى غايته الشريعة القويمة العادلة ، يتطلع أبداً إلى أعظم مثل الحياة الحرة الكريمة ، وينهج دائماً الفضائل الخيرة والقيم النبيلة ، يفجر له ينابيع الخير وحي ينزل من السماء ، وكتاب مجيد تهتز ببلاغته وسحره أرجاء الصحراء .

عصر ما أفضله من عصر ازدهى بنزول القرآن الكريم ، معجزة من معجزات الخالق الأكرم وآية من آيات صدق الرسول العربي الأعظم .

ماذا يمكن أن أقول عن أدب عصر الرسالة والرسول ، وعصر الوحي الموصول ، وعصر الفرقان الكريم والحديث العظيم ، فسبحان الله أحكم الحاكمين والحمد لله رب العالمين .

كل ما يمكنني قوله عن هذه الدراسات التي يضمها هذا الكتاب أنني قد جعلت مرجعي كتاب الله وسنة رسوله نستشف منهما كل ما نستطيع من رحيق الخير والحق ، ونستظل بما فيهما من عدل وصواب وحسبي هذه الكلمات القليلة فهي بالعجز أنطق ، ومن فجر الإسلام تشرق وتتدفق .

ربّ ارزقني العلم الصحيح ، والعمل الصالح ، والإخلاص في القول والعمل ، واجعلني من الهادين المهديين ، ولا تجعلني من الضالين المضللين ، فأنت وحدك تلهمنا الرشد والحق ، ومنك وحدك نهتدي سواء السبيل . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المؤلف

# تمهيد

تخضع لغة كل أمة لنواميس الوجود ، وتتعاورها ألوان شتى من ظواهر الحياة فمن ضعف وركود إلى حركة وصعود ، ومن انتكاس وانهيار إلى تقدم وازدهار . وقد يطوف بها أحداث كثيرة وعواصف جسيمة فيخيم عليها شبح الموت ويتسلط عليها سلطان الفناء ، وقد تواتيها الظروف المناسبة وأسباب الحياة النامية وعناصر القوة والنماء .

في جميع هذه الحالات اللغة هي ترجمان القلوب ، والأدب هو مرآة النفوس والأداة المعبرة عما تنطوي عليه الضمائر ، وما تكنه الخواطر .

واللغة العربية تأثرت أعمق تأثير بالإسلام الذي بدل كل شيء قديم ، وقلب الحياة العربية رأساً على عقب ، فحملها أعباء جديدة وناط بها رسالة مجيدة فانطلقت تؤديها باستجابة وصبر ، ومضت تنهض بها في سماحة ويسر نحو حياة أكمل وأشمل وأفضل ، متشحة برداء القوة وعنفوان العظمة ، ووشاح التقدير والجلال . بزغ نور العصر الثاني من عصور الأدب العربي ببعثة النبي الأكرم محمد بن عبد الله (ص) بمكة المكرمة عندما دعا العرب خاصة والناس كافة إلى الدخول في الدين الحنيف ، الإسلام عام 610 م وقد امتد ما بعد ذلك من عهد الرسول بمكة والمدينة[1] حتى انتهاء الخلفاء الراشدين وقيام دولة بني أمية عام 41هـ .

هذا العصر القصير بمدته والعظيم بفائدته هو من أفضل العصور في التاريخ الإسلامي ، وأكثرها أثراً في حياة العرب والمسلمين ففيه بدأت الدعوة الإسلامية الزاهرة ، وانتشر دين البشرية الخالدة لينقذ الناس من ضلال الجهل والسفه والإستعباد

(1) هاجر ( ص ) إلى المدينة فدخلها يوم الاثنين لإثني عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأول وكان له من العمر ثلاث وخمسون سنة .

الفكري والجسدي والإجتماعي ، ويهديهم بواسطة الأمين (ص) إلى شاطىء الأمن والسلام ، والحرية ، والمساواة ، والعدالة .

ومن أولى من محمد ، خاتم النبيين والرسل بأن يرفع منارة السلام ورايـة الحضارة في العالم ، وأن يصل الأرض بالسماء ؟ لقد سعى (ص) بكل ما أعطاه ربه عز وجل من قوة وصبر وحكمة بتبليغ الرسالة الإنسانية التي أثمرت حياة زاهرة هادئة مطمئنة فيها الأمن والأمل والحرية .

ناهيك به بعد ذلك ، إنه عصر نبه فيه شأن الأدب فاكتسى حلة جديدة جميلة ، وازدهرت فيه اللغة العربية فلبست ثوباً قشيباً وتمت السيادة للسان العربي في شتى الأقطار والأمصار .

والشعراء والأدباء الذين نشأوا في ظل الإسلام وتأدبوا بآدابه ، ونهلوا من معينه ، فقد تأثروا بالعوامل الجديدة والمتغيرات التي نشأت مع الحياة الإسلامية ، هؤلاء إسلاميون ، بهرتهم بلاغة القرآن الكريم وفصاحته .

وفريق آخر شهد هذا العصر العظيم ولم يتجردوا من ماضيهم وقديمهم وقد سماهم النقاد : المخضرمين . جاء في العمدة لابن رشيق القيرواني : « طبقات الشعراء أربع : جاهلي ، ومخضرم الذين أدرك الجاهلية والإسلام ، ومحدث . . ثم صار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدريج ، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا الحاضر . . »[2] .

فالجاهليون هم الذين نشأوا في جزيرة العرب قبل الإسلام من الشعراء والأدباء وأرباب الفصاحة والبيان .

وأما المخضرمون [3] فهم الذين عاشوا قسماً من حياتهم في الجاهلية ثم أدركوا الإسلام وقد شاع في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين فكرة خاطئة تقول : إن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل في أشعار المخضرمين . . ولا شك أنه زعم غير صائب فقد

---

(2) العمدة لابن رشيق ص 72 .

(3) يقال أذن مخضرمة أي مقطوعة ، فكأن الشاعر انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام . وقيل : أسلم قوم في الجاهلية على ابل فقطعوا آذانها فسمي كل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرماً . وقال الأخفش : هو من قولهم ماء مخضرم إذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلام مخضرماً كأنه استوفى الأمرين . المزهر ج 2 ص 304 .
وحكى شاهر مخضرم بالحاء مأخوذ من الحضرمة وهي الخلطة ، لأنه خلط الجاهلية والإسلام . المزهر ج 2 ص 305 والعمدة ج 1 ص 173 .

تجاوز الحق وأسرف كثيراً . والحقيقة أن الله تبارك وتعالى قد أتم على هؤلاء الشعراء نعمة الإسلام ، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله فعاشوا الإسلام عقيدة راسخة في ضمائرهم ، عاشوا به وله وعملوا على نشر نوره في أصقاع الأرض يصدرون عنه في أشعارهم وينشرون مبادءه مؤمنين مطيعين .

وكذلك صدروا عنه في نثرهم فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر على هدي القرآن الكريم ، كما أنشأوا ألواناً من المعاهدات التشريعية ، والسياسية ، والإدارية والإجتماعية .

# الفصل الأول

# ما الغاية من قيام دولة إسلامية ؟

قبل الحديث عن قيام الدولة الإسلامية لا بد لنا من كلمة موجزة عن حدود الله التي رسمها الله عز وجل في القرآن الكريم ، الدستور الإلهي الإنساني لكل إنسان في كل زمان ومكان .

في الدولة الإسلامية لا يستطيع الإنسان أن يكون شارعاً لنفسه وبنفسه ، لأنه إن نجا من شرور عبودية السلاطين والحكام ، فلا يمكن أن يتخلص من تعبد شهوات الجاهلية والإستسلام لنزعات الشيطان الكامن في نفسه والذي يوسوس في صدره .

ونظراً للغرض الإنساني الأسمى قيد الله تعالى الحدود البشرية بقيود تسمى في لغة الإسلام « حدود الله » .

هذه الحدود تشتمل على عدد من الأصول والمبادىء والأحكام القطعية ، لتكون الحياة الإنسانية قائمة على الحق والعدل ، لا تحيد عنه قيد أنمله ، ولا تزحزح عنه أبداً .

نعم يجوز للبشر أن يضعوا قوانين فرعية أو أنظمة ضمن حدود الله لما يعرض لهم من حوادث ومشاكل ، أما إذا تعدوها فلا بد أن يختل نظام المجتمع البشري اختلالاً كاملاً .

ولنأخذ أمثلة واقعية موضحة ، ونضرب مثلاً :

الحياة الإقتصادية : فالله تعالى قد ذكر لها حدوداً معلومة في كتابه العزيز ، وهي إثبات حق الملكية الفردية ، والأمر بأداء الزكاة وتحريم الربا والميسر والإحتكار ، وقانون الإرث ، وجمع المال وإنفاقه بقيود معلومة . . .

فإن راعى الإنسان المسلم هذه الحدود وحافظ عليها ، وسير حياته الإقتصادية

ضمن دائرتها امتنعت أي طبقة من التسلط على الطبقات الأخرى ، كما حدث عند الرأسمالية الغاشمة Capitolism .

وكذلك الحياة العائلية : فلا يمكن أن يترك الحبل على غاربه بالنسبة للمرأة والبنت والإبن فالله سبحانه وتعالى وضع قيوداً لكل ذلك فقيد المرأة بالحجاب الشرعي وقوامية الرجل ؛ كما وضع أحكام الطلاق والخلع ، وحكم تعدد الزوجات ، والزنا . . .

لقد بيّن سبحانه كل ذلك ليحد حياة الأسرة بحدود حكيمة ملائمة للفطرة البشرية .

فإن تمسك المسلم بهذه الحدود وعمل بها ضمن إطار أسرته تحول البيت إلى جنة يخيم فيه السرور ويرتع في رحابه الهناء ؛ وإلا عمت الفوضى والحرية الشيطانية لنساء العصر الحديث ، وجعلت الشياطين تبيض وتفرخ على هواها ، والسلام العالمي يهدد بالخطر ، والأمن الإنساني ينذر بالإنقضاء .

كذلك بين الله في كتابه العزيز حدود الحضارة الإنسانية : وحياة البشر الإجتماعية كالقصاص في القتل ، وقطع اليد في السرقة وحرمة الخمر ، وحدود الستر للعورة ، وغير ذلك من الأصول الثابتة ، وذلك ليسد كل منافذ الشر وكل أبواب الفساد ولا يجعل لها أي مجال للتخريب والأذى والإساءة .

ونوجز القول في حدود الله التي لها أهمية عظيمة وتأثير كبير في إقامة الحياة الإنسانية على الحق والعدل والإنصاف .

ولكن الذي أريد بيانه : أن الله سبحانه وتعالى قد رزق الإنسان هذه الحدود لتكون له نظاماً كاملاً ودستوراً مستقلاً جامعاً لا يقبل التبديل والتغيير أبداً . وعليه وبه ينهج النوع البشري طريقاً مستنيراً واضحاً وصراطاً مستقيماً لا عوج فيه .

كل ذلك محبة من الله لعباده حتى لا يضلوا فيقعوا في مهاوي الحياة ومزالقها لجهلهم وضعفهم وتهاونهم ، وحتى لا تضيع قوتهم وسعيهم في الطرق الشيطانية المضللة .

هذه الحدود الإلهية هي أشبه بالإشارات الضوئية والأسلاك الحديدية المنصوبة على جانبي الطريق حتى لا يقع المسافرون في المخاطر وتزل بهم أقدامهم في المهاوي السحيقة الخطرة .

فالحدود الإلهية في الإسلام تعين وتهدي لتسير الحياة البشرية وجهة الحق

الصحيح ، وتستهدي بها الناس في كل مفترق للطرق والمنعطفات إلى طريق الأمن والسلام ، وتحولهم عن جميع المتجهات المنحرفة التي تحط من كرامتهم وتربك حياتهم بالمآسي والمصائب . هذا الدستور الآلهي لا يقبل التبديل والتعديل والتغيير ، فهو دستور آلهي سرمدي ، كتب له أن يبقى ثابتاً إلى يوم القيامة والدولة الإسلامية يؤسس بنيانها على هذا الدستور ، من هنا كان القول المأثور : القرآن شريعة المجتمع .

وما دام كتاب الله وسنة رسوله باقيين في العالم فلا يمكن تحويل مادة من قوانينه عن مكانها . ومن كان يريد أن يعيش مسلماً مؤمناً فإنه محتم عليه اتباع هذا الدستور والإلتزام بحدوده والإستمساك به إلى يوم الدين . والله ولي التوفيق .

وبعد هذا التوضيح الموجز لحدود الله

فما غاية قيام الدولة الإسلامية في العالم ؟

لقد صرح القرآن الكريم عن هذه الدولة الإسلامية وذكر الغاية التي من أجلها أسست لتشمل العالم كله .

قال تعالى في سورة الحديد : آية 25 : **﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصرُه ورسلَه بالغيب إن الله قوي عزيز ﴾** .

فالمراد بالحديد في الآية الكريمة هو القوة السياسية ، أي قوة السلطان الذي يمنع بعض الناس من بعض . كما بينت الغاية التي أرسلت الرسل من أجله وهو أن الله قد أراد ببعثهم أن يقيم في العالم نظام « العدالة الإجتماعية » على أساس ما أنزله عليهم من البينات التي تبرهن وتوضح ؛ ثم ما أنعم عليهم في كتابه العزيز من الميزان . أي نظام الحياة الإنسانية العادل . لأن لا بد لكل عمل أو قول أو تقرير من ميزان يقاس عليه وتعرف قيم الأمور بواسطته .

وجاء في سورة الحج آية 41 : **﴿ الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾** .

وهناك آيات أخرى مماثلة يتضح لنا منها جميعها أن الغاية التي يبغيها القرآن من قيام دولة ، هي غاية إيجابية وليست غاية سلبية أبداً . إن هدفها الأساسي الأسمى هو قيام نظام عدالة إجتماعية تسود العالم كله . لذلك دعا الإسلام المسلمين في كافة أنحاء الأرض المؤمنين برسالته السمحاء العادلة ، إلى التمسك بالفضائل التي ذكرها القرآن

الكريم ، والنهي عن جميع أنواع المنكرات التي تندد بها الله في آياته الكريمة . وبذلك تجتث شجرة الشر من جذورها ، ويعم الخير المرضي عند الله والمبين عنه في كتابه العزيز .

ولتحقيق هذا الغرض النبيل لا بد من استعمال قوة سياسية تسوس الناس بالعدل وتدير أمور الدولة بحكمة وعدالة وحزم حسبما ينص النظام الأهي .

ويمكن الإستفادة لهذا الموضوع من وسائل التربية والتعليم تارة ومن منابر الدعوة والتبليغ العام طوراً ، ومن تعبئة الرأي العام والنفوذ الإجتماعي حسبما تقتضي الظروف والأحوال .

إن مثل هذه الدولة تكون دائرة عملها شاملة محيطة بالحياة الإنسانية بأسرها تطبع كل فرع من فروع الحياة الإنسانية بطابعها الخاص وبرنامجها الإصلاحي الخاص ، وليس لأحد أن يستثني أمراً لأسباب شخصية .

وبصورة عامة يمكن القول : إن الدولة الإسلامية تحيط بالحياة الإنسانية بكل فرع من فروع الحضارة وفق نظريتها الأخلاقية وبرنامجها الإصلاحي ، بعيداً كل البعد عن أثر السيطرة ، أوسلب الحرية ، أو الزعامة المطلقة .

وما يلاحظ أن الإعتدال الكامل الذي يوجد في نظام الحكومة الإسلامية والخطوط الدقيقة والعميقة التي خطتها بين الحق والباطل ، وحدود الله التي وضعت في القرآن الكريم ، كلها معاً تشهد عند أصحاب العقول النيرة ، والبصائر الفذة ، أن مثل هذا النظام الصالح والثابت ليس من صنع البشر وإنما هو من صنع الله الخبير الحكيم .

والآن يحسن بنا أن نقول كلمة موجزة في :

هيئة الدولة الإسلامية ونموذج بنائها .

الحاكم الحقيقي في الإسلام هو الله وحده جل جلاله ، والذين يتولون أمر تنفيذ القانون الأهي على الأرض هم خلفاء وليسوا حكاماً . وموقفهم هذا لا يكون إلاّ كموقف النواب عن الحاكم الحقيقي ، وهذا هو موقف أولي الأمر في الإسلام بعينه .

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم . . . ﴾ ( النور : 55 ) .

يوضح لنا الله تعالى في هذه الآية عدة أمور أهمها :

(أ) ـ أن الإسلام يستعمل دائماً لفظة خلافة بدل لفظة حاكمية . وإذا كانت الحاكمية لله خاصة وكل من قام بالحكم في الأرض منفذاً الدستور الإسلامي يكون خليفة ، ولا يتولى إلا ما والاه المستخلف ، أي الحاكم الأعلى نيابة عنه .

(ب) ـ والأمر الثاني العظيم في هذه الآية الكريمة ، أن الله قد وعد جميع المؤمنين عامة بالإستخلاف ، ولم يقل إنه يستخلف أحداً منهم دون غيره فالمؤمنون كلهم خلفاء الله ، وهذه الخلافة التي أوتوها لا يستبد بها فرد أو أسرة أو طبقة ، بل كل مؤمن خليفة عن الله ، وكل عبد من عبيد الله مسؤول أمام ربه من حيث كونه خليفة . جاء في الحديث الشريف : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته . . . » .

فليس لأحد من فضل على آخر إلا بمقدار عمله الصالح وتنفيذه أوامر الله والإلتزام بحدوده التي وضعها في كتابه العزيز .

## نتائج الخلافة العمومية

إذا ما أنعمنا النظر في مبدأ هذه الخلافة العمومية ظهرت لنا النتائج التالية :

(أ) ـ إن مجتمعاً يكون فيه كل عضو منه خليفة لا يمكن أن يتسرب إليه فساد التفريق بين الطبقات ، ولا يمكن أن تسيطر فيه الإمتيازات والقرابات وأصحاب الوجاهات . بل كل أفراده سواسية لا فضل لأحد على آخر إلا تقواه لله ومواهبه الشخصية وسجاياه الذاتية . وهذه هي الحقيقة التي بيّنها رسول الله (ص) مراراً في عدة أحاديث . جاء عنه (ص) : « ليس لأحد فضل على أحد إلا بدين أو تقوى ، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى »[1] .

وبعد فتح مكة لما دخلت بلاد العرب كلها في الإسلام قال النبي المصطفى لعشيرته :

« يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، أيها الناس : كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فخر للانساب ، لا فضل للعربي على العجمي ، ولا للعجمي على العربي ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[2] .

إن الميزان الأساسي في التقويم الإسلامي « التقي » فالكريم عند الله هو التقي

---

(1) المسند لابن حنبل . والتقوى هي من الوقاية ، الوقاية من الشرور والتحصن بالدين الحصين .

(2) راجع صحيح البخاري والآية الكريمة الحجرات 13 .

المحصن بحدود الله تحصناً كاملاً ، وليس العشيرة ولا القبيلة ، ولا الحسب ، ولا النسب ، بل أكرم الناس أتقاهم .

(ب) ـ وفي مثل هذا المجتمع الإسلامي لا تقف مسألة النسل أو نوع الحرفة أو المنزلة الإجتماعية ، عقبة بين الفرد أو الجماعة وبين مواهبهم الشخصية وتنمية سجاياهم الفردية وملكاتهم الخاصة المستودعة في نفوسهم بل يحق لكل فرد دخل في حوزة الدولة الإسلامية ، أن يترقى إلى ما شاء الله ، وإلى ما أتاه الله من قوة ذاتية واستعداد خاص ، من غير أن يمنع الآخرين من التقدم والترقي درجة أو درجات في السلم الإجتماعي . وإذا راجعنا التاريخ الإسلامي وجدنا الموالي وأبناءهم قد نصبوا ولاة على الأقاليم ، وترقوا إلى رتبة القيادة في الجيش ، وقد نفذت أوامرهم واتبعهم رؤساء البيوتات الشريفة والعشائر الكبيرة ، فعاشوا تحت ولايتهم طائعين غير كارهين ، لأن غايتهم القضية وليس المصلحة الشخصية كما نجد كثيراً ممن كان يخصف النعال أصبحوا أئمة في الناس . وكذلك البزازون والنساجون وغيرهم من أصحاب الحرف والمهن ، قد تبؤوا مناصب إدارية عالية كالقضاء والإفتاء . . .

وهؤلاء كلهم يعدون اليوم من شيوخ الإسلام والسلف الصالح جاء في الحديث الشريف قوله (ص) : « اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي »[3] .

وهذا هو لعمري أرقى مجتمع حضاري وصفه علماء الإجتماع . قال أوجست كونت العالم الفرنسي الإجتماعي المعروف : « يعطى الإنسان في مجتمع متحضر مكانته الإجتماعية حسب كفاياته العلمية ومهاراته الذاتية »[4] وهو ما نادى به الإسلام وطبقه في الإدارة الإسلامية .

(ج) ـ وفي هذا المجتمع الإسلامي لا أثرة ولا استئثار :

فلا يكون لفرد أو طائفة مهما كسبت أن تستبد بالحكم أو تتصرف تصرفاً ديكتاتورياً ، كما لا يجوز لها أن تنتزع حق الخلافة من جمهور المسلمين وتنصب من بين أفرادها واحداً يسيطر على عامة المسلمين والذي يتولى هذا المنصب ، الخلافة ، في الإسلام ، ان جمهور المسلمين قد فوضوا خلافتهم إلى رجل منهم وجعلوها مركزة في ذاته لتنفيذ الأحكام ، وتيسير أمور الناس بيسر وسهولة ، وذلك عن رضى منهم وقناعة تامة .

---

(3) صحيح البخاري .

(4) راجع علم الاجتماع الأدبي للمؤلف الفصل الأول .

والخليفة هذا هو مسؤول عند الله عز وجل في جانب وفي جانب آخر مسؤول أيضاً عند عامة المسلمين الذين فوضوا إليه أمر الخلافة . فإن استبد بالأمر وتصرف بأسلوب ديكتاتوري ، فيعتبر غاصباً وليس بخليفة ، وإذا تمادى في تسلطه يعزل من قبل الجمهور الإسلامي ويعين بديلاً منه .

فالخليفة في الإسلام ليس له أن يتخذ خطة التقييد الإجتماعي (Regimentation) من تلقاء نفسه معرضاً عن التعاليم والبينات المنصوص عنها في كتاب الله ، كما ليس له أن يقهر الناس على اختيار حرفة دون أخرى ، أو فن دون فن آخر ، أو تعليم أولادهم نوعاً من العلوم دون العلوم الأخرى . الإسلام لم يخول الخليفة تلك السلطة المطلقة التي استبد بها الطواغيت المسيطرون (Dictators) في روسيا وألمانيا وإيطاليا وفرنسا وتركيا ، التي استخدمها ( أتاتورك ) وتمتع بها على هواه ورغباته .

ونقطة هامة أخرى في الإسلام وهي أنه لا يجوز للمسلم أن يسكت عن خطأ يراه أو ظلم تفشى في مجتمعه لأن كل فرد من أفراد المسلمين مسؤول عند الله بصفته الفردية ، لا يشاركه فيها أحد غيره . لذلك كان لا بد أن يعطى كل فرد حرية تامة في حدود القانون ليختار ما يشاء من خطة ، ويستعمل طاقته لإظهار فيما تميل إليه نفسه من صناعة أو حرفة أو علم .

من أجل ذلك لم نجد أثراً من أمثال التقييد الإجتماعي[5] في عهد النبي (ص) وفي عهد خلفائه الراشدين المهديين .

(د) ـ وفي مثل هذا المجتمع يحق لكل فرد إذا كان عاقلاً وبالغاً أن يكون له رأي في مصير الدولة وأن يشارك في قيامها ، لأنه منعم عليه بنصيبه من الخلافة العمومية ، المشروطة بالإيمان والعمل الصالح فحسب ، فالمسلمون جميعهم سواسية في حق التصويت وإبداء الرأي ، وهذا لعمري منتهى الحرية الشخصية في الدول الحضارية الراقية .

ومن هنا كان التوافق بين الفردية والإجتماعية في المجتمع الإسلامي .

لقد سد الإسلام تماماً باب الفردية الهدامة للإجتماعية فلا تضيع في النظام

---

(5) التقييد الإجتماعي اصطلح عليه في البلدان التي كانت قد استبدت بأمرها واستخدمت الحكم الدكتاتوري كألمانيا وإيطاليا وتركيا ومعناه أن يقيد سكان البلاد جميعهم بقيود من قوانين الحكومة في جميع نواحي حياتهم الإجتماعية والاقتصادية والسياسية .

الإسلامي شخصية الفرد كما كانت الحالة في النظام الشيوعي وفي النظام الفاشي ، أو كما كانت الحالة في العصر الجاهلي الذي وصفه أحد الشعراء بقوله :

وما أنا إلا من غزية إن غوت  غويت وإن ترشد غزية أرشد

هذا من جانب ولكن من جانب آخر ، لا يتعدى الفرد في الإسلام حدوده بحيث يكون ضاراً للجماعة كما هي الحال في نظام الديمقراطية الغربية .

إن غاية حياة الفرد في الإسلام إنما هي غاية الجماعة بعينها ؛ أي تنفيذ القانون الإلهي في الدنيا وابتغاء وجه الله تعالى في الآخرة . وتوضيح ذلك أن الإسلام قد منح الفرد ما كان يتعلق بذاته من الحقوق ، وفي مقابل ذلك فرض عليه واجبات خاصة تجاه الجماعة وبهذه الصورة ظهر التوافق الغريب بين الفردية والإجتماعية في الإسلام ، بحيث يتيسر للفرد نماء قوته والإفادة من مواهبه الشخصية ، حتى يصبح بهذه القوة الفردية الراقية عوناً فيما فيه خير وسعادة المجتمع .

والأدباء المسلمون من شعراء وكتاب قد انطبعوا بهذا الطابع الفطري وتأثروا به ، فعاشوا حياتهم الفردية الحرة وأظهروا كل ما عندهم من ميول ذاتية ومواهب شخصية دون أن يعيقوا موكب الجماعة ، بل لقد كانوا عوناً صالحاً لجماعاتهم استفادوا وأفادوا وعاشوا حياتهم لهم ولجماعاتهم مع التوافق التام والإنسجام الكامل ، وما دام الشاعر ابن بيئته فلا بد لنا من أن نفصل الكلام على القاعدة الأساسية التي تبنى عليها الدولة الإسلامية .

إذا تأملنا بعض ما تقدم بيانه فيما سبق من تصور الخلافة العمومية والإحاطة بتفاصيلها تبين لنا أن منزلة الخليفة أو رئيس الدولة الإسلامية ليست بأكثر ولا أقل من أن جمهور المسلمين قد اختاروا عن أنفسهم رجلاً هو أتقاهم وأفضلهم وأودعوه ما بيدهم من أمانة الخلافة .

وليس معناه أنه هو الخليفة وحده ، بل إن خلافة المسلمين العمومية أصبحت مركزة في ذاته .

## بعض التفاصيل عن الحكم الإسلامي

1 ـ إن انتخاب الخليفة لا يكون إلا على أساس الآية الكريمة : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ ( الحجرات : 13 ) فلا ينتخب للخلافة أو الإمارة إلا من كان المسلمون يثقون بسيرته وأخلاقه وطباعه ، فإذا ما تم انتخابه فهو ولي الأمر المطاع في

حكمه ولا يعصى له أمر ، بل يعتمد عليه في تنفيذ الأوامر اعتماداً كاملاً ما دام يطبق الشريعة الإسلامية ويحكم بالكتاب والسنة .

2 ـ الخليفة في الإسلام ، أو الأمير ، لا يميز بشيء عن جمهور المسلمين من حيث القانون ، فهو رجل عادي كبقية الرجال ليس عليه حصانة كحصانة النواب والوزراء وسائر أصحاب المراكز العليا في الدولة ، يوجه إليه النقد فيما يتراءى للعامة من الأخطاء في سياسته الرعية ، فهو يعزل إذا شاءت الأمة ، وترفع عليه القضايا في المحاكم ، ولا يستحق أن يعامل فيها معاملة يمتاز بها عن غيره من المسلمين .

3 ـ لكل خليفة أو أمير مجلس شورى لا بد أن يكون ، على الأمير مشاورته في الأمور الهامة التي قد تطرأ على الدولة ، ولا بد أن يكون هذا المجلس حائزاً على ثقة جميع المسلمين .

ومجلس الشورى هذا جاء انطلاقاً من الآية الكريمة : ﴿ . . . **وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين** ﴾ ( آل عمران : 159 ) على الأمير مشاورة مجلس الشورى ثم عليه الحزم والعزم ولله تدبير الأمور .

كما جاء أيضاً في سورة الشورى آية : 38 ﴿ . . . **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ وهذا هو المبدأ الصالح لمعرفة الحق والوصول إلى حل منطقي صريح فيه المصلحة العليا لجميع المسلمين .

4 ـ في أغلب الأحوال قد يقضي هذا المجلس بكثرة آراء أعضائه ، إلا أن الإسلام لا يجعل كثرة العدد قاعدة عامة يجب الأخذ بها أو ميزاناً للحق والباطل . قال تعالى : ﴿ **قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون** ﴾ ( المائدة : 100 ) .

ليس دائماً الكثرة على حق فإنه من الممكن في نظر الإسلام أن يكون الفرد الواحد أصوب رأياً وأحد بصيرة في مسألة من المسائل من سائر أعضاء المجلس . فإن كان الأمر كذلك فليس منطقياً أن يطرح رأيه لأنه لا يؤيده به جمع غفيرا .

والأمير في الشرع الإسلامي له الحق أن يوافق رأي الأكثرية أو رأي الأقلية ، كما له الحق أن يطرح بكل الآراء ويقضي برأيه عندما تتطلب مصلحة المسلمين .

ولكن من واجب جمهور المسلمين أن يراقبوا هذا الأمير في سيرته وتصرفاته مع

رعيته مراقبة دقيقة ، فهل هو يتصرف في الأمور ويحكم فيها على تقوى من الله سبحانه أم بهوى من نفسه ؟ .

فإن رأوه يتبع هواه ، فلهم أن يعزلوه ويخلعوه من منصبه ويولوا بدلاً منه رجلاً آخر يتم اتفاق الأكثرية عليه .

5 ـ لا ينتخب للإمارة أو لعضوية مجلس الشورى أو لأي منصب من مناصب المسؤولية من يرشح نفسه ، أو من يسعى فيه بطريقة ما من طرق الدعاية . قال النبي (ص) في هذا المجال : « إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله أو حرص عليه » .

وبذلك ليس هناك أي مجال في المجتمع الإسلامي للترشيح Candidature للمناصب والدعايات الإنتخابية ، لأن هذا التصرف يمجه الذوق الإسلامي ويرفضه الضمير الإسلامي ؛ فإن يقوم لمنصب واحد اثنان أو ثلاثة أو أربعة مرشحين ، فينشر كل واحد منهم خلاف الآخر نشرات وبيانات يندى لها الجبين الإسلامي . وقد يعقدون مهرجانات وحفلات لمدح أنفسهم والطعن فيمن سواهم مستخدمين الصحف والجرائد والإذاعات المسموعة والمرئية ، كما قد يغرون أصحاب الضمائر الرخيصة بأنواع من الحيل المخجلة فيطعمونهم بعض المال ليروجوا لهم . وقد ينجح بعضهم من كان أكثرهم كذباً ومیناً وأدهاهم في التلفيق والتزوير .

هذا الأسلوب الرخيص غير موجود ومرفوض في النظام الإسلامي ، و« طالب الولاية لا يولى » .

6 ـ لا يمكن أن ينقسم أعضاء مجلس الشورى الإسلامي جماعات وأحزاباً بل يبدي كل فرد منهم رأيه بالحق بصفته الشخصية ، لأن الإسلام يأبى أن يتحزب أهل المشورة ويكونوا مع أحزابهم سواء كانت على حق أو باطل . والذي يقتضيه الشرع الإسلامي أن يدور المسلمون مع الحق حيثما دار ، لا يحيدون عنه قيد شعرة . فقد يكون الواحد منهم مصيباً في بعض الأمور فيكونون معه ويناصرونه ، وقد يكون هو نفسه في أمر آخر غير مصيب ومخالفاً للحق فيعارضونه .

الناس في التشريع الإسلامي مع الحق وليسوا مع طلابه إلا أن يكونوا مصيبين في رأيهم محقين فيما يقولون .

7 ـ إن مجالس القضاء في الإسلام مغايرة لما نعهد ونشاهد من حدود الهيئات التنفيذية ، لأن القاضي في الإسلام ملزم بتنفيذ القانون الإلهي في عباد الله ، ولا يتولى

الحكم نائباً عن الخليفة أو الأمير بل نائباً عن الله عز وجل وليس الخليفة في مجلسه إلا كرجل من الرجال العاديين ، ولا يحق لأحد أن يستثنى من الحضور إلى مجلس المحكمة لأن شرف أسرته أو شرفه ، أو لمنصبه العالي الذي يشغله في الدولة . فالأجير والفلاح والفقير المعدم له الحق أن يرفع القضية إلى مجلس الحكم على العلية من الناس ، حتى ولو كان أمير المؤمنين نفسه . وللقاضي أن يحكم بالحق ويجزي قانون الشرع على الخليفة نفسه إذا تحققت القضية عليه كما يحكم رجل من عامة المسلمين .

أما إذا كان الخليفة يشكو من أحد والقضية تتعلق بذاته شخصياً فليس له أن ينتقم ممن يشكوه مستخدماً ما لديه من قوة وسلطة تنفيذية ، بل هو مضطر من جهة الشرع أن يرفع قضيته إلى المحكمة كعامة المسلمين ، فيحضر الخليفة وخصمه وتجري المحاكمة بينهما حتى يصل كل منهما إلى حقه .

في مثل هذا المجتمع الذي تسود فيه العدالة الإجتماعية ، وتتحقق في ربوعه الحرية الفردية ، وتطبق المساواة بين جميع أفراد الشعب ، فلا فرق بين عظيم وأجير ، أو بين غني وفقير ، أو حاكم ومحكوم ، أو سيد ومسود ، فالجميع سواسية كأسنان المشط أمام حكم الله . في هذا المجتمع الكريم يعيش جميع الناس حياة إنسانية حرة كريمة في دار الإسلام دار السلم والسلام ، دار المدينة الفاضلة .

## إنقلاب في جميع نواحي الحياة

من أهم الخصائص التي امتازت بها الدولة الإسلامية عن غيرها أنه ليس لعنصر الحزبية والقبلية والطائفية أي حظ في إيجادها وتركيبها ، إنما هي دولة فكرية مؤسسة على مبادىء إنسانية ، وغايات هادفة واضحة . وكان ذلك غريباً على الناس في ذلك الوقت لأنهم ما كانوا يعرفون فيما مضى من القرون والأجيال إلا ما يؤسس على دعائم الطبقات والبيوتات المعروفة بمالها وجاهها وقوة سلطانها .

كما عرفوا أيضاً الدولة القائمة على دعائم السلالة والمذاهب والقوميات .

أما الإسلام فهو دين الإنسان في كل مكان ، وهو المنهاج الفكري الوحيد الذي يمتاز من بين المذاهب والأفكار ـ من أقدم عصور التاريخ حتى يومنا هذا ـ بأنه يقيم نظاماً إنسانياً كريماً مطهراً من العصبيات الجنسية وأقذارها . يدعو الناس كافة إلى الإيمان بعقيدته طوعاً لا كرهاً ، والإنضواء تحت لوائه من أي قومية أوفئة أو جنس . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ( سبأ : 28 ) .

فالنبي محمد (ص) أرسله الله تعالى لجميع خلقه من كل جنس ولون ليهديهم وينقذهم من ضلالهم وبهتانهم وجاهليتهم . قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ( الأنبياء : 107 ) .

ولا شك أن قيام مثل هذه الدولة في وضعها الغريب لأهل ذلك العصر الذين تربوا في بيوتات خاصة متأثرين بالحسب والنسب والعصبية سوف يصادف عقبات كأداء لا بد من بذل الجهود من أجل تذليلها .

إن كل لبنة من لبنات بناء الدولة الإسلامية هو معول من معاول الهدم للبناء القديم ، ليأتي ببنيان دولة فكرية تنظر إلى الإنسان بعين الإنسانية ، وتعرض على الناس نظاماً عادلاً واضحاً كل الوضوح ، يحمل بين دفتيه الخير والصلاح والسعادة والفلاح لجميع بني البشر .

والنقطة الهامة التي تتميز بها الدولة الإسلامية هي :

الخلافة الأهية وقد ألمحنا إليها قبل قليل . وهي تقوم على مفهوم ( حاكمية الله ) الواحد الأحد ، ونظريتها الأساسية تقول : إن الأرض كلها لله وهو ربها والمتصرف بها ، والأمر والحكم والتشريع كله مختص بالله وحده ، وليس لفرد أو لأسرة ، أو لطبقة من سلطة الأمر والتشريع . فلا مجال في دار الإسلام ودائرة نفوذه إلا لدولة يقوم فيها المرء بوظيفته كخليفة لله جل وعلا ولا يصح ذلك إلا من وجهتين .

**الأولى** : أن يكون ذلك الخليفة رسولاً من الله .

**والثانية** : أو أن يكون رجلاً يتبع الرسول فيما جاء به من الشرع والقانون من عند ربه .

فالبنيان الذي يقوم على أساس هذه النظرية يختلف اختلافاً كبيراً وكلياً في بنيته وطبيعته وهيئة تركيبه . والدولة التي تقوم على هذا الأساس تحتاج في تأسيس بنيانها وإدارة مرافقها إلى عقلية خاصة ، وأخلاق خاصة ، وسيرة خاصة ؛ وكل ما فيها يختلف اختلافاً جوهرياً عن الدول الأخرى التي كانت سائدة في عصرها . إن الذي أعد في الدولة الإسلامية من حكام ، وقواد ، ووزراء ، وسفراء ، ومديري مختلف الدوائر والمصالح ، يجب أن يكونوا رجالاً يخشون الله ، ويخافون حسابه ، ويؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا والنفع والضرر الخلقيان عندهم أثقل في الميزان وأرجح كفة من النفع العاجل والضرر اللاحق في الحياة العاجلة . وهم يمسكون بأي حال بما وضع الله في كتابه العزيز ، وبما سن لهم من منهاج دائم وثابت إلى الأبد . وبذلك هم يسعون لمرضاة الله وليس

لمرضاة عبيده ، ولم يتخذوا من أغراضهم القومية ونزعاتهم الشخصية سلطاناً على أنفسهم ، ولا تأخذهم نشوة الملك وعزة السلطان إذا أتاهم الله نصيباً منه ، وليسوا بجُوَّع إلى الثروة والجاه .

فهؤلاء وأمثالهم ومن في طبقتهم يمكن أن تتكون منهم الدولة الإسلامية ، وهم الذين يقدرون على إدارة أمرها بإخلاص وصدق ووفاء .

وأما طلاب الدنيا وعباد الشهوات والأغراض الذاتية الذين لا يخافون الله ، ولا يرجون الآخرة ، بل كل همهم النفع العاجل والترف المادي ، فلا يمكن أن يصلحوا أبداً ولا أن يفوض إليهم أمر الدولة الإسلامية وشؤون رعاية الناس[6] .

لقد حدث الإنقلاب الإسلامي الذي غير جميع مناحي الحياة على أساس النظريات والأحكام القرآنية ، وسيرة النبي المصطفى (ص) فقويت الدعوة الإسلامية وغيرت بجهادها المستمر الخيّر أسس الجاهلية الفكرية ، والخلقية ، والنفسية ، والثقافية ، والإجتماعية ، والدينية التي كانت سائدة .

والآن يحسن بنا أن نعلم كيف تم هذا الإنقلاب الشامل في أوضاع العرب ، وكيف انتصر منفذه عملياً ، وكيف كانت النتائج ؟ .

## كيف تم الإنقلاب الإسلامي وما هي نتائجه ؟

لقد اختار الله عز وجل النبي المصطفى محمد بن عبد الله (ص) الرسول الأمي وخاتم النبيين والرسل لينفذ شريعة الله على الأرض ، ويتمم نوره ولو كره المشركون . وسيرته الصافية النقية تشهد له بذلك . كان محمداً (ص) هو القائد الوحيد الذي نجد في سيرته الجليلة تاريخاً شاملاً ، يقتبس منه ويستضاء به في كل ما يعرض للمجتمع من مسائل ومشاكل في سياسة الدولة الداخلية والخارجية .

وإننا نجد في تاريخ حياته الكريمة معلومات تفصيلية وافية عن سائر هذه الأمور .

كلنا يعلم أن العالم في ذلك العصر ، قبل الإسلام ، كان مصاباً بأمراض جاهلية مختلفة من خلقية ، واجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية ، ودينية . ويقتضي كل ذلك طبيباً نطاسياً ماهراً ، يعالجها جميعها فيزيلها أو يخفف من ويلاتها . فحينما بعث الله النبي محمد (ص) ليبلغ الرسالة وينشر الإسلام كان هناك تسلط روما وفارس ، الامبراطوريتان

---

(6) جاء في الحديث الشريف : الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله .

العظيمتان في ذلك الوقت ، كما كان هناك تنافس وامتيازات بين مختلف طبقات البشر منها التمييز العنصري ، والإستغلال الإقتصادي وخنق الحريات ، إلى ما هنالك من ظلم وظلامة . . وفوق هذا كله كانت هناك الأخلاق الذميمة من خمر وميسر وتجاوز لجميع حدود الحياة الفردية والجماعية .

وكذلك بلاد العرب نفسها لم تكن بعيدة عن مثل هذه الأمراض ، بل كان فيها الكثير من المعضلات التي تحتاج إلى حل سريع من زعيم بارع كل البراعة وحاذق كل الحذق ، يعلم جيداً بكل أمراض العصر وأدواء الأمم . فالقوم جلهم إن لم نقل كلهم كانوا قد عمهم الجهل وغشيهم الإنحطاط الخلقي ، والفقر والجهل والفوضى في جميع مرافق الحياة ، وما ينتج عنها من غارات وحروب أهلية تدوم سنوات طويلة ، كانت تحدث لأسباب تافهة كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء . ناهيك عن الثأر المدمر وما يخلف من حزن وأسى وضغينة وتشتت . والبلدان العربية الساحلية إلى بلاد إليمن ومقاطعة العراق الخصيبة كلها كانت خاضعة للفرس ، كان يحكمها وال من قبل الشاه .

أما الشمال فكان قد تسرب إليه النفوذ الرومي إلى ثغور الحجاز نفسها .

وفوق هذا وذاك كان تغلغل اليهود المالي في أعماق الحجاز ، واتخاذهم فيها حصوناً منيعة لأنفسهم لأنهم كانوا يأكلون الربا ، ويوقعون العرب في حبائلهم ، كما تفعل اليوم أمريكا ، ينشبون أظافر الربا الفاحش في لحومهم .

ومن ناحية الغرب كانت مملكة الحبشة النصرانية التي كان لها عصبة من النصارى متصلة بها بعلاقاتها الإقتصادية والسياسية والإجتماعية . كل هذه العقبات والصعوبات كانت تحيط بشبه جزيرة العرب .

ولكن القائد الذي اصطفاه الله تعالى من بين عباده أجمعين لهداية البشر من الظلام إلى النور ، ومن الجهالة إلى الحق المبين ، لم يتعرض في أول أمره لإحدى هذه المعوقات ولم يقف عندها ، بل قام في الناس يدعوهم إلى الحق ، ويهيب بهم بصوته الهادي المحق ليعبدوا الله وحده ، ويجتنبوا الطاغوت . قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في أكل أمة رسولاً أنْ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾ ( النحل : 36 ) .

لقد بدأ رسول الله (ص) بحل تلك المشاكل واحدة بعد أخرى ، لكنه في أول أمره حصر جميع جهوده في نشر الدعوة بين الناس ، صارفاً وجهه عما عداها . والسبب في ذلك : أن كل نوع من أنواع الفساد الإجتماعي والخلقي كان ينشأ ـ حسب ما يراه

الإسلام ـ من علة أساسية واحدة ، وهي أن يجعل الإنسان نفسه مستقلاً برأيه ، حراً بتصريف شؤون حياته ، فلا يتخذ دون الله آمراً مطاعاً يخضع له وينقاد لأمره ؛ وما دام الفساد يسري في عروق الحياة الإجتماعية فلا يمكن لأي مشروع إصلاحي أن ينجح في اقتلاع جراثيم الشرور الفردية أو الإجتماعية . ولا مجال إلى الشروع في مهمة الإصلاح الحقيقي إلا أن تجرد العقول من هوى الإستقلال بنفسها ويعتقد الإنسان اعتقاداً راسخاً عن طريق الهادين المهدين أن : « هذا الكون الذي تعيش فيه وتتنفس ، لا يجري أمره من غير سلطان قاهر ، بل له ملك هو الحاكم المتصرف في شؤونه ، وما حاكميته بحاجة إلى أن تسلم بها أو تعترف بها ، وكذلك لا تقدر أن تقضي عليها أو تتمكن من الخروج عن حدود ملكوته . فما تبجحك بالإستقلال بإزاء هذه الحقائق الثابتة إلا ظن خاطىء وغلطة حمقاء ، عائد ضررها عليك لا يجني شرها إلا أنت .

فالعقل والشعور بالحقيقة الواقعية يقتضيان أن تطأطىء رأسك أمامه ، جلّت قدرته وتعالى شأنه ، وتكون له عبداً قانتاً مطيعاً لأوامره » كما ينبغي أن تعرض على الإنسان حقيقة ناصعة أخرى تقول : « بأنه ما من حاكم ولا ولي ولا مليك مقتدر لهذا الكون إلا ذلك الآله الواحد الفرد الصمد ، وأنه هو الحاكم القاهر الذي لا معقب لحكمه ولا شريك له في الملك ، ولا ينفذ في السماوات والأرض إلا أمره فلا تكن إلا عبداً لله ، ولا تأتمر إلا بأمره ، ولا تسجد لأحد من دونه ، فإنه ليس هناك من صاحب جلالة ، فالجلالة كلها مختصة بذاته جل وعلا ، وليس هناك من صاحب قداسة ، فالقداسة بأسرها مركزة فيه ، تقدست أسماؤه ، وليس هناك من صاحب سمو فالسمو لا يستحقه أحد من دونه ، تعالى شأنه ، وليس هناك من صاحب سيادة ، فالسيادة بأجمعها مقتبسة من شرفه ، جلت قدرته وعظم شأنه ، ولا شارع من دونه فالقانون قانونه ، ولا يليق التشريع إلا بشأنه ، ولا يستحقه إلا هو ، ولا ملك ولا رازق ولا ولي إلا هو ، وليس من دونه من يسمع دعاء الناس ويستجيب لهم . وليست مفاتيح الكبرياء والجبروت إلا بيده ، ولا علو لأحد ولا سمو في هذه الدنيا ، فكل من في السماوت والأرض عباد أمثالك ، والرب هو الله وحده . فارفض كل نوع من أنواع العبودية والطاعة والخضوع لأحد من دونه ، وكن عبداً لله ، قانتاً مستسلماً لأوامره » .

فهذا هو أصل كل صلاح لكل إنسان بنظر الإسلام ، وهذا هو الأساس الذي يقوم ويؤسس من جديد بنيان السيرة الفردية والنظام الإجتماعي كله على نمط خاص لا يجارى . وبذلك يحل جميع ما حدث من ألوان المشاكل في المجتمع البشري منذ عهد

أبي البشر آدم إلى يومنا هذا ، وتزول كل المعضلات وذلك بأسلوب فذ مبتكر لم يسبق له مثيل .

قام النبي الأمي محمد (ص) مولانا ورسولنا بدعوة هذا الإصلاح الأساسي من غير تهيؤ سابق ، ومن دون أعمال تمهيدية للشروع بهذا المشروع السامي الجليل . بل دعا الناس إلى الدخول في الإسلام مباشرة ، ولم يؤثر أن يسلك طرقاً ملتوية للوصول إلى الغاية المنشودة من هذه الدعوة ، بأن يأتي بادىء ذي بدء بشيء من الإصلاح الإجتماعي والسياسي والإداري والديني يستهوي به النفوس ، ويسحر الألباب ، حتى ينال بذلك شيئاً من القوة الحاكمة ، ثم ينطلق منها متدرجاً إلى الغاية المنشودة التي كلف أن يدعو الناس إليها .

كلا لم يكن هذا ولا ذاك ، والذي حدث أن عبداً من عباد الله قام في بطحاء مكة وصاح في أهلها بأعلى صوته : أن لا إله إلا الله ، ولم يلتفت إلى شيء دون ذلك طرفة عين . وهذا ما خص الله به الأنبياء ، لأن الذين يعاونوك على غير هذا الأساس : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » لا يمكنك أن تجد منهم عوناً تشد به أزرك ، ولا ينفعك في هذا العمل إلا الذين دفعتهم إليك كلمة : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حيث يجدون من أنفسهم ميلاً وانجذاباً إلى هذه الكلمة وحدها . لقد اتخذوها أساساً لحياتهم ولا نهضوا للكفاح ولا أجابوا الدعوة إلا على هذا الأساس .

فنظرية التوحيد هذه ليست هي بعقيدة دينية فحسب ، بل هي تحيي في الإنسان نظام حياة إجتماعية جديد مبني على أساس استقلال الإنسان بأموره أو حاكمية من غير الله والوهيته . ومن هذا المنطلق ينهدم البنيان القديم من أساسه ، ويقوم وينهض بدلاً منه بنيان جديد على أساس جديد ، يحمل كل الخير لجميع بني البشر .

واليوم المؤذنون يرفعون أصواتهم من مآذنهم خمس مرات في كل يوم وليلة ينادون بأعلى أصواتهم : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » .

ونحن نرى أن جميع الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم يسمعون هذا النداء ولكنهم لا يهتمون ولا يقدرون مضامينه السامية النبيلة! ولو علمت الدنيا ما يشتمل عليه هذا النداء ، وما يرمي إليه من غاية بعيدة المدى ، وأن المنادي ينادي بعزم وإصرار ، لانقلبت الأرض بمن عليها ولتنكرت الوجوه . وما يدريك كيف تستقبل الدنيا التي رضعت بلبان الجاهلية ، هذا النداء إذا عرفت سره وعلمت غايته ؟ .

إذا عرفت أن المنادي يقول : لا حاكم إلا الله ، ولا ملك إلا الله ، ولا أخضع

لحكومة أو دستور أو سلطان عليّ ، ولا أطيع أمراً غير أمره ، ولا أتقيد بشيء من العادات والتقاليد الجاهلية ، ولا أدين لسيادة أو قيادة ، ولا استخزي لسلطة متكبرة في الأرض متمردة على الحق .

إنما أنا مؤمن بالله ، مسلم له ، كافر بالطواغيت الأرضية والألهة الكاذبة من دونه ، ترى هل يسمع أهل الدنيا هذا النداء ؟ وهل تسكت عليه ؟ كلا ثم كلا ؟ سوف يعلنون الحرب علينا بمجرد سماع هذه « الكلمة » وسوف نرى الناس ينقلبون إلى عقارب وثعابين ، وإلى وحوش ضارية تبتغي أن تفترسنا افتراساً .

وهكذا كانت الحال عندما قام الرسول الأعظم (ص) يدعو الناس إلى هذه الكلمة فكل من أحس بالخطر ما عسى أن يصيبه من ضرر في شيء من مصالحه من جراء انتشار هذه الدعوة ، وثب ثم شمر عن ساعده لإخفات هذا الصوت المبارك العلوي ، وإطفاء هذا النور الألهي المبارك العظيم . لقد رأى السدنة والكهنة في هذا الصوت خطراً على سدانتهم وكهانتهم ، ورأى رؤساء العشائر أن هذا النداء يقضي على بنيان رئاستهم ، وأحس الرأسماليون وأصحاب الأنساب والجاه أن سلطانهم يميل إلى النزول وكذلك هواة العنجهية الذين ورثوا التقاليد عن آبائهم واتبعوها وعكفوا عليها وكأنها أوثان بنفسها أحسوا بالخطر الداهم على تلك العادات العريقة .

وباختصار لقد أحس كل من عباد تلك الأصنام المختلفة الألوان أن صنمه أصبح على شفا جرف ، وأن الطواغيت التي يعبدونها من دون الله محكوم عليها بالإنقراض ، فوقفوا في وجه الدعوة عاقدين العزم على إلقاء العراقيل في سبيلها .

وفي مثل هذه الحالة لم يستجب للدعوة إلا من كانت فطرته نقية صافية مستعدة ، دون طمع أو خوف لإدراك الحقيقة وقبول الحق ، ولا فرق عندها بعد ذلك أوقعت على الموت أم وقع الموت عليها . ولكن الذين استجابوا لله ولرسوله كانوا قلة ، لا يتجاوزون عدد الأصابع . ثم جعل عددهم يزداد بإذن الله ، فيأتون إلى النبي (ص) فرادى وجماعات حتى أصبحت الدعوة الإسلامية تنمو وتكبر ، والمقاومة ضدها تزداد وتشتد . فمن المؤمنين من ضرب ضرباً مبرحاً ، ومنهم من سجن ، ومنهم من سحب على رمال البطحاء في الظهيرة ، ومنهم من رمي بالحجارة ، ومنهم من فقئت عينه وشج رأسه ، وفريق آخر أغروهم بالمال والنساء والسيادة والإمارة .

لذلك كنا نرى أن ما استجاب لتلبية هذه الدعوة المباركة إلا من كانوا من خيرة السلالة البشرية وغرة الإنسانية عقيدة وأخلاقاً . والذي يؤكد ذلك أن هؤلاء النجباء لم

يقاسوا تلك الشدائد ولم يصبروا على تلك المكاره لأغراضهم الذاتية ، أو لمنافعهم الخاصة ، بل جهدوا وجاهدوا في سبيل الله ، وفي سبيل الحق ، فبذلوا مهجهم وأرواحهم وما زادهم جور الطغاة إلا قوة وصلابة وعناداً . كما تفعل أمريكا ، اليوم تماماً والتاريخ يعيد نفسه ، حرب المؤمنين مع الكافرين والمرتزقة والمرتدين . وان تكون تلك المدرسة أمر طبيعي في « مدرسة الشدائد والمحن » وكلما كان الهدف سامياً غلت وعظمت في سبيله التضحيات . قال أبو الطيب المتنبي مخاطباً نفسه :

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ولأجل تنشئتهم على هذه السجية فرضت عليهم الصلوات الخمس حتى تظل أنظارهم معقودة على الغاية المنشودة ، وحتى تقوى عقيدتهم بتجديد عهد الولاء والطاعة لمن بيده ملكوت السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

فرضت عليهم ليزدادوا ثقة وإيماناً بأن الله الذي عاهدوه على امتثال أوامره في هذه الحياة الدنيا إنما هو عالم الغيب والشهادة ، وأنه مالك يوم الدين ، فتطمئن عندها قلوبهم بطاعته .

لقد كانت هذه التربية الإسلامية النبيلة المساعد الأكبر في انتشار الدعوة ، كما ينتشر النور في الظلمات . يؤذون بالضرب والسجن ويفتنون بالمال ومغريات الدنيا ، ويخرجون من ديارهم فلا يتضعضعون ، ولا تضعف عزيمتهم ، ولا تزلزل أقدامهم ، فإذا استيقنت أنفس الناس كل ذلك أحبت الإستطلاع . والجواب واضح كل الوضوح ، كلمة واحدة « لا إله إلا الله » أحدثت فيهم مثل هذا الإنقلاب . وقد مثّلها صاحبها والقائم بأمرها (ص) بحياته الشخصية أفضل تمثيل ، حتى أنه كان يرى الناظر روح الإسلام الحقيقي في كل ما يصدر عنه (ص) من قول أو فعل أو تقرير ، وذلك من خلال سيرته المحمودة وأخلاقه الطيبة وحياته الطاهرة . فهل نحن على دربه سائرون ؟! .

لم يحفل النبي (ص) في سبيل الدعوة ونشر كلمتها بشيء من مصالح أسرته أو عشيرته أو قومه أو بلاده ، لا من قريب أو بعيد ، وهذا ما جعل الناس يستيقنون أنه (ص) إنما قام لسعادة المجتمع البشري قاطبة ، وهذا الذي جذب جميع الناس إلى دعوته من كل جنس ولون . لم يعنه أمر بني هاشم دون غيرهم ، وما كان همه أن يحمي قريشاً دون قبائل العرب الأخرى ، ولم تكن مهمته مقصورة على العرب وحدهم ، لذلك انضوى تحت لوائه بلال من الحبشة ، وصهيب من الروم ، وسلمان من الفرس . ومما

لا مرية فيه أن الذي جذب هؤلاء الناس جميعاً إلى قبول الدعوة الإسلامية والدفاع عنها ، أعلاهم وأدناهم ، أسودهم وأحمرهم ، قريبهم وبعيدهم ، إنما كان حبه الخالص لهم جميعاً ، وتجرده التام من الأغراض الذاتية والقبلية والقومية . وهذا هو الخلق العظيم الذي وصفه به ربه جل وعلا ، والذي كان له أثره في نفوس العرب جميعهم . ﴿ إنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

وفي مدة وجيزة لا تزيد عن عشر سنوات درَّب أصحابه على تنظيم دوائر الحكومة وإدارة كل فرع من فروعها على المنهاج الإسلامي السليم ، وقد انتقلوا من دور الفكرة المحضة إلى نظام مدني شامل وبينوا للناس كل نواحي النظم الإسلامية : الإدارية والقضائية والمالية والثقافية والإجتماعية ، وتجلى للملأ كل جانب من سياسة الدولة الإسلامية وخطتها في السلم والحرب . لذلك وجدوا أن لا رجاء للسعادة البشرية إلا في كنف الإسلام ، ولا نجاة للإنسانية المظلومة والمعذبة إلا في ظله .

ومن كان له علم بتاريخ الثورات في العالم ، لا يسعه إلا الإعتراف بأن هذا الإنقلاب الذي ما أريق فيه الدم إلا تحلة للقسم جدير بأن يسمى انقلاباً سلمياً . وما يجدر ملاحظته أنه لم يتغير بهذا الإنقلاب طرق إدارة البلاد فحسب ، بل لقد تغيرت وتبدلت به أيضاً نظم التفكير ، ووجهات النظر ، وطرق المعيشة ،ونوعية الأخلاق والعادات . وبالجملة لقد تحولت الأمة بأسرها تحولاً تاماً . من الضلالة إلى الهدى .

هذه هي سبيل الإنقلاب الإجتماعي الذي يريده الإسلام ، وهذا هو طريقه طريق مستقيم لا عوج فيه . ومن الناس من يحسب حدوث هذا الإنقلاب معجزة خارقة للعادة ، وأنه لن يتم إلا على يد نبي من الأنبياء ؟

ولكن إن جرينا اليوم في عملنا على ذلك المنهاج ، فلا بد إلا وأن تظهر تلك النتائج بعينها التي ظهرت من قبل . اللهم إلا أنه يحتاج إلى إيمان صادق وشعور إسلامي صاف ، وحنيفية كاملة وعزم قوي راسخ ، وتضحية بالمصالح الشخصية ، وتجرد عن الأماني الذاتية .

يحتاج هذا العمل الإنقلابي الجليل إلى كل ذلك ، وإلى رجال أولي عزم من الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ولم يلتفتوا بعد ذلك إلى شيء في قليل ولا كثير ، والذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ويضحون في سبيلها بكل ما لديهم ، والذين لا يتزحزحون قيد شعرة عما وضعوه نصب أعينهم من الغاية العليا مهما يجري من تقلبات الحوادث الدنيوية والذين يقابلون بصبر وجلد كل ما يعترض دون غايتهم من العقبات والمعوقات من خلال البيئة أو الأمة أو القبيلة أو الحكومة أو الوطن .

فمثل هؤلاء الرجال الذين حملوا لواء الدعوة وأعلوا كلمة الله في الماضي ، وكذلك اليوم لا يمكن أن تقوم لنا قائمة إلا بأمثال هؤلاء ولا تبنى بلادنا نظيفة سليمة من أعداء الله وأعداء الإنسانية إلا بمن كان على غرارهم وتحلى بأخلاقهم وجرى على سجيتهم .

والمثل ماثل أمام أعيننا اليوم حيث نرى الصليبيين يحتلون أماكننا المقدسة التي انطلقت منها كلمة الإسلام ، كلمة الإيمان : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » فعلينا أن نقولها من صميم القلب وليس من أطراف اللسان . فهل يسمع العرب اليوم ؟ وكيف يقابلون ربهم يوم الحساب ؟! .

# الفصل الثاني

# القرآن الكريم

كتاب الله ، قبس من النور والهدى ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض على سيد الخلق وأكرم الرسل ، محمد بن عبد الله (ص) ، وهو الكتاب المعجزة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد. آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا معاً ، نزلت هدى للبشر كافة فقضت على العبادات الضالة ، والأساطير الكاذبة ، والأوهام الباطلة حتى أحالت الظلام ضياء ، والضلال هدى ، والجهل علماً ومعرفة . لقد أحدث القرآن انقلاباً تاماً في جميع نواحي الحياة ، فنقل البشرية من عصر تسوده الفوضى والطغيان والعبودية والحروب والقلق النفسي ، إلى عدل وإخاء ، وأمن وطمأنينة ، وسلام وحرية ، وعمران وحضارة تعم الناس جميعاً ، ويسعد بها الجماعات والشعوب والبشرية قاطبة .

وبعد أن بلّغ العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه في كل مكان كما أمره الله عز وجل : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾ ( سبأ : 28 ) وقال تعالى أيضاً : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ ( الأنبياء : 107 ) حملت رسالته السمحاء إلى العالم السلم والسلام ، والأمن والمساواة ، والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة في تاريخ الإنسانية التي أنقذتها من ضلال الجاهلية الأولى وويلاتها المدمرة فتبارك الله رب العالمين .

والحق أن تعاليم الإسلام الواردة في القرآن الكريم تبغي وحدة النوع الإنساني ، وحدة يقام فيها العدل ويخيم الرخاء ويظلل السلام .

**نزوله :**

حكمة ربانية اقتضت أن ينزل القرآن على النبي المصطفى (ص) في ثلاث وعشرين سنة ، وذلك حتى تتهيأ النفوس البشرية لتلقي هذا الفيض الألهي قال تعالى :

﴿ وقرآناً فرقناه على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ ( الإسراء : 106 ) ثلاث عشرة سنة تم نزوله في مكة ، وهي موطنه الذي نشأ فيه ، وسميت الآيات والسور التي نزلت فيها مكية . وفي العشر سنين الأخرى كان يقيم (ص) في المدينة ، وهي دار هجرته التي قضى فيها بقية حياته ، وسميت الآيات والسور التي نزلت فيها ، أو في غزواته وأسفاره أثناء إقامته فيها مدنيّة . ومجموعها مائة وأربع عشرة سورة .

وكان أول نزوله في شهر رمضان المبارك وفي ليلة معروفة منه هي ليلة القدر قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ ( البقرة : 185 ) .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ ( القدر : 1 ـ 3 ) .

وظل ينزل به روح القدس جبريل بلسان عربي مبين . قال تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ، وإنه لفي زبر الأولين ﴾ ( الشعراء : 192 ـ 196 ) .

وكما هو واضح من خلال الآيات الكريمة أنه كلام الله أوحى به إلى رسوله الأمين الذي اختاره سبحانه لتبليغ آخر رسالاته إلى الناس كافة . وأول ما نزل من القرآن : سورة العلق ( آيات 1 ـ 5 ) .

﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

نزلت هذه السورة المباركة على رسول الله (ص) وهو يتعبد بغار حراء قرب مكة وأول ما نزل عليه (ص) بالمدينة قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين . الذي إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ، ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ ( المطففين : 1 ـ 6 ) .

وآخر آية نزلت عليه (ص) على أشهر الأقوال ما جاء في سورة المائدة : آية 3 ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ .

**موضوعات سوره :**

قلنا إن الآيات والسور مكية ومدنية ، فالمدنية بصفة عامة طويلة ، وتختلف عن السور المكية في المعاني التي تدور عليها والملائمة لظروف الزمان والمكان . مثل نظام العبادة ، وفرض الفرائض ، والتحليل والتحريم ، ونظام الأسرة في أحكام الزواج

والطلاق ، والميراث ، والوصية ، والعتق ، والإسترقاق ؛ ومثل نظام الجماعة في التكافل والتناصر على إقامة الحدود وحماية العرض والمال ، وتحديد المعاملة الحسنة في البيع والشراء والرهن والمداينة ، وتقرير العدالة في القضاء والأحكام ونحو ذلك مثل معاملة المسلمين لغيرهم من الأمم الأخرى في السلم والحرب ، وتقسيم الغنائم ، ومعاملة الأسرى ، وعقد الهدنة ، والمعاهدات الدولية ، وأخذ الجزية من أهل الذمة ، وغير ذلك مما تقتضيه مصالح البشر في الحياة الدنيا على اختلاف وجوهها في الزمان والمكان .

وفي تضاعيف ذلك كانت تذكر العبادات وتتردد الدعوة إلى التوحيد والبعث والحساب والثواب والعقاب والإيمان بالرسل السابقين والكتب السماوية .

أما السور المكية فكانت قصيرة وهي لا تختلف عن السور المدنية من حيث الطول والقصر بل تختلف أيضاً في المعاني ، فإنها تخوض غالباً في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتنزيهه عن مشابهة خلقه ، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع[1] ، والدعوة إلى الإيمان بالبعث والحساب ، يوم يبعث فيه الناس وينشرون ويحاسبون على ما قدموا في دار الدنيا ، فيجازى المؤمن بنعيم الجنة الخالد ، ويعاقب الكافر بجحيم جهنم الأبدي . وقد ورد ذلك في آيات كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ يحدث ذلك بعد أن : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ ( الزلزلة : 6 ـ 8 ) .

وقد أورد ذلك سبحانه عن طريق حكمة بالغة وموعظة حسنة ، أو معاقبة طاغية كفرعون ، أم أمم باغية كقوم لوط ، أو سيرة رسول مع قومه ، أو استدلال بخلق السماوات والأرض للتدليل على قدرة موجدها . ثم ورد أيضاً إنذار للمعاندين ونعي على الجاهلين ، وتقريع للمستهزئين ، وذم للكافرين . كل ذلك بعبارات بليغة مفصلة قصيرة مكررة يسهل على السامع حفظها وفهمها .

وجملة القول ان القرآن كتاب هداية البشر عامة إلى مكارم الأخلاق ، وإلى توحيد الله وعبادته وتنزيهه عن مشابهة خلقه ، كما هو كتاب تشريع للفرد والأسرة والجماعة والناس كافة .

---

(1) راجع ما فعله النبي إبراهيم الخليل ( ع ) عندما حطم جميع الأصنام التي كانت موجودة في الكعبة وترك كبيرهم ، ولما سئل عمن كسرها قال كبيرهم .

## كتابته وجمعه :

كان القرآن ينزل منجماً على رسول الله (ص) حسب المناسبات والظروف التي كان يعيشها العرب آنذاك ، وكان يكتب ما نزل منه بأمر من النبي المكلف بتلك المهمة الأهية ، على العُسُب واللخاف والأكتاف[2] . وكان الرسول (ص) يأمر كتاب الوحي بكتابة كل ما ينزل عليه وقت نزوله . واتخذ لذلك جماعة من أعرف الكتاب أمثال : علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبي بن كعب وزيد بن ثابت الذي كان يتقن عدة لغات : الفارسية التي تعلمها من رسول كسرى ، والرومية تعلمها من صهيب صاحب النبي ، والقبطية تعلمها من خادم النبي أيضاً ، والحبشية تعلمها من بلال خادم النبي ، والسريانية تعلمها بأمر من الرسول كما أمره أيضاً تعلم العبرية « لغة اليهود »[3] .

ولما انتقلت روح الرسول إلى الرفيق الأعلى وتسلم أبو بكر الصديق الخلافة عهد إلى زيد بن ثابت ، أحد كتبة الوحي الأبرار ، بجمعه . وقد تم ذلك وحفظ في بيت أبي بكر ، ولما توفي وخلفه عمر بن الخطاب انتقل المصحف إليه ، وبعد وفاة عمر انتقل إلى حفصة ابنته .

وهذا هو الجمع الأول للقرآن الكريم ، وكان الغرض منه جمع نص القرآن في مجموعة واحدة ، حتى لا يضيع منه شيء والله تعالى نزله على رسوله المصطفى وحافظه إلى يوم الدين . قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ( الحجر : 9 ) .

وفي عهد عثمان كثرت الفتوح وأخذ القراء في الأمصار البعيدة يختلفون في قراءاتهم وفي بعض الأداء . عند ذلك أمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، فنسخوا نسخاً من المصحف الموجود عند حفصة ، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه وأن يحملها القراء إلى الأمصار ويقرئوا الناس على حرفها . وأرسل بالمصاحف إلى مكة والكوفة والبصرة ودمشق وغيرها من المناطق البعيدة التي كانت تحت ظل الدولة الإسلامية كأرمينية وأذربيجان وغيرها من الأمصار الإسلامية ، ثم أمر بحرق كل النسخ الأخرى .

وهذا هو الجمع الثاني وسببه ، كما علمنا ، اختلاف المسلمين في وجوه القراءات حين قرأوه بلغاتهم على اتساعها . فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً ، ولما خشي من

---

(2) العسب : سعف النخيل . اللخاف : حجار رقيقة . الأكتاف : عظام اللوح من الحيوان .

(3) راجع فجر الإسلام لأحمد أمين وصحيح البخاري .

تفاقم الأمر ، أمر عثمان بنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتب السور واقتصر على لغة قريش وحدها دون غيرها من اللغات[4] .

وواضح مما قدمنا أن القرآن الكريم قد أحيط بسياج متين من المحافظة على نصه محافظة بالغة .

## قراءات القرآن :

أمر عثمان أن يكتب القرآن بلغة قريش وحدها ، وجمع الناس على قراءة واحدة ، وقد عمل أصحابه بما أمكنهم العمل به ، غير أن تلك الجهات التي بعث إليها عثمان بهذا المصحف كان بها من الصحابة من كان يقرأ القرآن بقراءة تخالف قراءة المصحف العثماني ، وكان هذا خالياً من الشكل ومن ثم نشأ الإختلاف من جديد بين القراء في الأمصار الإسلامية وكما هو معلوم أن العرب كانوا يختلفون في نطق الكلمات بالمد والتسهيل والإدغام والإظهار ، ونحو ذلك وفي طرق النطق والاداء ، وهذا مما أدى إلى اختلاف القراء في كيفية النطق ببعض الألفاظ القرآنية ، فتعددت القراءات ولكن على نحو لا يترتب عليه تغيير في نص آيات القرآن وذلك ما لا ضرر فيه . والقراء السبعة الذين رووا القراءات السبع هم :

1 ـ عبد الله بن عامر 118هـ .

2 ـ عاصم الأسدي 128هـ .

3 ـ عبد الله بن كثير 130هـ .

4 ـ أبو عمرو بن العلاء 154هـ .

5 ـ حمزة بن حبيب 156هـ .

6 ـ نافع بن أبي نعيم 169هـ .

7 ـ علي بن حمزة الكسائي هـ .

هؤلاء أشهر القراء وهناك فرق بين قراءات القرآن السبعة والأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم .

فالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم . فالأحرف السبعة هي لهجات سبع

---

(4) راجع شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي ص 26 .

من لهجات العرب والقرآن الكريم قد نزل بلغة العرب . قال تعالى : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً** ﴾ ( طه : 113 ) .

ولما كانت لهجاتهم مختلفة باختلاف الأقاليم والقبائل ، في بعض نواحي النطق اقتضت الحكمة الأهية أن ينزل على نبيه مشتملاً على لهجات العرب المشهورة ، فالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فمعظمه نزل بلهجة قريش ، وقد كتب بها أيضاً ، وبعضه نزل بلهجة هذيل ولهجة اليمن فكتب بهما .

وهذه الأحرف السبعة كان القرآن مكتوباً بها في عهد الرسول ، ولم يوجد منها شيء في مصحف عثمان ، لأنه كان مقصوراً على لهجة قريش وهذيل وثقيف ، وبني سعد ، وكنانة ، وأسد ، وقيس وأحلافها ، ثم ضعفت هذه اللهجات حتى زالت جميعها وبقيت لهجة قريش التي أصبح القرآن الكريم يتلى بها دون سواها .

## الأسلوب القرآني

كتاب الله وكلام الله نزل بأسلوب فريد لم تسمع به العرب من قبل فقد بهرهم رونقه ، وخلب ألبابهم جرسه ووقعه ، وملك نفوسهم سحره بما فيه من جمال اللفظ وسمو البيان وبراعة الصورة وروعة الأداء ودقة التعبير .

على هذا النظام الفريد من الجلالة والنضارة ودقة الصوغ وسرعة النفاذ إلى أعماق القلوب ، وجمال الإشراق الذي يسحر العقول . ولما سمع العرب هذا النسيج الجديد تحيروا وأطالوا النظر إلى ما فيه من جمال رائع ، وسحر ساحر ، وبيان باهر . ﴿ **إن من البيان لسحرا** ﴾[5] فقالوا ما هذا الذي يطالعنا به محمد ؟ أهو شعر شاعر ، أم سحر ساحر ، أم كهانة كاهن ، أم استعراض لأساطير الأولين ؟ ﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها وهي تملى عليه بكرة وأصيلا** ﴾ ( الفرقان : 5 ) .

وما كانوا يعلمون أن الذي راعهم وأعجزهم هو كلام رب العالمين ، صاغه معجزة نادرة تضعف وتتخاذل أمامه بلاغة فحول الأدباء من العرب . وقد تحداهم القرآن الكريم ليأتوا بسورة مثله فعجزوا وضعفوا . قال تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ ( الاسراء : 88 ) . وقد كان العربي المعروف بصلابته وعناده ، والممعن في عتوه

---

(5) المجازات النبوية للشريف الرضي .

وجهله يسمع ترتيل القرآن فيدخل على قلبه بلا إذن ولا استئذان ، ويملك عليه أسماعه بجمال وقعه وحسن جرسه دون جهد من نفسه .

وهذا الذي بعث الرقة في قلب عمر بن الخطاب وأشاع في نفسه الطمأنينة والإرتياح عند سماعه سورة من القرآن .

وهذا عتبة بن ربيعة يذهب إلى رسول الله (ص) ليثنيه عن قصده ، ويرجع به عن رسالته ولما سمع بضع آيات منه عاد إلى قومه قائلاً لهم : « لقد سمعت منه كلاماً ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » .

وهذا فاتك من فتاك الليل سمع قارئاً يرتل في جنح الليل قوله تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ ( الحديد : 16 ) . فرق قلبه ، وخشعت جوارحه فاجتذبته روعة القرآن وبلاغته وسحره وصاح بأعلى صوته : قد آن يا رب . ثم أقلع عن سيرته الماضية وتاب عن معاصيه . وبعض الأعراب سمع قارئاً يقرأ الآية الكريمة : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين ﴾ ( الحجر : 94 ) سجد راكعاً مسحوراً وقال : سجدت لفصاحته . والعرب كما هو معروف هم أهل بلاغة وبيان وفصاحة ولسان يمتلكون ناصية اللغة العربية ويعلمون أسرارها .

وأنصت بعضهم إلى قوله تعالى : ﴿ فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا . . . ﴾ ( يوسف : 80 ) فقال بعد سماعه أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على صياغة مثل هذا الكلام! .

وسمع آخر قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ ( الذاريات : 20 ـ 23 ) فصاح من أعماقه وقال : « يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه لليمين » .

هكذا كان يغزوا القرآن كل قلب بسحره وروعته ، وهكذا كان يصل إلى مكان الرضى والإعجاب من كل نفس بقوة وقعه . ولا عجب ، فكل من ينصت إلى كلام رب العزة يلمح فيه إعجاز البيان ، وسمو التعبير ، وبلاغة الأسلوب . وعظمة القرآن الأدبية وقوته البيانية تعودان إلى أسرار كثيرة ومزايا عظيمة نسجل بعضاً منها على سبيل الذكر .

## بعض أسراره ومزاياه

1 ـ قوة في التصوير ، ودقة في التعبير ، وعمق في المعاني ، وبعد في التأثير لم ير العرب في ماضيهم وحاضرهم عبر تاريخهم الأدبي تصويراً أجمع لأطراف المعنى وأبلغ إثارة للمشاعر من تصوير القرآن الكريم . فأنت ترى الصورة وكأنك تلمسها بيدك ، وتحس الراحة تدخل إلى نفسك والنشوة تسري في أنحائك فتأمل مثلاً تصويره سبحانه وتعالى للحياة الدنيا مخاطباً الذين يبغون في الأرض بغير الحق ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ ( يونس : 24 ) ثم انظر إلى هذه الصورة القبيحة التي تصف الضال الغاوي وصفاً تختلج له الأعضاء وتضطرب المفاصل . قال تعالى : ﴿ . . . لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ ( الاعراف : 175 ) .

أو قوله تعالى مخاطباً ابن نوح الذي عصى أمر أبيه : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ ( هود : 44 ) .

الله أكبر ما هذا التصوير الذي ترتعد له الفرائص وتخرج النفوس عن صمتها مما يزاولها من خوف وذعر .

أو قوله تعالى لمن باعوا الهدى بالضلالة : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ ( البقرة : 16 ـ 17 ) .

من عادة التاجر يبيع ليربح أما هم فقد باعوا الحسن بالرديء والجيد بالقبيح فمثلهم كمثل الذي ينير الطريق لغيره ويبقى هو في الظلام الدامس .

والحكمة الأهية اقتضت بضرب الأمثال الواقعية الحسية الواضحة كل الوضوح لكل من رزق حظاً بسيطاً من بصر أو بصيرة فلعلهم يهتدون . أما المؤمنون الذين اهتدوا إلى عبادة ربهم الواحد الأحد الفرد الصمد ، والذين عملوا الصالحات ، فقد بشرهم الله عز وجل بأحسن بشرى وأفضلها . قال تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿ وبشر الذين آمنوا

وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ ( البقرة : 25 ) فمن لا يهتز نشوة حين يسمع مثل هذا القول وكأنه يحس بالراحة تدخل إلى قلبه والغبطة تسري في جوارحه فتفعمه طرباً ونشوة فهذا هو نعيم المتقين وهذه هي سعادة المؤمنين .

وهكذا نرى في كل الصور القرآنية لوحات فنية رائعة خالصة التصوير يجول فيها الفكر وينعم بها الذوق وتهدأ بها الحواس . فأتت إلى جانب سمو البيان إبداعاً في الصياغة والتعبير وإحكاماً في النظام والتدبير ، ودقة في التصوير والتمثيل .

2 ـ **روعة الحكم والأمثال** : تتدفق في جوانب القرآن الكريم مختلف الحكم التي بلغت من الدقة في التصوير والصدق في التعبير مبلغاً لا ترقى إليه حكمة . حكمة بليغة موجزة جاءت إعجازاً من الفرائد التي لا يدانيها بليغ مهما أوتي من صفاء الذهن وروعة البيان . فتأملوا أيها العرب البلغاء هل يدور في خلدكم أدق وأروع تصوير للجماعة الفاشلة في تجمعها والمخادعة في حياتها من هذا القول الكريم ﴿ **بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾ ( الحشر : 14 ) . وهل وجد العرب أسمى حكمة وأجل أدباً من وصفه تعالى للمؤمنين ؟ ﴿ **والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما** ﴾ ( الفرقان : 72 ) .

وهل هناك من وصف للحياة الدنيا فيه الإيجاز البليغ أكثر من قوله تعالى ؟! فلا مرية في الأمر إنه خير القائلين . قال تعالى : ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ ( العنكبوت : 64 ) .

وهل أقرب تصويراً للطبائع البشرية واعتزاز كل جماعة بما عندهم وفرحهم بما لديهم كما هو حاصل اليوم ؟ قال تعالى في أمر هؤلاء : ﴿ **من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ ( الروم : 32 ) .

أما الأمثال فقد وردت كثيرة والحكمة فيها أنها أقرب إلى الإقناع بعد الشرح والتعليل وبعد البيان والتحليل .

جاء المثل وليد التجربة الحياتية الواقعية المعاشة بعبارات قريبة المتناول لكنها بعيدة المرمى ، يهدف إلى الصلاح والإصلاح ، عل الإنسان يتحسس به ويستفيد من مضمونه .

قال تعالى في شأن الكلمة الطيبة : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة**

كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ ( ابراهيم : 24 و25 ) . فتأمل هذه البلاغة في التعبير الطيب الذي يطابق بين الكلمات وخير الحياة حتى كأن « الكلمة الطيبة شجرة طيبة » أو كأن الشجرة المثمرة كلمة طيبة الأثر . . . فمقياس أصالة الإنسان : ايتاء الأكل ، أي إعطاء الثمر الطيب ، الذي يعطي تناوله الصحة والنماء . . هذا المقياس الأصيل الذي يبرهن واقعية الوجود الإنساني في المجتمع والتاريخ وفي الطبيعة والزمان . . فالشجرة التي لا تثمر تفقد صلتها بالأصل الثابت في الوجود وكذلك هي حال الكلمة التي لا تأثير لها تفقد صلتها بأم الكتاب . . القرآن الكريم .

والكتاب في اصطلاح الوحي المقدس ، يعني القرآن ، والإنجيل ، والزبور ، والتوراة ، ويعني ما تحدده تلك الكتب لهذا اللفظ في ميادين الحياة التي يمارسها الأحياء في الدنيا والتي تتفتح فيها طاقاتهم خيراً كثيراً أو قليلا .

أما الكتب التي بين أيدينا ، كتب القراءة ، فهي صحف سطر عليها كلمات متفاوتة المستويات ، قرباً من الكتاب الأصل الأزلي المثمر ، أو بعداً عنه وانحرافاً إلى شجر بلا ثمر ولغو بلا أثر ، وبشر ولا بشرا !

وقال تعالى مكملاً الصورة الحقيقية لواقع الكلمة ووقعها : ﴿ وكلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ ( ابراهيم : 26 ) فالمتكلم بكلمة خبيثة اجتث من المجتمع البشري وكأنه غير موجود بين الأحياء . فهو حي ميت ، جسمه حي ووجوده ميت ساقط .

أما فيما يعود إلى الإقتصاد ، فقد وضع الإسلام ميزان الإعتدال فلا بخل ولا إسراف ، ولا حرمان ولا تبذير . قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا ﴾ ( الاسراء : 29 ) .

والإسلام دين محبة وسلام ودين تواضع وأخلاق إنسانية عالية ، فقد رفض التكبر والتعالي على الآخرين وأمر بالتواضع . أما الذين في طبعهم رواسب من السوء فلا يستطيعون إخفاء ذلك ، وسرعان ما يظهرون على حقيقتهم عند النعمة أو عند النقمة . قال سبحانه وتعالى فيهم : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوساً . قل كل يعمل على شاكلته . . . ﴾ ( الاسراء : 83 ) ولا يزال هذا المثل « كل يعمل على شاكله » يجري على الألسن عند عامة الشعوب العربية .

3 ـ حسن وقع الكلام : يقال لكل مقام مقال فللإيجاز ضرورة عند المخاطبة ، وللإطناب ضرورة أيضاً عندما يريد الخطيب الشرح والتفصيل . وهذا هو سر البلاغة في اللغة العربية . فكيف إذا كان الكلام من رب العالمين وإذا كان صاحب الكلام النبي محمد (ص) سيد المرسلين ؟

ففي المواطن التي تستدعي الإطناب والشرح والتحليل نجد القرآن يشقق ألواناً من الكلام تميل إليها النفس وينصت لها الوجدان حتى إننا نرى قصة كاملة مفصلة تفصيلاً أدبياً رائعاً .

ففيما ورد في قصة النبي يوسف (ع) نلاحظ ألواناً شتى من الإنفعالات والعواطف ، والغضب والرضا ، والحب والحقد والبغض والغيرة . ذلك كله نلمسه إثر الإطناب من أجل الإحاطة بالموضوع ودقة التصوير . قال تعالى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم . لقد كان في يوسف وأخوته آيات للسائلين إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون . . . ﴾ ( يوسف : 4 ـ 14 ) .

وإذا تأملنا سورة الرحمن وجدنا التكرار في نهاية كل آية ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وذلك لتجديد الإقرار بالنعم التي أسبغها الرحمن على عباده والتي من واجبهم الشكر عليها .

وفي سورة المرسلات نجد التأكيد على إقامة الحجة والإعذار . يقول تعالى : ﴿ فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت وإذا الرسل أقتت ، لأي يوم أجلت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذٍ للمكذبين ، ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين ، ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ ( المرسلات : 8 ـ 19 ) .

وهكذا تتوالى الآيات . . . وتنتهي ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ لتأكيد الحجة وإثباتها على الجاحدين لفضل الله وذلك حتى يرتدعوا عن غيهم أو يذوقوا عذاب الآخرة يوم الفصل حيث لا مجال للتبرير أو التراجع عما اقترفوا من آثام في الدنيا ﴿ هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ .

هذه المواضع وأمثالها تستدعي الإطناب والتفصيل لأن المقام يتطلب مثل هذا المقال .

أما في المواضع التي تستدعي الإيجاز وتتطلب الإختصار والقصر ، فالقرآن الكريم ، المعجزة في البلاغة ، فقد وضع اللفظ بإزاء المعنى ، وأشار بالإشارة العابرة إلى ما لا يتناهى من المعاني السامية . ولا يخفى أن الإيجاز في موضعه وتكثيف المعنى من أدق المواطن التي تستبين بها بلاغة البلغاء ، وتبرز قيمهم الفنية ، وتتوضح قيمهم الأدبية . قال بعض النقاد : المعاني أجساد والألفاظ لباس لها ، ويجب أن تفصّل الألبسة على مقادير الأجساد تماماً .

وقال البعض الآخر : الألفاظ أجساد والمعاني أرواح لها والأديب البليغ هو الذي يوفق بين الأرواح والأجساد فتأتي منسجمة تمام الإنسجام ومتوافقة على أكمل ما يرام .

وإننا نجد القرآن الكريم قد أحكم وضع اللفظ بإزاء المعنى إحكاماً لائقاً منسجماً فيه الجمال الجميل والجلال الجليل حتى يكاد السامع يخر ساجداً لهذا البيان المشرق ، والتعبير البليغ ، والأسلوب الخلاب . من ذلك نورد بعض الأمثلة على سبيل الذكر لا الحصر . قال تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ﴾ ( البقرة : 199 ) ولا ريب أن هذه الآية هي عنوان كبير في التربية والأخلاق ، ورصيد كامل شامل تتفتق منه فصول مهمة في تربية أفراد الأمة .

وقوله سبحانه وتعالى مخاطباً النبي المصطفى عندما دعا الناس إلى الهدى فلم يسمعوا ولم يستجيبوا لنداء رب العالمين : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ( الأعراف : 198 ) . فتأمل هذا الإيجاز الذي ما بعده إيجاز غيره ، فعل أمر مع مفعول به وهكذا تتوالى ثلاث جمل موجزة مختصرة بآية واحدة هي آية في البلاغة والإيجاز .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ( الاحقاق : 13 ) .

وقوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ ( الحجر : 94 ) . ونتابع قوله تعالى مخاطباً رسول الله ( ص ) بما يعود على المشركين : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾ ( الحجر : 95 ) .

وقوله تعالى في الهداية والضلال : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء ﴾ ( الإسراء : 97 ) .

وقوله تعالى : ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ ( الإسراء : 80 ) .

وقوله أيضاً : ﴿ وقل جاء الحق وزَهَقَ الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ( الإسراء : 81 ) .

وكذلك نجد إيجاز الحذف والاختصار في كثير من الآيات لا يحصيه العد مثل قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ ( الزمر : 73 ) .

وقوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . . . ﴾ ( الرعد : 33 ) لقد حذف الجواب وذلك حتى تذهب فيه النفس كل مذهب وتختار ما يناسب فكرها وضميرها من الجواب .

وهكذا يبدو لكل ذي بصر وبصيرة أن أسلوب القرآن الكريم قد تميز عن أساليب العرب المعروفة بما تهيأ له من حكم عالية ، وصور رائعة ، ومعان سامية ، وارتباط وثيق بين سمو المعاني وعذوبة الألفاظ . ويكفي فيه أنه أسلوب رب العالمين وخالق الخلق أجمعين ، جلت قدرته ، وعظم صنعه ، وسمت معجزته .

هذا ولم ينجز على مألوف نثر العرب المسجع الملتزم ، ولا شعرها الموزون المقفى ، بل هو آيات وفواصل يشهد الذوق السليم وتفيد البلاغة العربية بانتهاء الكلام عندها .

فتارة يكون سجعاً طبيعياً سائغاً ، وطوراً تكون موازنة ومطابقة وازدواجاً ، وأحياناً لا هذا ولا ذاك بل أسلوب قرآني وكفى والأسلوب القرآني نموذج فريد وقع على أسماع العرب المعروفين بفصاحتهم وبلاغتهم عند الأمم ، ونمط جديد من البلاغة والروعة ، وجمال ساحر من عبقرية التصوير وجمال التعبير ، أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة والقوة والعذوبة فضم البلاغة من كل أطرافها وكان المعجزة .

# بلاغة القرآن الكريم

إنه أبلغ أثر أدبي عرفه العرب عبر العصور ، وأفصح كتاب سماوي نزل به الوحي على أبلغ العرب لساناً ، وأروعهم أسلوباً ، وأطبعهم على البلاغة والبيان . ليس في دنيا العرب كلام عربي يرتقي إلى منزلة القرآن في الفصاحة والبيان . علماً أن العرب اشتهروا بهذا الفن ، فن القول ، في الشعر ، والنثر ، والخطابة ، والقصص ، والحكم والأمثال ، والوعظ والوصايا ، ومع ذلك وقفوا عاجزين أمام سحره وبلاغته وقبل نزول القرآن وبعد نزوله حتى اليوم ليس هناك كلام عربي يضارعه بلاغة وجمالاً وسمواً وجلالاً .

وقد حاول كثير من أدباء العرب معارضة القرآن أو تقليده فعجزوا وذلوا ووقفوا أمام بلاغته حائرين . إلى مثل هؤلاء جاء قوله تعالى يخاطبهم متحدياً أن يأتوا ولو بسورة واحدة مثله :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ( البقرة : 23 ) .

ومع ما وصل إليه علماء البلاغة حتى اليوم من معايير لقياس بلاغة الكلام وفصاحته ، وبأي معيار عايروا القرآن يبقى كتاب الله في الدرجة العليا من البلاغة ، يهدي إلى ذلك الذوق والطبع . وقد ذهب عبد القاهر الجرجاني إلى أن بلاغة الكلام في نظمه ، فالمزية هي لتأليف الكلام ، وضم بعض أجزائه إلى بعض ، وتخير كلماته وحسن مقاطعه ، مراعياً في ذلك كله مقتضيات الأحوال . والقرآن الكريم من ذلك كله في الطبقة العليا من طبقات نظم الكلام وحسن صياغة الأسلوب .

سمعه البلغاء فخروا ساجدين لبلاغته ، والفصحاء فاذعنوا معجبين لفصاحته وقالوا : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ ( المدثر : 24 ) ولما سمع الوليد بن المغيرة قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ ( النحل : 90 ) . فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشر[5] .

فعناصر البلاغة بكل دقائق بيانها وبكل أسرار ذوقها الأدبي تتمثل جميعها في القرآن

---

(5) راجع تفسير الزمخشري في سورة المدثر ، ومغدق : كثير الماء .

الكريم . فوضوح في الكلام مع تلاؤم مفرداتها ، واستعمال أضرب الخبر في وجوهها ومقاماتها ، والحذف في موضعه والذكر في موضعه ، والتقديم والتأخير حسب مقتضى الحال والتعريف والتنكير في المكان المناسب ، كل في المقام الذي يستدعيه ثم تجد القصر ، والوصل ، والفصل ، والإيجاز ، والإطناب في الموضع الذي يستدعيه . وكذلك تجد الإستعارة والتشبيه والكناية والتمثيل ، والمجاز بكل ضروبه قد أتى كل منها على أدق ما يكون الكلام والطباق والمقابلة ، والسجع والجناس ، قد استعمل استعمالاً لائقاً يسهل فهجمه ويصعب تقليده .

أما القسم فقد أتى أيضاً في موضعه على أتم ما تكون البلاغة . فتأمل قوله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

أو قوله تعالى : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ أو قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ﴾ أو قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى ﴾ و ﴿ والتين والزيتون . . . ﴾ فسوف تجد جمالاً ساحراً يأخذ بألباب العقول ، وبياناً عبقرياً يتجاوز حد المعقول ، ولا عجب فهو كلام الخالق وليس بكلام مخلوق . كلام رب العالمين الذي نزل على الرسول المصطفى الأمين . الله أكبر ! ما هذا السحر الساحر ، وهذا النور الباهر ، كلام عجيب وسحر غريب ومنطق فريد .

وقد حلل النقاد والبلغاء بعض الآيات القرآنية الكريمة كالجرجاني والزمخشري والسيد قطب وغيرهم ، من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ﴾ ( الزمر : 67 ) .

وقوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ ( الأعراف : 154 ) .

وقوله تعالى : ﴿ رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ﴾ ( مريم : 3 ) .

وقوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ ( هود : 41 ـ 44 ) .

هـذا غيض من فيض فهنـاك الكثير من المجـازات والاستعـارات ، والتشبيهـات والكنايات كلها مصوغـة ببلاغـة فريـدة نادرة تـأخذ بمجـامع القلوب بمـا فيها من بـلاغة وفصاحة هذا الكتاب الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

**القرآن حصن قوي للغة العربية :**

بين ظلال القرآن الكريم والإسلام الرحيم تـلازم قديم ، وبين انتشار الإسلام وازدهار العربية تلازم أيضـاً . وقد أصبحت عـالمية وخـالدة بخلوده ، واتسعت شبكتهـا باتساع نفوذه . وبذلك كانت عوناً للإسلام كما كان عـوناً لهـا ، وستظل أداة طيعة لنشر الفكر الإسلامي . جاء في كتاب للدكتور مازن مبارك :

« هل عرف العالم إسلاماً بلا قرآن ؟ وهل عرف العالم قرآناً بغير العربية ؟ ثم تابع قائلاً : إن ارتباط كتاب سماوي مقدس بلغة بعينها ـ كارتباط الإسلام باللغة العربية ـ أمر لم نعرفه لغير هذا الـدين ولغير تلك اللغـة ، وإذا كان غـير القرآن من الكتب السـماوية ـ كالإنجيل مثلاً ـ قد ترجم إلى لغات كثيرة وبقي على مـا هو عليـه من كونـه كتابـاً تعبديـاً مقدساً ، فإن القرآن بلفظه ونصبه ، لم يـترجم ولا يمكن أن يترجم ، وإن تـرجمة أفكـاره ومعانيه ، وإن أفكاره ومعانيه لا تسمى قرآناً ، ولا يصح أن تكـون ـ في الإسلام ـ كتاباً تعبـدياً لأن القـرآن ليس قـرآنـاً بـأفكـاره ومعـانيـه فقط ، وإنمـا هـو بـالمعـاني والألفـاظ والأسلوب ، بالنظم والأفكار جميعاً ، وإذا كانت لدى غير المسلمين صلوات تتلى بغير لغة الكتـاب المقدس ، فـإن الحكم الشرعي في الإسلام : « أنـه لا صلاة بغـير اللفظ العربي للقرآن »[7] .

وكما يتضح لنا أن الارتباط بين العربية والقرآن أمر واقعي وفرض مقـرر ، والمنفعة متبادلة بين انتشار الإسلام الذي أدى إلى انتشار العربية أو انتشار العـربية الـذي أدى إلى انتشار الإسلام .

والحقيقة أن الذين يدركون حقيقة هذا التلازم بين العربية والإسـلام هم مسلمون ملتزمون بالإسـلام ديناً وشرعـة ومنهاجـاً ، مؤمنون بـوحدة الأمـة العربيـة الإسلاميـة ، ووحدة وطنها ، ووحدة فكرها ، يسعون إلى تحقيق ذلك كله على هدى وبصيرة . وبذلك يمكننا القول بتجرد وموضوعية ، « إن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله » .

وقد عبر عن ذلك الإمام والعـالم المعروف ابن تيميـة في كتابـه : « اقتضاء الصراط

---

(7) راجع نحو وعي لغوي ص 125 .

المستقيم »[8] . ولا ريب أن الإسلام قد اتخذ العربية لغته الدينية الرسمية لأنها لغة الرسالة الشاملة وأداة الإسلام لنشر لعدالة والسلام بين أمم الأرض قاطبة .

وبذلك فالعربية ليست لغة الوحي فقط وليست لغة النبي ( ص ) فقط بل هي لغة الوحدة الشاملة الفعلية للأمة جمعاء والمسلمون الناطقون باللسان العربي المبين ليسوا وحدهم مسؤولين عن تعزيزه ونشره وإذاعته ، بل المسلمون جميعاً ـ أياً ما تكن لغتهم[9] ـ مسؤولون بالمستوى نفسه عن هذه القضية البالغة الأثر في الحياة الإسلامية وذلك لتحقيق الهدف للدين الحنيف ورسالة الإسلام . ولا يخفى ما للتطور الإجتماعي من أثر في أن القرآن الكريم والحديث الشريف أتاحا لهذا التطور الفرصة الذهبية ليأخذ مجراه من بابه الواسع . فالإسلام أضفى على اللغة العربية طابعاً من « القداسة » حين اعتبرها وسيلة التعبير المثلى عن رسالته العالمية الخالدة . وهو وإن ظهر في بيئة عربية خالصة لم ير منافساً لها لغة من اللغات الأخرى في البلدان الواسعة التي افتتحها .

والإسلام كما هو واضح في رسالته الإنسانية يرفض التمييز العنصري ويرفض القبلية والطائفية والحزبية ، ويصرح بعدة آيات كريمات إلى دعوته العالمية ونزول القرآن باللسان العربي المبين . قال تعالى : ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين** ﴾ ( الشعراء : 193 ـ 195 ) . فالله سبحانه وتعالى يشيد بهذا اللسان العربي وهذا ما يوحي إلى كل العرب في أي زمان ومكان بالفخر والاعتزاز . يؤكد ذلك ما جاء في سورة النحل وسورة الرعد وسورة يوسف وسورة طه وسورة الشعراء ، وسورة فصلت كلها تصف القرآن بأنه نزل بلسان عربي .

وإذا راجعنا التاريخ وجدنا كل الوقائع تثبت أن اللغة العربية في كل الأقاليم التي افتتحها الإسلام ، فرضت نفسها بصورة تلقائية ولم تحتج بأي شكل لأي لون من ألوان الدعاية . والذي ساعد على ذلك أن الفاتحين الأوائل كانوا من العرب الخلص الذين لم تشب لسانهم أي شائبة أو لحن ، فيسر لهم هذا فهم اللغة القرآنية واستخراج الأحكام الشرعية من المصدر الإسلامي الأصيل . وكان لزاماً على غير العرب تعلم اللغة العربية واتقانها والتفقه في أسرارها وصفاتها وميزاتها .

قال في ذلك العالم المعروف ابن تيمية : « فإن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي ،

---

(8) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم ص 96 .

(9) من رجال فكر وحضارة وتاريخ واجتماع وعلماء ولغة من غير المسلمين كالمستشرقين ومنهم المستشرق الفرنسي ماسينيون الذي تأثر بابن تيمية وأخذ عنه .

وجعل رسوله مبلغاً عنه والحكمة بلسانه العربي ، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به ، لم يكن سبيل إلى حفظ الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان ، وصارت معرفته من الدين ، وصار اعتياد التكلم به أسهل على أهل الدين ، وأقرب إلى إقامة شعائره ومشابهتهم للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار »[10] .

ولم تقتصر إجادة العربية على العرب الأصيلين فقد برع فيها وأتقنها إتقاناً كاملاً العجم حتى أدركوا كنهها وصاروا من أئمتها . قال ابن خلدون : « إن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه الفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام ، كانوا أعجاماً مع حصول هذه الملكة لهم . . إنما كانوا عجماً في نسبهم فقط . . . فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا شيء وراءها ، وكأنهم في نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم ، حتى أدركوا كنه اللغة ، وصاروا من أهلها ، فهم وإن كانوا عجماً في النسب فليسوا بأعجام في اللغة والكلام ، لأنهم أدركوا الملكة في عنفوانها ، واللغة في شبابها » .

فاللغة العربية كانت أداة توحيد بين كل المسلمين وكل من تكلم بها وأتقنها . قال الإمام محمد رشيد رضا : « نودي بالصلاة جامعة . واجتمع الناس وخطب فيهم النبي ( ص ) قائلاً : « أيها الناس ، إن الرب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي »[11] .

وقال ( ص ) : « أحب العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، ولسان أهل الجنة عربي »[12] . ولعل من هذا الحديث استنتج الفارابي في « ديوان الأدب » « هذا اللسان كلام أهل الجنة »[13] .

تعلم العربية واجب :

العربية هي لغة القرآن وهي بالتالي شعار الإسلام وعلى العربي أن يجعلها لغته الأم ولا يفضل اللغات الأجنبية الأخرى عليها ، كما حدث في البلدان العربية التي احتلها المستعمرون وفرضوا لغتهم على العرب كالفرنسيين والإنكليز . ولا ريب أن التكلم باللغات الأجنبية ليس ممنوعاً أو حراماً ولكن تفضل الأجنبية على العربية أمر مكروه .

---

(10) اقتضاء الصراط المستقيم ص 162 .

(11) الوحي المحمدي ص 230 .

(12) اقتضاء الصراط المستقيم ص 75 .

(13) المزهر ج 1 ص 342 .

أكد فقهاء الإسلام من أئمتنا أن العربية لم تكن أداة توحيد بين المسلمين فحسب ، بل كانت أيضاً من الزاوية الشرعية ، اللغة الوحيدة التي يفضل الدين استعمالها .

من هؤلاء الفقهاء شيخ الإسلام ابن تيمية ( ت 728 هـ ) كان من أشد العلماء حماسة لهذه القضية . فقد دعا بصوت عال إلى التعود على التكلم بالعربية ، والتعبير بها بيسر وسهولة . ورأى أنها الوسيلة الوحيدة التي تلقن للأطفال في البيت والمدرسة[14] .

من هنا علينا أن نحذر الزواج بالأجنبيات اللواتي لا يعرفن التكلم بالعربية فيعلمن أولادهن بلغاتهن وتصبح العربية لغة أجنبية وبذلك يدخل اللحن إلى العربية ويفسد اللسان العربي ، وهذا ما حصل في العصور العباسية عند اختلاط العرب بالروم والفرس ، وهو ما يحصل اليوم عند شبابنا العرب الذين يتخصصون في بلاد الغرب فيأتون بشهادات أجنبية وزوجات أجنبيات وأولاد يلحنون . . .[15] لذلك يرى ابن تيمية وغيره من علماء الإسلام أن تكون العربية وحدها لغة الدولة والجيش[16] ، ويزيد قائلاً :

وإن من الإثم ـ البالغ حد النفاق ـ أن يتكلم مسلم يجيد العربية بغير العربية ، وأن من أسوأ الأشياء ، في البيع والشراء ، أو محادثة الأصدقاء أو المذاكرة في أمور الدين ، أن يتكلم المسلم بغير العربية[17] .

وهذا ما يحصل في مجتمعاتنا المتطورة حيث يعتبرون أن التحدث بالأجنبية في الاجتماعات والسهرات والحياة الاجتماعية هو من معايير التقدم والحضارة الحديثة . فنشأ عندهم جيل ينطق بالفرنكو ـ عربي Franco- arab . كما في الجزائر وتونس والمغرب ولبنان . . .

أما الصلاة ، وقراءة القرآن ، وذكر أسماء الله الحسنى ، فلا يجوز منها شيء بغير العربية ، إلا لمن كان عاجزاً عن فهم هذه اللغة عجزاً مطلقاً ، وتعلم العربية واجب على كل مسلم قادر ، ما دام فهم الكتاب والسنة متوقفاً عليها[18] .

---

(14) الاقتضاء لابن تيمية ص 98 .

(15) الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

(16) المصدر نفسه ص 97 .

(17) المصدر نفسه ص 98 .

(18) المصدر نفسه .

ويفيدنا التاريخ أن العرب المسلمين لما افتتحوا البلاد الأجنبية علموا العربية لأهلها ، ففي الشام ومصر كانت لغتهم الروميّة ، وفي العراق وخراسان كانوا يتكلمون الفارسية ، وأما أهل المغرب فلغة أهلها البربرية . فقد عودوا أهل هذه البلاد على التكلم بالعربية ، مسلمهم وكافرهم . ولكن أهل خراسان تساهل أهلها في أمر اللغة واعتادوا التخاطب بالفارسية حتى غلبت عليهم ، لذلك صارت العربية عند كثير منهم وكأنها مهجورة وهذا بلا ريب أمر مكروه .

لذلك قال ابن تيمية بهذا الشأن : « وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية حتى يتلقفها الصغار في الدور والمكاتب ، فيظهر شعار الإسلام وأهله ، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف ، بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلى اخرى فإنه يصعب عليه .

واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً ، ويؤثر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشابهتهم تزيد العقل والدين . وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب »[19] .

والمشكلة التي نعاني منها اليوم في كل قطر من أقطارنا ، ازدواجية اللغة ، فلو رجعنا إلى عقائدنا ومشاربنا لرأينا من الواجب علينا أن نتكلم بلغة عربية واحدة ، لأنها هي التي تصون شخصيتنا من الهجنة والمياعة والضياع ، فكما أن للإنسان أماً واحدة ، فإن لغته الأم هي واحدة وليست لغتين . ولكن ، مع الأسف الشديد ، نرى فريقاً من أبناء بعض الأقطار العربية يصر على أن يجعل من اللغة الأجنبية لغة أم ثانية .

ففي لبنان مثلاً كما في تونس والجزائر والمغرب تغلغلت في مجتمعنا ثقافة الفرنسيين طوال فترة الإنتداب ، كما تغلغلت ثقافة الإنكليز في أقطار أخرى كالعراق والأردن . . . حتى غدت لغتنا الأم « ثالوثاً » من اللغات الأمهات . وهذا بلا ريب أمر مكروه ومرفوض لأنه يضعف من وطنيتنا ويهجن لغتنا ، الرباط الوثيق بيننا ، ويعيق سير حضارتنا التي هي جزء من الحضارة الإنسانية .

ونحن ننظر إلى أي لغة أجنبية كانت ، على أنها أداة لاكتساب المعرفة نتابع بها تيارات الفكر العالمي فنغني ثقافتنا بالإطلاع على الثقافات الأخرى دون أن نهمل لغتنا

---

(19) الاقتضاء ص 96 .

العربية الأم وسيلة المعرفة الحتمية لعقيدتنا وديننا ، وسبيل توثيق العلاقات بين صفوفنا ، وأداة معرفة تراثنا العربي العريق الذي كان وما زال نور هداية لنا ولسائر الأمم في العالم .

## القرآن حصن قوي للغة العربية

### إعجاز القرآن الكريم

لقد أيد الله خاتم النبيين والرسل محمد بن عبد الله ( ص ) بمعجزة حسية وعقلية خالدة ، وهي إنزال القرآن الكريم عليه وحياً من رب العالمين ، ذلك الكتاب لا ريب فيه لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه ، والذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وكان عصره ( ص ) قد سما فيه البيان وجلت مكانته عند أهله الذين عرفوا باللسن والفصاحة والبيان والبلاغة والقدرة في الإبانة عن مشاعرهم وخوالج نفوسهم . وقد استمر الرسول يتحداهم بما كانوا يعتقدون في أنفسهم القدرة عليه ، فقرّعهم بعجزهم عن الإتيان بمثله ، أو حتى عن الإتيان بسورة واحدة أو آية واحدة . قال تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ ( الإسراء : 88 ) وقال تعالى أيضاً : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ ( البقرة : 23 ) .

إن القرآن معجزة باقية على الزمن ، والتحدي باق معها على الزمن فهو تحد لأهل كل عصر كما كان لعصر زمانه . وقد حبا الله الرسول العربي برسالة الإسلام ، مؤيداً بدلالة على الأيام باقية ، وعلى الدهور والأزمان ثابتة ، وعلى مر الشهور والسنين دائمة . يزداد ضياؤها على مر الدهور إشراقاً ، وعلى مر الليالي والأيام اتّلاقاً ومن الطبيعي أن يستكين العرب أمام هذه المعجزة التي علت على كل[20] معجزة من البلاغة والبيان ، وهي ذروة ليس لها في اللغة العربية سابقة ولا لاحقة تشتمل على مثل هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع والمعاني العميقة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة . فخروا ركعاً حين سمعوا آية من آياته ، فباتوا مشدوهين بسحر بيانه . قال تعالى في وصف كتابه العزيز : ﴿ **الله نزّل أحسن الحديث**

---

(20) راجع الطبري في مقدمة تفسيره ج 1 ص 3 .

كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾[21] .

قال الذين كتبوا في إعجاز القرآن : إن المعجز في كتاب الله هو ما تناثر في ثناياه ، وما انبث في تضاعيفه من إخبار عن الغيب والتنبؤ بما سيقع . فقد تحدث القرآن عن أشياء لم تكن معلومة ومعروفة ، ولم تلبث الحوادث أن جاءت مصدقة لما أخبر به ، موافقة لما تحدث عنه . من ذلك قوله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ ( الفتح : 27 ) قال المفسرون أن رسول الله ( ص ) رأى في منامه قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ؛ فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا الرسول حق ، فلما تأخر ذلك أرجف المنافقون في المدينة ، وقالوا : والله ما حلقنا أو قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت هذه الآية ، وفي العام التالي أتم الله على المسلمين فتح مكة ، فكان ذلك تحقيقاً لوعد الله وتصديقاً لما جاء في قول الله .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين ؛ لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ ( الروم : 2 ـ 5 ) .

والذي حدث واقعاً حسب ما يذكر المؤرخون أنه وقعت حروب بين الروم وفارس في أذرعات وبصرى ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ الخبر مكة فشق ذلك على المسلمين ، لأن فارس مجوس والروم أصحاب كتاب ، ففرح المشركون ، ومن ثم نزلت هذه الآية المباركة وقد انتصرت الروم على الفرس كما أخبرت هذه الآية ، وكان انتصارها في يوم بدر . إنه كلام الله ، والله بكل شيء عليم .

وجاء في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى : ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ ( القمر : 44 ـ 47 ) .

روى المؤرخون أن أبا جهل بن هشام ضرب فرسه يوم بدر فتقدم في الصف

---

(21) الزمر الآية 23 ، ومثاني مكرر فيه الأحكام والمواعظ وغيرها .

وقال : نحن ننتصر من محمد وأصحابه ، فنزلت الآية تنفي ادعاءه : « سيهزم الجمع » .

وعن عكرمة : لما نزلت قال عمر أي جمع يهزم ؟ فلما رأى رسول الله ( ص ) يثب في الدرع ويقول : « سيهزم الجمع » عرف تأويلها .

ـ ويرى الرماني ( 284 هـ ) المعتزلي أن إعجاز القرآن بالصرفة وهي أن الله تعالى صرف نفوس العرب وردع همهم عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها ، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة . وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي تظهر منها للعقول » .

ـ البلاغة

وهي سبب هام من أسباب الإعجاز وقد قسمها الرماني إلى ثلاث طبقات وقال : إن ما كان في أعلاها معجز ، وهو بلاغة القرآن . ثم عرف البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ وأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن .

والباقلاني ( 403 هـ ) يقول : « وأما المتناهي في معرفة وجوه الكلام وطرق البلاغة وجميع فنون الفصاحة ، متى سمع القرآن عرف إعجازه » جاء في الحديث أن جبير بن مطعم ورد على النبي ( ص ) وهو يقرأ سورة : ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ فأسلم[22] وذلك عندما سمعه : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ فقال : خشيت أن يدركني العذاب وفي حديث آخر أن عمر بن الخطاب عندما سمع سورة طه أسلم[23] وقد روي أن قوله عزّ وجلّ : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ نزلت في شيبة وعتبة ابني ربيعة وأبي سفيان وأبي جهل .

قيل : إن أبا جهل بن هشام قال في ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر والكهانة والسحر ، وكلمه ، ثم أتانا ببيان عنه . فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي ؛ ثم أتاه والشر ينبعث من عينيه ، وشياطين السوء تلعب برأسه فقال : يا محمد : أأنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فيم تشتم آلهتنا ، وتسفه أحلامنا وتضلل عقولنا ؛ فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء

---

(22) البخاري ج 7 ص 249 .

(23) الإصابة لابن حجر ج 4 ص 280 .

فكنت رئيسنا وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به ؛ يقول عتبة هذا ورسول الله ساكت ، فلما فرغ حديثه قرأ عليه محمد ( ص ) قوله تعالى : ﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إلٰه واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ ( فصلت 1 ـ 7 ) .

ثم تابع ( ص ) إلى أن بلغ قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ، قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ ( فصلت : 13 ـ 14 ) .

وهنا خاف عتبة وارتعدت فرائصه وتساقطت نفسه رعباً وفزعاً ، وصاح قائلاً : نشدتك الرحم يا محمد أن تمسك ، وأمسك بفم الرسول . لأن بلاغة القرآن ملكته فلم يستطع السماع بعد من الرسول فطلب إليه أن يكف .

فما الذي راعه ، وما الذي أشاع الرعب والوجل في قلبه ؟ إنها القوة القادرة ، والقوة الخارقة ، والأسلوب الحاسم الرصين ، والبلاغة المتدفقة التي تحمل في ثناياها الصدق والعزم والجلالة والإكبار .

عاد عتبة إلى أهله ، واحتبس ولم يخرج لقريش . عند ذلك قالوا له : ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ، فغضب ، وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب .

من كل ذلك يتضح لنا أن إعجاز القرآن إنما جاء من جهة أسلوبه وما فيه من خصائص وميزات يستحيل أن تتهيأ لبشر ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

ثم يعدد الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن وجوه الإعجاز الأخرى فتابع :

أ ـ الإخبار عن المغيبات وقد ورد ذكرها .

ب ـ ما جاء في القرآن من أخبار الأمم القديمة ، مع أمية الرسول .

ج ـ نظم القرآن وبلاغته .

وما يراه النقاد المحدثون وما نراه نحن أن إعجاز القرآن إنما يظهر في ثلاث نواحي هامة : أهدافه الإنسانية ، وبلاغته الأدبية ، في ألفاظه الفصيحة وأساليبه الفريدة ، وفي معانيه البعيدة الصائبة .

ـ فمن جهة أهدافه ومقاصده

نجده قد تناول كل المواضيع التي تهم الإنسان في حياته الفردية وفي حياته الإجتماعية ، وكان غاية في الإصابة والجلاء وإرسال الأحكام والأمثال . فمن تشريع خالد وتعليم جامع وتهذيب رفيع وأدب بليغ وقصص ومواعظ إلى حكمة بالغة ووعد ووعيد وغير ذلك من الأغراض والمقاصد .

وقد كان فحول البلاغة في عصر صدر الإسلام لا يبرز أحدهم إلا في ضرب واحد من ضروب القول . فمنهم من برع في فن الخطابة وما نبغ في الشعر ومن كان يحسن الرجز لا يجيد القصيد ، ومن أجاد الهجاء لم يستعزب منه النسيب . ولم يعرف أحد منهم نبغ وبرز في هذه الفنون جميعها .

ـ ومن جهة الألفاظ والأساليب

فكل من أعطي بعض القسط من بصر وبصيرة يجد عذوبة في اللفظ ، ودماثة في الأسلوب ، وتلاؤماً فريداً في التراكيب . كل ذلك إلى إجمال في خطاب الخاصة وتفصيل في إفهام العامة . فيه التلميح عند الحاجة وفيه التصريح عند اقتضاء الأمر ومهما قيل يبقى القلم مقصراً والعقل قاصراً عن إكمال الصورة وإتمام القول في أسلوب وألفاظ كتاب الله المعجزة .

ـ ومن جهة المعاني

هي قريبة التناول صادقة تطمئن إليها النفوس ، جاءت من غير معين العرب الذي منه يستقون وعلى غير مثالهم المعهود ، بديعة الابتكار فريدة الصياغة ، تهدف إلى إصلاح شؤون الأمة ، من حجج باهرة ، وأحكام مسلمة ، وبراهين قاطعة ، وتشبيهات رائعة ، وأمثال حكيمة تهدي المؤمنين وترشد المبصرين لعلهم يعقلون . والقرآن في جملته شفاء الصدور على مدى العصور ، كتاب خالد لا تبديل لكلماته ، ولا ناقض لأحكامه ، يهدي للتي هي أقوم قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ( الحجر : 9 ) .

# الفصل الثالث

# القرآن والشعر

احتار العرب بالأسلوب القرآني أهو شعر أم نثر؟ فاتهموا الرسول ( ص ) بأنه شاعر وهو يسترق القول من رئي له كباقي الشعراء الذين كان لكل واحد منهم شيطان في وادي عبقر يلهمه القول . فالشاعر العبقري الفذ يكون شيطانه أقوى من صاحب الشيطان الضعيف من هنا كان هجاء بعض الشعراء لمنافس له في القول : شيطانه أنثى وشيطاني ذكر وقد وصف شيطانه بالذكر لأن الذكورة أقوى من الأنوثة . وإن علاقة القرآن بالشعر بدأت بست آيات قرآنية ورد فيها ذكر الشعر والشعراء وكلها تشير إلى اتهام قريش للنبي محمد ( ص ) بأنه شاعر . أولها جاء في الأنبياء . وقال تعالى : ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ ( الأنبياء : 5 ) .

قالت قريش إن ما ينزل على النبي ( ص ) أضغاث أحلام افتراها هو أو أن ما يقوله هو شعر يستلهمه من شيطان له كبقية الشعراء ، والآية الثانية وردت في سورة الشعراء :

قال تعالى : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾ ( الشعراء : 224 ـ 226 ) .

وفي الآية الثالثة يدافع عنه رب العالمين وينفي تعلمه الشعر ، قال تعالى : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ ( يس : 39 ) .

حتى أن قريشاً اتهمته بالكهانة والجنون بالإضافة إلى قول الشعر ، فنفى ذلك عنه سبحانه وتعالى وطلب إليه المضي في رسالته المباركة الكريمة قال تعالى : ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** ﴾ ( الطور : 29 ـ 30 ) .

وزيادة في التأكيد ونفي قول الشعر عن رسول الله ( ص ) نزل قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين ﴾ ( الحاقة : 41 ـ 43 ) .

ولكن عنادهم وتمسكهم الشديد بعاداتهم الجاهلية وعقائدهم الوثنية : ﴿ ويقولون أئننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ ( الصافات : 36 ) .

إن هذه التهمة لم يقتنعوا بها تماماً ، وأكثرهم شعراء وفصحاء وأهل بيان ، فدعوا إلى اجتماع واستقروا على تهمة أخيرة هي أنه ساحر ولكن القرآن يشير أن الرسول ( ص ) قد ضاق صدره من هذه التهمة الأخيرة ، تهمة السحر أكثر من ضيقه بنسبة الشاعرية إليه والآيات التي وردت بهذا الشأن أكثر من اثنتي عشرة آية . جاء على لسان الكافرين الذين اتهموا الرسول ( ص ) بالسحر : ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ( الأنعام : 25 ) .

وجاء وصفهم في سورة الأنبياء قوله تعالى : ﴿ لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ ( الأنبياء : 3 ) .

وعندما تتلى عليهم الآيات البينات : ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ( سبأ : 43 ) .

والقرآن الكريم يعمم القاعدة على جميع الأنبياء الذين سبقوا النبي محمد ( ص ) فيقول : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ ( الذاريات : 52 ) .

والآيات التي ورد فيها اتهام قريش وغيرهم بالسحر هي : المائدة الآية 113 ، والأنعام الآية 7 ، وسبأ الآية 43 ، والصافات الآية 15 ويونس الآية 76 والآية 77 ، والنحل الآية 13 ، والأحقاف الآية 7 والآية 36 ، والقصص الآية 36 ، والزخرف الآية 43 ، والطور الآية 15 والقمر الآية 2 ، والمدثر الآية 24 ، والأعراف الآية 115 ، وطه الآية 58 و 73 ويونس الآية 81 ، والبقرة الآية 102 ، والأنبياء الآية 3 .

وقد أورد المؤرخون روايات عديدة تتهم النبي ( ص ) بالسحر ، وبالشعر أيضاً . جاء في رواية محمد بن كعب القرظي تؤكد أن عتبة بن ربيعة قال للرسول ( ص ) : « وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا

فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه[1] والرئي هو جني أكثر ما يظهر للكهان ، والتابع أيضاً جني أكثر ما يأتي للشعراء كما يزعم القدماء[2] .

أما رواية الخطابي ( 388 هـ ) فتؤكد أن المعاندين ممن كفر بالإسلام وأنكر القرآن صار يقول مرة أنه شعر لما رأوه منظوماً ومرة سحر إذ رأوه معجوزاً عنه غير مقدور عليه »[3] .

والآن يمكن طرح السؤال التالي : لماذا خلط الجاهليون بين القرآن والشعر حتى قال شاعر الفلاسفة ، أبو العلاء المعري ( 449 هـ ) على لسان رضوان خازن الجنة أن الشعر مرآة إبليس[4] ؟ ما سمعناه من النقاد القدماء جوابات متعددة نذكر أهمها :

أ ـ قال الخطابي أن القرآن كلام منظوم ، وهو لا يعني بالمنظوم ما كان موزوناً ، لأن الموزون في القرآن قليل جداً .

ويرى الباقلاني أن ما ورد في القرآن جاء اتفاقاً غير مقصود ، وأحياناً مختلف المروي ، وأحياناً أخرى على صورة الرجز ، وأحياناً نادرة في بيت واحد أو شطر من بيت . وكل هذا خارج عن الشعر في رأيه[5] فالخطابي يعني بالنظم حسن ترتيب الكلام وتأليفه وتشاكله وانتظام أجزائه ، ووضع كل لفظ من الألفاظ موضعه الأخص به ، حتى لتقوم للكلام « صورة في النفس يتشكل بها البيان » ويراه شيئاً غير المعنى ويرى أن نقيضه تفرق الأجزاء وتباعد الفصول ، والمنظوم هي الفنون الأدبية لا الأغراض ، أي هي القصيد والرجز والسجع وسائر الفنون[6] .

فالنظم حسن التأليف الذي يكتمل بالبلاغة والبيان والنحو حتى يقوم للكلام صورة في النفس . وهذه النظرية تطرق لها عبد القاهر الجرجاني وهي تجعل الشعر في رأي الجاهليين وفي تصور الخطابي كل كلام حسن التأليف صحيح بليغ ، مع عدم اشتراط الوزن والقافية له .

---

(1) السيرة لابن هشام ج 2 ص 292 وما بعدها .

(2) المفصل لجواد علي ج 9 ص 118 .

(3) إعجاز القرآن للخطابي ص 28 .

(4) رسالة الغفران ص 252 .

(5) إعجاز القرآن للباقلاني ص 51 .

(6) الخطابي بيان إعجاز القرآن ص 37 وما بعدها .

ب ـ ورأي آخر للباقلاني ورد في « إعجاز القرآن » يقول فيه قد يكون الكلام « محمولاً على ما كان يطلقه الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر ، لدقة نظرهم في وجوه الكلام ، وطرق لهم في المنطق ، وإن كان ذلك الباب خارجاً عما هو عند العرب شعر على الحقيقة »[7] .

وهذا الرأي نراه قريباً من رأي الخطابي ، فثم نوعان من الشعر في رأي الباقلاني ( 403 هـ ) : الشعر على الإطلاق وهو إدراك الصنعة اللطيفة في نظم الكلام ، والشعر على الخصوص ، وهو ما تقيد بالوزن .

وقال أيضاً في هذا المجال حين أكد أن الكفار نسبوا الرسول إلى الشعر بمعنى « أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام ، لا أنهم نسبوه في القرآن أي أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة »[8] وهذا الرأي قريب من رأيه الأول ، فشعر على سبيل الخصوص ، وشعر على سبيل المجاز .

ج ـ ورأي آخر قال به ابن رشيق 456 هـ أن سبب التهمة هو ما كان في قلوب الناس « من هيبة الشعر وفخامته ، وأنه يقع منه ما لا يلحق ، والمنثور ليس كذلك » مع أن القرآن منثور وليس بشعر ولا خطبة ولا ترسل[9] .

ومما يبدو لنا أن جميع الذين تكلموا على الإعجاز وحاولوا رد تهمة قريش أو تفسير أسبابها على الأقل ، كانوا في موقف دفاعي ، فقد حاولوا البحث عن الأسباب والحجج التي تؤيد كلام القرآن وتنفي قول الشعر . وهم بذلك يفتشون عن المعنى البعيد متجاهلين المعنى القريب ، المعنى الإصطلاحي المتعارف عليه .

والباقلاني يعد من بين المدافعين عن القرآن ، فهو بعد أن ينفي قول الشعر عنه ، ينفي عنه السجع أيضاً . فهو يرفض أن يكون القرآن سجعاً لأسباب تتعلق بالمعنى من جهة ، وبالشكل من جهة أخرى ، وإلا لم يكن خارجاً على أساليب العرب الأدبية ولا معجزاً . والباقلاني يعتقد أن نفي السجع عن القرآن ، « أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر » لأن السجع كان مألوفاً من الكهان العرب ، والكهانة بالطبع تنافي النبوات ، وليس كذلك الشعر » ولو كان القرآن سجعاً لم يتحيروا فيه إلى ذلك الحد . وفي رأيه أن القرآن بعض السجع ولكنه ليس سجعاً .

---

(7) إعجاز القرآن للباقلاني ص 51 .

(8) إعجاز القرآن للباقلاني المصدر نفسه .

(9) راجع العمدة ج 1 ص 20 .

وبيان ذلك أن المعنى في السجع يكون تابعاً للفظ ، في حين أن اللفظ في القرآن تابع للمعنى ، والسجع فيه قليل وغير مقصود إليه ، وإنما يقع أثناء الخطاب عفواً فحكمه حكم القليل من الشعر كالبيت الواحد أو البيتين من الرجز ونحو ذلك مما لا يعد شعراً . وإذا تفاوتت أوزان السجع واختلفت طرقه كان قبيحاً .

فلو كان الذي في القرآن سجعاً لكان مذموماً لأنه على تلك الصورة . وينتهي الباقلاني إلى تسمية نهايات الآيات القرآنية فواصل ، مؤكداً أنه لا تناسب ولا تقارب البتة بينها وبين سائر الكلام ولا تناسب[10] . وهو ينطلق من رأي سبق متعارف عليه عند الجميع وهو أن القرآن معجز ومخالف لكلام الكهان وجميل الأسلوب ، ولما كان السجع غير معجز ويشبه كلام الكهان فينبغي ألا يدخل في أساليب القرآن بالرغم من أن صورته المتعارفة موجودة فيه .

أما أبو علاء المعري ( 449 هـ ) فهو ينفي عن القرآن كل شبه وينسب الإعجاز إليه ويقول : القرآن المعجز مختلف عن الأمثال والقصيد والرجز والخطابة وسجع الكهنة[11] . وبصورة خاصة ينفيه عن الرجز ، الشيء الجديد عندهم ، كما ينفيه أيضاً عن سجع الكهان . وزد على ذلك ينفي عنه المقاطع المتشابهة الكثيرة والصور الغريبة جداً والغموض والرموز . وإن ورد سجع فيه فهو سجع قرآني خاص به .

وأبو هلال العسكري ( 395 هـ ) ميّز سجع الكهان من سائر السجع ، « بشدة الاختصار على كثرة المطابقة في الكلام » ومخالفة كلام الخالق عن كلام المخلوق في تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء وبمباينته سجع الكهان بعيداً عن التكلف والتعسف[12] .

وابن الأثير ( 637 هـ ) ركز على السجع الذي قدمه على الشعر وقد وصفه بأنه « أعلى درجات الكلام » ثم حاول أن يدافع عن القرآن الذي ورد منه الشيء الكثير حتى أن سورة واحدة لم تخل منه ، وكلام النبي نفسه ( ص ) ورد فيه سجع كثير . أما إنكاره على بعضهم كلامه المسجوع بقوله ( ص ) : « أسجعاً كسجع الكهان » فلم يكن المقصود به ، في رأي ابن الأثير كل سجع ، بل سجع الكهان حصراً .

---

(10) إعجاز القرآن للباقلاني ص 57 .

(11) رسالة الغفران ص 472 .

(12) المثل السائر ج 2 ص 198 .

ويشترط للسجع الألفاظ الحلوة التي يكون فيها اللفظ تابعاً للمعنى إلا أنه يبالغ في بعض الأحيان ، لكنه يستدرك أن القرآن قد تضمن غير المسجوع « لأنه أبلغ في باب الإعجاز من المسجوع »[12] لكن نسبة السجع إلى القرآن عند ابن الأثير ليست تهمة ، بل مزية .

وبعد مضي فترة زمنية ليست قصيرة كان ابن خلدون ( 808 هـ ) الذي حاول أن يخص القرآن بفن أدبي مستقل عن الشعر والنثر فقال : « وأما القرآن ، وإن كان المنثور ، إلا أنه خارج عن الوصفين ، يعني « وصف السجع ووصف الترسل » وأنه لا يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً ، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام بعدها في الآية الأخرى ، ويثني من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ، مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ ( الزمر : 23 ) . وقال : ﴿ قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ ( الأنعام : 97 ) . وتسمى آخر الآيات فيه فواصل ، إذ ليست أسجاعاً ، ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ، ولا هي أيضاً قواف . وأطلق اسم المثاني على آيات الله كلها على العموم ، واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالنجم للثريا ، ولهذا سميت السبع المثاني »[13] أي أن للقرآن في رأيه فناً خاصاً هو فن تفصيل الآيات الذي هو منزلة بين السجع والترسل ، وآخر الآية فيه يسمى فاصلاً ، وهي منزلة بين القافية والسجعة[14] .

والخلاصة في نظره أن القرآن جنس رابع يكمل الأجناس الثلاثة الأخرى : الشعر والسجع والترسل . غير أن هذا لم يبعد الناقد المؤرخ عن التشبيه ، كما أن الفرق الذي وضعه بين نثر الناس ونثر القرآن غير واضح تمام الوضوح . فهل يبقى القرآن من حيث الأسلوب في الدائرة البشرية وابن خلدون يعلم أنه من المنثور ، أو أنه يبقى في الدائرة الإلهية فلا يكون مثله شيء من كلام البشر وهو يعترف بأن كلام القرآن مرسل ، أي ككلام البشر ؟ .

لقد قيده بالفواصل التي تختص بكلام السماء ، وتختلف عن كلام الأرض والسجعات والقوافي .

فما الفاصلة في نظر ابن خلدون ؟ إنها مقطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ،

---

(13) مقدمة ابن خلدون ص 0192 .

(14) هذا الرأي مأخوذ عن الباقلاني وكانت مفاجأة لا حيلة للجاهليين .

لكن الأذواق تختلف ، وشهادتها تختلف ، ويصبح الحكم على كلام القرآن نسبياً ! إن الذي أوصله إلى هذا المأزق لأنه أعطى كلمة التفصيل معنى وضع الفواصل ، مع أن معناها على الأرجح في مجال ابن خلدون هو التوسع والتبيين .

ونختصر القول إن النقاد أرادوا أن يضعوا فاصلاً بين القرآن والشعر وكذلك بينه وبين السجع ، لأن الكفار اتهموا الرسول بالكهانة والشاعرية . فلماذا الخلط بين القرآن والشعر ؟؟

من المحتمل اشتمال القرآن على صور فنية رائعة تشبه بعض صور الشعر وقد أكثر النقاد من استشهاد هذه الصور في البلاغة ، واقتبس عدد من الشعراء منها . وتناولها المحللون بالدرس والتحليل وحسبنا شاهداً من شواهد عدة ، جاء في سورة الإسراء قوله تعالى يوحي بالوالدين : ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ ( الإسراء : 24 ) .

أو قوله تعالى : ﴿ **الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم** ﴾ ( النور : 25 ) .

ومما يجدر ملاحظته هنا أن الشعر الجاهلي لم يكن كله على صورته التي نعرف اليوم ، بل قد يكون قريباً من السجع الحسن الإيقاع ، والرجز الذي هو غناء بدائي . فعنصره الأساسي كان الغناء أو الإنشاد الذي يمثل مادته ، والأوزان الشعرية قد استنبط أكثرها في عصر التدوين ، وكان أقلها مستعملاً في صدر الإسلام مع عدم الإحساس بما سموه زحافات وعللاً ، وعدم تمييز دقيق بين النثر والشعر ، ولا سيما بين السجع والشعر . ولا يخفى أن تطور الكتابة وتزايد المعرفة قد أديا إلى تزايد النشاط الأدبي وإلى القدرة تدريجياً على إقامة الوزن وتطويره وابتكار أوزان جديدة ، حتى كان الخليل بن أحمد واكتشف الأوزان العروضية ، وربما زاد أعاريض استنبطها بالقياس .

وهنا سهل الأمر لدينا ليقوى الشك عندنا بنسبة المطولات المنسوبة إلى الجاهلية ، وما يحسن الركون إليه هو القصائد القصار التي بنيت على أوزان قصيرة أو مجزوأة .

مهما يكن من أمر فإن في الشعر المنسوب إلى الإسلاميين ما يوحي وجود نوع من المنافسة بين الشعر والقرآن . قال ابن الأثير : إنهم أضافوا إلى سويد بن عدي شعراً فيه ترك الشعر والخمر إلى القرآن والصلاة[15] . كما رووا أن لبيداً كتب سورة البقرة وقال :

---

(15) راجع المثل السائر ج 1 ص 198 .

أبدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر »[16] .

أما حسان بن ثابت فيكاد يجمع بين القرآن والشعر من حيث المصدر فيزعم أنه يتلقى القوافي من السماء . ولكن هذا الزعم يجعل معركة نفي الشعر عن القرآن بغير معنى .

والخلاصة النهائية هو أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن القرآن شعراً وكفى ، فالأمر يتعلق بالإرادة الإلهية وحدها وليس بصفات الشعر وهذا هو التأويل الوحيد للآية الكريمة : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ ( الحاقة : 41 ) . .

وقد أومأ إلى ما يشبه هذا القول ابن رشيق حين بيّن أن كون الرسول ( ص ) غير شاعر ليس غضاً من الشعر ، كما أن أميته ليست غضاً من الكتابة[17] .

## أثر القرآن في الأدب واللغة والعلوم

لم يتيسر لأمة من أمم العالم كتاب كالقرآن الكريم ، من حيث البلاغة والتأثير في العقول والقلوب ، سواء حين يتحدث عن العقيدة الدينية ، عبادة الله الواحد الأحد وعظمته وقدرته وجلاله . . . أو عن خلق السماوات والأرض ، أو عن البعث والحساب ، أو حين يشرع للناس نظم حياتهم الإنسانية الحضارية القويمة على نهج سديد يحقق لهم السعادة في الدارين : الدنيا والآخرة . والرسول الكريم عندما كان يمضي في تلاوته كان يأخذ بمجامع قلوب سامعية ويروعهم سواء كانوا من أنصاره أم أعدائه .

وواضح كما مر معنا أن آي القرآن تباين كلام الإنس من فصائحهم كما تباين كلام الجن الذي كان يدور على ألسنة كهانهم . فهو ليس بشعر موزون ، يقول به شعراؤهم ، ولا بسجع مقفى يدور على ألسنة كهانهم وخطبائهم ، إنما هو نسيج وحده ، نمط قرآني خاص ، فصلت آياته بفواصل تطمئن النفوس الحائرة التي تجد فيها رَوْحاً وعذوبة . إنه قرآن معجز ببيانه وبلاغته ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ( الإسراء : 88 ) .

وفعلاً عجز العرب عن معارضته أو تقليده عجزاً تاماً ، وتمت بإذن الله المعجزة الباهرة فانتشرت في الآفاق القريبة والبعيدة أضواء الإسلام ، في الجزيرة العربية وفي

---

(16) المصدر نفسه ص 76 ـ 77 .

(17) العمدة ج 1 ص 21 .

دروب العالم ورحاب الدنيا مما هيأ لانقلاب كلي في تاريخ اللغة العربية والأدب العربي .

وأول ثمرات هذا الدين الجديد أنه جمع قبائل العرب المختلفة اللهجات على لهجة واحدة هي لهجة قريش ، أفصح لهجة وأعذب لغة .

ثم أخذت هذه اللهجة تعم بين القبائل متغلغلة في الأنحاء الداخلية التي كانت لا تزال تتكلم الحميرية ، ولما فتحت الفتوح ومصرت الأمصار أخذت اللهجة القرآنية الموحدة تسود مشارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوة القرآن فرضاً مكتوباً على كل مسلم حيث حث الإسلام على حفظه وترتيله . يقول جل وعلا :

﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ ( المزمل : 4 ) . وقال تعالى أيضاً : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً . ونحشره يوم القيامة أعمى . قال يا رب لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ ( طه : 124 ـ 126 ) .

وبذلك تحول جميع المسلمين كبيرهم وصغيرهم إلى تلاوة القرآن مما جعلهم يتطبعون بطوابعه اللغوية .

هذا الحفظ للهجة قريش أتاح لها أن تنتشر ليس في العالم الإسلامي فحسب ، بل تخطت الحدود البعيدة واكتسحت ما لقيت أمامها من لغات ، فتكلم بها شعوب لا حصر لها ، وأصبح اللسان العربي هو اللسان الأدبي من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي . وكل من عاش على الأرض العربية أصبح يتكلم اللغة العربية يعبر بها عن فكره ومشاعره وخوالج نفسه . كل ذلك بفضل القرآن الكريم الذي حفظ العربية من الضياع وجعلها لغة حية في جميع أقطار الأرض التي فتحها المسلمون .

ـ ومن آثار القرآن أنه جدد كثيراً من الألفاظ ، فنقلها إلى معان إسلامية لم تكن تعرفها من قبل . مثل : الصوم ، والصلاة ، والحج ، والزكاة ، والجهاد في سبيل الله ، والإيمان ، والكفر ، والركوع والسجود ، والغسل والوضوء والتيمم ، والإشراك والإسلام ، والفرقان وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف . ولم تكن المسألة مسألة تغيير في الألفاظ فحسب وإنما كان تغييراً جوهرياً في جميع ألوان الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . . . وقد عرضها بأسلوب تربوي راق ، مستعيناً دائماً بالوجدانيات الغريزية وبالعقول وما ينبغي أن يتهيأ لها من صواب الرأي ؛ ومترقياً دائماً من معرفة الحواس إلى معرفة الأمور الفكرية وفي خلال ذلك شرع للناس ما ينبغي أن

تكون عليه حياتهم الإنسانية العادلة التي تسودها الأُخوة والرحمة والمحبة . فلا أبيض ولا أسود ولا غني ولا فقير ولا عربي ولا أعجمي .

ونختصر فنقول أن كل ما كسبته العربية إنما هو من فيض القرآن الكريم ، ومعينه الغزير الذي كان وما زال لا ينضب ماؤه ولا يجف رواؤه .

ـ هذب القرآن الألفاظ العربية من الحوشية والغرابة ، فأقامها بأُسلوب معجز في البيان والبلاغة ؛ وذلك بفضل درس المسلمين له ، وتفهمهم إياه ، واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم منه . وقد حدث أن عدلوا عن الأساليب القديمة المعقدة إلى أساليب جزلة لها رونق وطلاوة مع وضوح في القصد للوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه . وهو أُسلوب عربي حديث ليس فيه فضول ، فاللفظ على قدر المعنى لا يرتفع عن العقول ولا عن القلوب .

ومما لا شك فيه أن القرآن هو الذي ابتدع هذا الأُسلوب البليغ المحكم ، بل هذا الأُسلوب السهل الممتنع ، الذي تأنس الأذان حين تستمع له ، وترتاح الأفواه حين تنطق به ، وتبترد القلوب حين تصغي إليه . وهذا الأُسلوب العربي البليغ هو الذي تمتاز به لغتنا العربية ، وهو الذي استطاع أن يفتح القلوب حينما فتح العرب الأمصار . فإذا بأهلها يهجرون لغاتهم الحوشية المعقدة ويعتمدون اللغة العربية الصافية العذبة الشفافة . اللغة المطواعة لكل ما يخطر في البال من خواطر وتعابير . فتأمل سهولة اللفظ ، ومتانة الأُسلوب ، وسلامته من التكلف . فهذه ملاطفته عزَّ وجلَّ لرسوله المصطفى في سورة الضحى : ﴿ **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأُولى ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ وهذه صورة يوم البعث ، يوم الحساب التي جاءت ألفاظها متلائمة كل التلاؤم مع معانيها ، فكأنها رسمت لها رسماً . يقول تعالى :

﴿ **القارعة ما القارعة ! وما أدراك ما القارعة ؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش . فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية** ﴾ .

فتأمل القاف القوية مع الراء السريعة التحرك ، الهزّازة ، مع العين العنانة ، ثم تأمل تكرارها ، ثم هذا الاستفهام الإنكاري كم يزيدها قوة ورهبة . فقد أتت الألفاظ معبرة ومتناغمة مع معانيها .

وانظر إلى قوله تعالى في هذه المقارنة بين المؤمنين والمشركين في سورة الحاقة :
﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذٍ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذٍ واهية . الملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية . يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم إقرأوا كتابية . إني ظننت أني ملاق حسابية . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا بما أسلفتم في الأيام الخالية . وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . . . ﴾ .

إننا لا نجد لا هنا ولا هناك كلمة معقدة أو لفظاً ركيكاً أو ضعيفاً ، وإنما نجد روعة الأسلوب وعذوبة الألفاظ ، ودقة العبارات واستيفائها لمعانيها وكأنها تغذي العقول برحيقها الصافي وتداوي النفوس بعليلها الشافي .

وهذا الأسلوب القرآني البالغ الروعة في بلاغته الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره . فعلى هديه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية ومن وحي آياته أخذوا يستشهدون في وعظهم ومحاوراتهم ، حتى أصبح معجمهم الأدبي واللغوي الذي ساروا على هداه مهما اختلفت أقطارهم وتباعدت أعصارهم .

ويكفي أن نعود إلى معلقة من المعلقات كمعلقة لبيد أو إلى شعر قبيلة مثل بني هذيل ، أو شعر المخضرمين كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، والحارث بن عبد المطلب ، لنرى بوضوح كيف تأثروا جميعهم بألفاظ القرآن وأساليبه وتشبيهاته وكناياته .

قال الجاحظ : « وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجَمع آي من القرآن فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع »[18] .

ـ ومن أثر القرآن في معاني الأدب العربي نذكر : هجر الكتاب والشعراء للمعاني البدوية والحوشية النابية واستعمال الأفكار الإسلامية الجديدة ، فقد تركوا المبالغة والفحش والتزموا الصدق والإخلاص ، وآثارهم الإسلامية في الشعر والنثر تدل عليهم

---

(18) البيان والتبيين ج 1 ص 118 .

كما أثر القرآن أيضاً في أغراض الأدب ، فلا نجد في شعر ونثر الأدباء الإسلاميين المبالغة في المدح والفخر ، ولا نجد الفحش في الهجاء ولا المجون في الغزل . ولم يعد هناك من مبرر للدعوة إلى العصبية القبلية والانتقام والأخذ بالثأر . فلا كبير ولا صغير أمام القضاء الإسلامي ، ولا جاه ولا مال يغيّر من طبيعة الحقوق في موازين الإسلام العادلة . العدالة الإجتماعية هي التي تأخذ مجراها في الحياة العامة بين جميع الناس على حد سواء .

ـ والقصة بمفهومها الحديث نجد الكثير منها في القرآن الكريم ، أرسلت للعبرة والذكرى كقصص الأنبياء : يوسف ، نوح . . . وبعض الملوك : فرعون ، عاد ، ثمود . . . وهذا ما دفع بالمؤرخين المسلمين إلى درس تاريخ العرب البائدة والأمم الغابرة السامية وغير السامية وهكذا نجد كيف أن القرآن أحيا فنوناً أدبية جديدة ، كأدب القصة ، وأدب الحكمة ، وأدب الزهد ، والتاريخ بشعبه الكثيرة العدد ومباحثه المختلفة .

ـ ومن القرآن ، المنهل الغزير لشتى العلوم والمعارف أخذ العلماء والمفكرون أصول العلوم والثقافة الإسلامية . لقد فرض الإسلام التطور على أهله فرضاً وحض على العلم بتوجيه عنايته إليه توجيهاً خاصاً ، ذلك أن الشخصية الإنسانية لا يقومها ولا يرقيها سوى العلم قال تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ ( الزمر : 9 ) .

## دعوة الإسلام إلى الأخذ بالأصول التالية

لم يكتف الإسلام في الدعوة إلى العلم بل قرر أصولاً تمنع من الجمود العقلي والتحجر الفكري . من هذه الأصول التي قررها :

1 ـ الحجة والبرهان :

العلم لا يقول عن شيء أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع جاء في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ( البقرة : 111 ) .

2 ـ والإسلام يدعو إلى اليقين لا الظن :

يحذر العلم أن ينزل الظن منزلة اليقين ، وهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار قوة الحجة التي تشهد للقضية . قال تعالى : ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ ( يونس : 36 ) فالظن تصور ولا يستند إلى دليل ، ويؤدي بصاحبه إلى وهم باطل .

3 ـ التجارب والمشاهدات :

العقل لا ينمو ولا يقوى إلا عن طريق التجارب والمشاهدات . قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ ( النحل : 78 ) .

إن ما يحصله الإنسان من علم إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر والعقل .

4 ـ الإسلام يدعو إلى تعلم العلوم الطبيعية :

الآيات التي تدعو إلى تعلم العلم الطبيعي كثيرة نذكر منها . قوله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ ( الروم : 22 ) .

وواضح من سياق الآية أن المراد بالعالمين هنا هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله فيما أشارت إليه الآية الكريمة .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ ( فاطر : 27 ـ 28 ) .

لا يعرف سر نزول المطر من السماء إلا بعلم الطبيعة ، ولا يعرف تركيبه وخواصه إلا بعلم الكيمياء . ولا يعرف الإنبات والأثمار فيهما إلا بعلم النبات ولا يعرف ما الجبال ولا طرائقها البيض والحمر والسود إلا بعلم طبقات الأرض ولا يعرف اختلاف أجناس البشر والدواب والأنعام إلا بعلمي أصل الشعوب والحيوان .

وفي تذييل الآية : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ .

فقد حصر الله الخشية الكاملة من الله في العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية . لأن العالم المؤمن يحمله علمه بأسرار الطبيعة على خشية الله خالق السماوات والأرض وما بينهما .

5 ـ علم الحياة (Biologie)

والقرآن يشير إلى الإنسان لينظر إلى نفسه وكيفية تكونه في الرحم وأطواره التي يمر بها . قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مما خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ ( الطارق : 5 ـ 7 ) .

وجاء في سورة المؤمنون : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه

نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ( الطارق : 12 ـ 14 ) .

فمن نظر في أصل التكوين يتوصل الإنسان إلى علم الحياة وفيه من عجائب نمو الجرثومة الإنسانية وتحولها في أدوار الخلقة وتطورها حتى تصبح مادة خالصة قابلة للحياة .

6 ـ علم التاريخ والاجتماع

لم يكتف الإسلام بتكليف المسلم النظر فيما يحيط به من الكائنات بل دفعه إلى البحث فيما كانت عليه الأمم السالفة من قوة وسلطان ، ونمو وعمران ، ثم ما آلوا إليه باتباع الشهوات من هلاك ودمار . قال تعالى : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ( الروم : 9 ) .

أفلا يؤدي التعرف في أسباب تكون الأمم وانحلالها ورقيها وعمرانها وخرابها إلى البحث في علمي التاريخ والاجتماع ؟ لو سألنا ابن خلدون وأمثاله لأجابوا بكل تأكيد بالإيجاب .

7 ـ علم النفس

ورد الكثير من الآيات في القرآن الكريم تحث على التفكير في النفس نذكر بعضها على سبيل المثل . قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ( الذاريات : 21 ) أليس النظر في النفس يؤول بنا إلى معرفة علم النفس بكل ما فيه من غرائز وميول وبواعث وأصول الحياة الإنسانية .

من هنا نجد العلماء والمفكرين قد عكفوا على وضع أصول العلوم والثقافة الإسلامية ، وذلك لتفهم معاني القرآن والوقوف على معارفه الوضعية والمجازية المختلفة ، كما حملتهم أيضاً على تتبع ألفاظ اللغة العربية الفصحى من العرب الموثوق بخلوص عربيتهم من الشوائب . فكان من ذلك ألوف الرواة الذين جمعوا اللغة ودواوين الشعر والأمثال والوصايا والخطب والرسائل ، فألفوا منها مادة غزيرة ودسمة للأدب القديم التي صارت فيما بعد مواد أساسية للآداب العربية في موضوعاتها وأغراضها وصورها ومعانيها .

ومما اكتسبه الشعراء والكتاب والأدباء من القرآن يتمثل في أقوالهم التي كانت تجري على ألسنتهم عفو الخاطر . كقول حسان بن ثابت :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

وجدنا هذا مقتبس من قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ( التوبة : 129 ) .

وقول الحطيئة وقد كان أقرب إلى جفاء البدو وخشونة الأعراب :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد زخراً وعند الله للأتقى مزيد

وقول معن بن أوس قال متأثراً بأدب القرآن :

فما زلت في ليشي له وتعطفي عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفض له مني الجناح تألفاً لتدنيه مني القرابة والرحم

فقد اقتبس قوله هذا من الآية الكريمة : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ ( الإسراء : 24 ) .

ولا شك أن القرآن الكريم كان وما زال منهل أعلام البلاغة ، ومعين فحول البيان ، ومصدر إيحاء الأدباء والشعراء . وحين نأتي في سياق الكلام إلى كاتب ، أو شاعر ، أو خطيب ، نجد العبارة تضيء بنورها الخاص وكأنها الشهاب الساطع . وفي عصرنا لا يزال الأدباء والخطباء يستقون من فيض كتاب الله في كتاباتهم وخطبهم ، ويرصعون بألفاظه ما يقوم ألسنتهم ويزين خطبهم بدون تكلف أو تصنع لأن ذلك يورث الكلام البهاء والوقار ، والرقة في استمالة القلوب والعقول ، وأكثر ما كان يحدث ذلك أيام الحَفْل وأيام الجُمَع .

## القرآن الكريم يدعو المؤمنين إلى الاتحاد

بعد أن دعا الله المؤمنين إلى التقوى ، دعاهم أيضاً إلى الاتحاد ليكونوا قوة صامدة في وجه الأعداء لا تغلب ولا تقهر . قال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألّف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن

المنكر ، وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ ( آل عمران : 103 ) إذا تأملنا في مضمون هذه الآية نرى أن الله عزّ وجلّ :

ـ يدعو المؤمنين إلى التمسك بحبل الله ، أي الإسلام أو القرآن ، ليحكموه في كل أمورهم ويسترشدوا به في سلوكهم ، الفردي والإجتماعي فيكونوا يداً واحدة على أعدائهم ، ويد الله مع الجماعة ، ولا تفرقهم الأهواء والطمع والجشع والأنانية ، ولا تشتت شملهم الأحزاب والفرق ، وعليهم أن يذكروا فضل الله عليهم دائماً الذي حولهم بعونه ورحمته ، من أمة متفرقة ، وقبائل متشاحنة قلقة ، إلى جماعة متحدة متآخية في الله . وبذلك أنقذهم سبحانه مما كانوا عليه من كفر وضلال كادا يؤديان بهم إلى شفا حفرة نار جهنم لولا رحمة الله التي تداركتهم بالإسلام .

ـ كما يدعوهم سبحانه إلى فعل الخير والأعمال الصالحة . فهم كما أراد سبحانه خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . وهذا الأمر ليس مقصوراً على جماعة معينة أو فرد معين من المسلمين فكل مسلم من واجبه الشرعي أن يكون بناء في مجتمعه ، فإذا رأى الخير حبب فيه وشجع له ، وإذا رأى الشر نهى عنه وقاومه بكل ما عنده من قوة .

هذا وقد حذرت الآية الكريمة من الاختلاف بين المسلمين والتفرقة حتى لا يكونوا كاليهود الذين اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات من التوراة فأصبحوا شيعاً وأحزاباً ، يكذب كل حزب منهم الحزب الآخر ، فضعف شأنهم في الدنيا وذهبت ريحهم ، وخسروا أيضاً الآخرة فكان لهم فيها عذاب عظيم .

ـ لقد صورت الآية تصويراً رائعاً ودقيقاً ما كان عليه الناس من ضلال وكفر بحيث لو استمروا على كفرهم فكأنهم يقفون على حافة هاوية من النار يكادون أن يسقطوا فيها لولا إنقاذ الإسلام لهم .

وقد أتت العبارات لتؤكد هذه المعاني فتأمل العطف بالفاء في قوله : فألف ـ فأصبحتم ، فأنقذكم ، تفيد أن الإسلام نقلهم بسرعة مما كانوا فيه إلى ما أصبحوا عليه .

## الإسلام يدعو إلى القوة

قال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ؛ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ ( الأنفال : 60 ـ 61 )[19] .

تبدأ هذه الآيات الكريمة بفعل أمره « وأعدوا » وهو يناسب الحسم والحزم في الحرب والقتال فلا تردد ولا تباطؤ في الاستعداد لمواجهة أعداء الإسلام ، أعداء الله . بكل ما عند المؤمنين من قوة « ما استطعتم » حتى يتغلبوا على أعدائهم وتنتظر راية الدعوة الإسلامية ويدخل في تهيئتهم للحرب جميع آلات الحرب ومعدات الدفاع المناسبة كانت في الماضي السيف والرمح والنشاب واليوم أصبحت الطائرات والمدافع والدبابات والصواريخ والقنابل المختلفة . وكلها وسائل قوة . وقد ذكرت الآية الخيل لأنها قديماً كانت من أهم وسائل القتال . وبصورة خاصة الخيل العربية الأصيلة .

ثم قوله ﴿ ترهبون به عدو الله ﴾ يبين هدف هذه القوة وغايتها فهي ليست للبغي والعدوان ، كما يحصل اليوم من قوة الدول الكبرى ، وإنما هي للتخويف والسلام ودفع الشر والظلم . ذلك أن المسلمين عندما يعدون هذه القوة يخافهم العدو فلا يتجرأ على التعدي فيحسب لهم ألف حساب ثم يرهبهم ويخافهم فتحجب الدماء ولا تقع الحرب .

وقوله تعالى : ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ يلفت نظر المسلمين بأن هناك عدواً ظاهراً مكشوفاً ، وعدواً خفياً مستتراً ، يساند العدو الظاهر ويقويه إما سياسياً وإما اقتصادياً ، وأما بالخبرة والتوجيه . وهذا العدو هو أخطر بكثير من العدو الظاهر فيجب أن يحسب حسابه بدقة وحذر كما تدعو الآية إلى البذل والإنفاق في سبيل هذه الدعوة النبيلة ، فسلك القرآن مسلكاً لطيفاً من أجل الإنفاق وهو الترغيب فالذي ينفق على الجيش الإسلامي لمقاومة العدو المحدق به ، ينفق في سبيل الله وسوف يوفى إليه لأن الله لا يضيع أجر المحسنين .

وقد آثر هذا التعبير بدل « في سبيل الحرب والقتال » ليؤكد أنها دعوة ربانية ، وليست أبداً لمطامع شخصية .

---

(19) رباط الخيل : طوائف الخيل المعدة للقتال . ترهبون : تخيفون العدو فلا يتجرأ على الإعتداء عليكم . من دونهم : من غيرهم . في سبيل الله : تعني هنا الإنفاق في سبيل إعداد الجيش . جنحوا : مالوا .

ثم تعبير آخر « بأن » التي تفيد الشك في قوله : ﴿ وإن جنحوا للسلم ﴾ حتى يكون المؤمنين على حذر تام من نوايا الأعداء . لأن هناك فرقاً كبيراً بين الرغبة الحقيقية في السلام وبين التظاهر به من أجل التضليل والخداع ، وكم حصل مثل هذا بين المسلمين واليهود ! .

إن المسلمين المؤمنين في أي زمان ومكان يرحبون بالسلام عندما يكون هناك سبيل كريم لقبوله . ولكنهم يأبون الاستسلام أو السلام المضلل الخداع الذي يكون جمراً تحت الرماد حيث يظهرون السلام بألسنتهم ويضمرون الشر في قلوبهم .

هاتان الآيتان من سورة الأنفال نزلتا في المدينة بعد موقعة « بدر » الشهيرة ، أولى معارك المسلمين مع مشركي مكة . وقد انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً على أعدائهم وأعداء الله .

واليوم التاريخ يعيد نفسه ففي كل حين معركة ، بل معارك ، بين المؤمنين وبين أعدائهم الملحدين ، وفي كل يوم بدر وخيبر وبني نضير وبني قينقاع . وقد ظهرت أطماعهم في هذه الأيام وظهر نفاقهم وغدرهم وحقدهم على المسلمين . فزحفوا بكل ما عندهم من أسلحة فتاكة تدميرية يحملون الصليب شعارهم ويبغون ضرب القوة القاهرة عند العرب ، العراق العريق بحضارته وشجاعته وعنفوانه . بلد حضارة ما بين النهرين الذي يأبى الذل والهوان ، والمتمسك بعزته الإسلامية التي أرادها الله له سبحانه وتعالى . فقال : ﴿ . . . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ ( المنافقون : 8 ) . فعزة المؤمن من الله تعالى تأتي بعد عزة الرسول ، وهذا تقدير عظيم وجليل للمؤمنين ، وعليهم المحافظة على هذه المرتبة الكريمة ولا يرضخون لأي قوة غاشمة ظالمة مهما كبرت وتجبرت ، لأن كرامة المؤمن لله وليست ملكه الشخصي حتى يضحي بها أو يتنازل عنها بل يبقى مرفوع الرأس عالي الجبين لا يطأطىء رأسه سوى لرب العالمين . ولثقته بعباده المؤمنين جعلهم سبحانه شهداء على الناس ، والشاهد ، كما هو معروف لا يكون إلا صاحب حق وعلم . ومكانة اجتماعية عالية محترمة . قال تعالى :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع ممن ينقلب على عقبيه . . . ﴾ ( البقرة : 143 ) .

فهل يسمع المسلمون هذا الثناء من رب العالمين ؟ وهل يتبعون كلهم الرسول ؟

## القرآن الكريم يحذر من خيانة العهد

قال تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ﴾ ( آل عمران : 77 ) .

في هذه اللوحة يصور الله طائفة من أهل الكتاب كافرين يحاولون تضليل المسلمين فيلبسون الحق بالباطل ﴿ ويكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ ( البقرة : 146 ) فيحذر الله المسلمين ألاّ يؤمنوا إلا لمن اتبع دينهم .

هؤلاء الكفار ﴿ يقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ .

قال تعالى بصيغة الاستفهام الإنكاري : ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ، الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ﴾ ( آل عمران : 77 ) .

إنها قاعدة خلقية واحدة يقررها القرآن الكريم فمن راعاها وفاءً بعهد الله وشعوراً بتقواه أحبه الله وأكرمه وكان في الآخرة من الفائزين ، أما من اشترى بعهد الله وبأيمانه ثمناً قليلاً من عرض هذه الحياة الدنيا الفانية ، وهي متاع قليل ، فلا نصيب له في الآخرة ويكون من الخاسرين ، لأن لا رعاية له عند الله ولا قبول ولا زكاة له ولا طهارة ، وإنما له العذاب الدائم الأليم .

يرشح من هذه الآيات المباركة أن الوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى ومن ثم لا يتغير في التعامل مع عدو أو صديق ، أو قريب ، أو بعيد ، وليس مسألة شخصية مزاجية ، إنما هو تعامل مع الله عزّ وجلّ . وهذه هي أساس نظرية الإسلام الأخلاقية بصفة عامة . في الوفاء بالعهد وفي غيره من الأخلاق .

التعامل هو أولاً تعامل مع الله ، يتجنب به غضبه ويطلب به رضاه بعيداً كل البعد عن أعراف الجماعة وظروفها وأحوالها . لأن الجماعة قد تروج في أوساطها المقاييس الباطلة فتنحرف عن الخط الإلهي المستقيم وتضلّ عن الصواب والهادية ، فلا بد والحالة هذه من خط ثابت ، ومقياس عادل ترجع إليه الجماعة ويرجع إليه الفرد على حد سواء . هذا المقياس هو ثابت لا يتغير وقوي يستمد قوته من جهة عليا منزهة عن الأخطاء والمصالح الشخصية المتغيرة بتغير مقتضيات الناس وظروف حياتهم ومصالحهم .

ولا يخفى أن في التشريع الإسلامي تستمد القيم الإنسانية والمقاييس العادلة من الله عزّ وجلّ ؛ بمعرفة ما يرضيه من أخلاق فاضلة ، والتطلع بعين بصيرة ، ونفس تقية ، وقلب نظيف طاهر . وبهذا يضمن الإسلام تطلع البشرية الدائم إلى أفق أعلى من طين الأرض ، الذي منه تستمد قيمها الصالحة وموازينها العادلة والمتوافقة مع كل زمان ومكان .

أما الذين يخونون العهد ويغدرون بالأمانة ، ويعيشون لدنياهم فقط فهم : ﴿ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ ( آل عمران : 77 ) . فالعلاقة هنا هي بينهم وبين الله قبل أن تكون بينهم وبين الناس ومن هذا المنطلق يخسرون نصيبهم عنده في الآخرة ، لأنهم بغوا المصالح الدنيوية الرخيصة ، ونكثوا بالعهد فلا نصيب لهم ولا رعاية من الله يوم الحساب جزاء استهانتهم بعهده سبحانه وتعالى ، إلا وهو عهدهم مع الناس في الدنيا .

قال رسول الله ( ص ) : « الناس كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله » ولا يمكن أن يكون نافعاً لعيال الله إلا أن يكون صادقاً في أقواله ، وفياً في أعماله يتطلع إلى رضاه ويشعر بتقواه . ومن المعروف أن التاجر يشتري بضائعه بثمن متواضع ويبيعها بثمن أعلى ليحقق ربحاً معلوماً ليزيد به رأس ماله ، وهكذا دواليك حتى يحصل على ثروة كبيرة . فكيف بتجارة هؤلاء الكفار المنحرفين عن الخط الإلهي يشترون بثمن باهظ كثيراً ويبيعون بسعر منخفض كثيراً ، إنهم يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً !!

وهل يقدر عهد الله ؟ وهل يقدر رضاه بثمن ! فإذا ربح الإنسان جميع ما في هذه الدنيا الزهيدة الفانية وخسر الآخرة ، خسر رضى الله ماذا يكون قد جنى ؟ وما هي أرباحه التي حققها ؟ لا شك أنه قد خسر خسارة كبرى لا تقدر بثمن .

ونلمح هنا في هذه اللوحة الرائعة ، طريقة طريفة في التصوير ، وأسلوباً رائعاً في التعبير ، الأسلوب القرآني المعجز ، يعبر عن إهمال الله سبحانه لهؤلاء الفئة الضالة وعدم رعايته لهم ، فلا يكلمهم ولا ينظر إليهم ، ولا يطهرهم . . . وهذه كلها من أعراض الإهمال التي يعرفها الناس في حياتهم الدنيوية . وقد اتخذها القرآن الكريم وسيلة حسية ليصور بها الموقف صورة حية تؤثر تأثيراً بالغاً في الوجدان البشري أكثر مما يؤثر التعبير التجريدي .

وفي عصرنا اليوم ، العصر الذي تسيطر فيه الماديات ويعيش أكثر الناس لدنياهم الزهيدة الرخيصة ، نجد مثل هذه النماذج التي وصفها الله في كتابه العزيز ، ﴿ يشترون

بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ ( آل عمران : 77 ) . وهم لا يشعرون أن لا نصيب لهم من الخير ولا يحسن إليهم الله ولا يرحمهم !!

## موقف الإسلام من الشعر

الشعر عامة هو وسيلة الشاعر الفنية لنقل تجاربه في الحياة ، وهو تعبير عن حالة نفسية معينة يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة . ومن المسلم به أن الشعر الناجح هو الذي ينقل لنا صورة شعرية تمثل الفكرة والعاطفة بدقة وأمانة . وهذا هو مقياسها الأصيل وكل ما نصفها به من جمال وروعة وقوة ، إنما مرجعه هذا التناسب بينها وبين ما تصور من عقل الشاعر ومزاجه تصويراً دقيقاً خالياً من الجفوة والتعقيد[20] وليس هناك من حدث كبير إلا ونرى الشعر يواكبه ويرافقه . ودعوة الرسول ( ص ) كانت من أكبر الأحداث ، دعا الناس إلى الإسلام فمن العرب من حسن إيمانهم فوقفوا معه يدافعون عن الدين القويم ومنهم من استمر في غيه وضلاله فحاربوا الإسلام مما اضطر النبي إلى حمل السيف للذود عن الرسالة الإلهية . وكل ذلك نجده ماثلاً على ألسنة الشعراء .

ثم إن أقواماً ارتدوا ، فحاربهم الخليفة[21] ومثل الشعر هذه الحرب وبعدها كانت الفتوح المجيدة والانتصارات العديدة على المشركين والكافرين ، فانطلق العرب ينشدون أناشيد الجهاد والنصر ، وتلت ذلك الفتنة الكبرى ، فتنة عثمان بن عفان وحروب علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وعائشة ، ثم حروب علي ومعاوية إلى غيرها من حروب الخوارج وغيرهم . . . عندها لا بد أن تعلو أصوات الشعراء ويسجلوا بأشعارهم كل ما يدور حولهم من أحداث .

والإسلام لم يهجن كل الشعر إلا الذي يحمل بين طياته المعاني التي لا تتفق مع جلالة الرسالة ولا تتناسب مع وقار الإسلام وكماله . فكان يبغض الشعراء الذين يبدو منهم من سمات وأخلاق لا يرضاها الدين الحنيف والأخلاق الإسلامية الكريمة . قال تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ ( الشعراء : 244 ) .

أما الشعر الذي لا يقف في وجه الدعوة فكان موجوداً في عصر صدر الإسلام حتى

---

(20) أصول النقد الأدبي لأحمد الشايب ص 249 .

(21) كان ذلك في عهد أبي بكر الصديق .

أن النبي ( ص ) كان ينصت إلى الشعر ويستمع إلى الشعراء . وكان يأمر حساناً أن يرد على خصوم الإسلام . وقد قال ( ص ) : « إن من الشعر لحكمة » .

ويروى أنه وفد على رسول الله ( ص ) جماعة من بني تميم ، بعد فتح مكة ، ودخلوا المسجد وقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فاذن لشاعرنا وخطيبنا ، فأذن لخطيبهم ، فقام عطارد بن حاجب بن زرارة ، فأمر رسول الله ( ص ) قيس بن ثابت ، فرد عليه ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا يقسم الرُّبع
ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع[22]

ولما فرغ الزبرقان بن بدر ، أمر رسول الله ( ص ) حساناً بالرد عليه فارتجل حسان قصيدته :

إن الذوائب من فهر وأخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

ولما فرغ حسان من قصيدته قال أحد رجال الوفد ، الأقرع بن حابس : « والله إن هذا الرجل ، يعني محمداً ، لمؤتى له[23] ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا » . ثم أسلموا .

وكما يبدو لنا أن الشعر حين يكون هدفه شريفاً ويخلص في وجهته يمكن أن يكون من الألسنة المجاهدة في سبيل الدعوة . ومن الأسلحة الجديدة المكافحة في سبيل تثبيت دعائمها . وبذلك تكون رسالة الشعر لا تقل أهمية عن رسالة النثر عندما تتطهر القلوب ، وتصلح الأخلاق بحسن الأدب وعفة اللسان وجمال الخلق .

كانت رسالة الشعر في صدر الإسلام رسالة كريمة لا تعرف الفحش بالقول ، ولا الجهر بالسوء ، ولا تخوض فيما حرم الله . لأنها رسالة سماوية مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه السمحة ، وآدابه القويمة ، ودعوته الكريمة ، في معاملة الناس جميعاً ، والكل في نظر الإسلام « أخوة في الدين وأسوة في الخلق »[24] . أما من بقي من شعراء هذا العهد

---

(22) القزع : السحاب .

(23) مؤتى له : مسهل له في أمره .

(24) راجع نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب .

على تقاليد الجاهلية فيما يقول وينشد ، فقد نعى عليه الإسلام سلوكه وحاربه حرباً عنيفاً . وقد روي أن كعب ابن الأشرف ، من شعراء المدينة اليهود إنه شبب بنساء المسلمين ، فأرسل النبي ( ص ) رهطاً من الأنصار مع محمد بن سلمة وقتلوه .

والشاعر صابىء بن الحارث البرجمي أفحش في هجائه لبني جدول بن نهشل فحبسه عثمان بن عفان بسبب هجائه المقذع الفاحش .

وكذلك حبس عمر الشاعر النجاشي الذي هجا بني العجلان رهط ابن مقبل بقوله :

وما سمي العجلان إلا بقولهم  خذ القَعْبَ واحلب أيها العبد واعجل

وكذلك حبس الحطيئة حين أفحش في هجاء الزبرقان بن بدر وهدده بقطع لسانه لولا أن فزع إليه واستشفع عنده .

من هنا نرى كم كان للكلمة من تأثير بليغ في نفوس الناس ، حتى أنها كانت أبلغ من حد السيف . « والقول يفعل ما لا تفعل الأبر » .

وهكذا نرى كيف أن الإسلام عمل على إصلاح النفوس وتهذيب الألسنة موجهاً رسالة الشعر إلى أسمى الغايات وأنبل الأهداف .

## أغراض الشعر في صدر الإسلام

الشاعر ابن بيئته ، والشعر تعبير صادق عن الأفكار والمشاعر التي تنسجم مع قائلها ، وتتوافق مع تعاليم المجتمع الذي يعيش فيه ، وفي عصر صدر الإسلام نرى الشعراء قد هجروا لأغراض التي تتنافى وتعاليم الدين الإسلامي كالهجاء المقذع ، والفخر الكاذب ، والغزل الفاحش . فالشاعر الذي يتجاوز حدوده كان يسجن كما حدث لابن الحارث والحطيئة وغيرهما كما بطل القول في الموضوعات التي يرفضها الإسلام ويحرمها ، كشرب الخمر ، ولعب الميسر ، والأخذ بالثأر ، والنميمة ، والتشبيب ، والاستهتار ، والفجور ، والرغبة في الانتقام ، وحياة البطولة والصراع . هذه الموضوعات أبطل الإسلام القول فيها ومنع ممارستها لأنها توهي العلاقات بين أفراد المجتمع ، وتعمل في هدمه وتخريبه ، كما تنخر السوسة جذوع الشجر . ولكن كان كثير منها شديد الصلة بحياتهم في الجاهلية ، وقد قالوا فيها أجود أشعارهم المملوءة حياة وروعة وقوة . وهذا ما يفسر لنا بعض الحق فيما يقال من أن الشعر ضعف في صدر الإسلام . وهو نقد غير دقيق لأن ضعف هذه الأغراض سبب نمو وإزدهار أغراض أخرى التي سوف

نأتي على ذكرها أما الأغراض الشعرية التي نمت وترعرعت في ظل الدعوة الإسلامية فهي على التوالي :

1 ـ الدعوة إلى الإسلام الحنيف ومبادئه القومية ، ومقارعة خصومه بالرد عليهم . ومن أبرز هؤلاء الذائدين عن الدعوة المباركة ورسولها الأمين : حسان بن ثابت ( 54 هـ ) وكعب بن مالك ( 50 هـ ) وعبد الله بن رواحة ( 9 هـ ) .

وكان من شعراء المشركين الذين حاربوا الإسلام والرسول بشعرهم هبيرة بن أبي وهب ( 50 هـ ) وأبو سفيان ، وضرار بن الخطاب ، وابن الزبعري .

فكان لا بد من الرد على هؤلاء دفاعاً عن الدعوة والرسول ومقارعتهم بسلاحهم .

2 ـ هجاء أعداء الدعوة في عصر النبوة ثم هجاء المشركين والكافرين بعد عصر النبوة .

3 ـ رثاء الذين استشهدوا في غزوات الرسول في الغزوات الإسلامية من الخلفاء وكبار الصحابة ، ومن قتل ظلماً من المجاهدين في سبيل الدعوة الإسلامية من قبل المشركين والكافرين أعداء الإسلام .

4 ـ الفخر بالانتصار على جيوش الفرس والروم في آن معاً ، ومدح الأبطال المسلمين الشجعان ، ووصف آلات الحرب والحصون والمعاقل وأنواع الحيوان الذي لم يروا مثله سابقاً ، كالفيلة التي حارب العرب عليها للفرس وانتصروا بعون الله وإرادته . قال تعالى : **﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾** .

وسوى ذلك مما ملئت به كتب المغازي والفتوح . وأكثر هذه الموضوعات تكلم عليها الشعراء في باب الأراجيز .

5 ـ المدح : في هذا الفن يتوضح أثر الإسلام في معاني الشعر وألفاظه ، وقد اشتهر من شعرائه : حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، والنابغة الجعدي ، والحطيئة ، وعبد الله بن رواحة .

6 ـ الحكمة : عرف الشعر الحكمي في الجاهلية قبل الإسلام ، ولكن في عصر صدر الإسلام كثر هذا اللون الشعري وتغير مدلوله بتأثير الثقافة الإسلامية والقرآن الكريم ، والتجارب الخاصة والعامة التي أفادوها من الحياة الجديدة . قال الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال حسان :

وإن امرأ يمسي ويصبح سالماً ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال كعب :

من دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق والباطل

7 ـ الزهد : من تعاليم الإسلام القويمة عدم التكالب على المادة والتزهيد في هذه الدنيا الفانية ، والوعظ والدعوة إلى تقوى الله ، وقد قال الشعراء في هذا الباب وأجادوا .

## معاني وأساليب الشعر في صدر الإسلام

بدأت معاني الشعر في هذا العصر تتأثر تأثراً واضحاً بالقرآن الكريم ، وقد غلب عليها الطابع الإسلامي . وظهرت المعاني الإسلامية والعاطفة الدينية . قال عبد الله بن رواحة في مدحه الإسلام وهجائه لقريش :

نجالدُ الناس من عُرْض[25] فنأسرهم ... فينا النبي وفينا تنزل السور

وقد علمتم بأنا ليس غالبنا ... حي من الناس إن عزّوا وإن كثروا

يا هاشم الخير إن الله فضلكم ... على البرية فضلاً ماله غِيَرُ[26]

فثبت الله ما آتاك من حَسَنٍ ... تثبيت موسى ونصراً كالذي نصروا[27]

كما أخذوا يهجرون الحوشي من الكلام والغريب المبتذل وتردد في شعرهم الكثير من الألفاظ الإسلامية .

قال حسان في استشهاد حمزة يوم أحد :

فإن جنان الخلد منزله بها ... وأمر الذي يقضي الأمور سريع

وقتلاكم في النار أفضل رزقهم ... حميم معاً في جوفها وضريع

---

(25) عن عرض : يريد أنهم لا يبالون من يضربون .

(26) غير : تغيير .

(27) نصروا : يقصد الرسل .

وقال أيضاً في هجاء قريش أبا سفيان[28] :

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشرُّ كما لخير كما الفداء

وقد كثر في شعرهم الاقتباس من القرآن الكريم :

قال معن بن أوس :

فما زلت في ليني له وتعطفي ... عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفض له مني الجناح تألفاً ... لتدنيه مني القرابة والرحم

ومن صفات شعر صدر الإسلام العمق والدقة وترتيب المعاني والأفكار .

قال كعب يوم أحد :

فجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقنع[29]
ثلاثة آلاف ونحن نصيّة ... ثلاثٌ مئين إن كثرنا وأربع[30]
فراحوا سراعاً موجفين كأنهم ... جهامٌ هراقت ماءه الريح مُقْلِع[31]
ورحنا وأخرانا بطاءٌ كأننا ... أسود على لحم ببيشة ظُلَّعُ[32]

## جمال السبك وعذوبة الكلام وسلاسة الأسلوب

هذه السمات البارزة للشعر في صدر الإسلام ، ألفاظ عذبة تجري على كل لسان ، ليس فيها أي تقعر أو فحش ، ومعان عميقة ودقيقة وصائبة جليلة الوقع قريبة المتناول .

وهذا حسان يمدح النبي ( ص ) يقول :

أغر[33] عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن : أشهد
وشق له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد

---

(28) الاستيعاب لابن عبد البر ص 129 .
(29) أحابيش : حلف من قريش تحالفوا عند جبل يسمى حبيشاً .
(30) النصية : الخيار والأشراف .
(31) موجفين : مسرعين والجهام : السحاب أفرغ ماءه .
(32) مكان كثير الشجر : بيشة . ظلع : سير بطيء .
(33) أغر : أبيض الوجه .

نبي أتانا بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً ... يلوح كما لاح الصقيل المهند[39]
وأنذرنا ناراً ، وبشر جنة ... وعلمنا الإسلام ، فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربي وخالقي ... بذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك ، إلهاً أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله ... فإياك نستهدي وإياك نعبد

وقال أبو ذؤيب الهذلي شعراً يرثي به أولاده السبعة تدل كلماته على معانيه ، وتسيل نفس الشاعر متدفقة من خلال هذه المعاني ، تصور بعمق وصدق ووضوح خواطر قائلها :

أمن المنون وريبة تتفجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع
أودى بنيَّ وأعقبوني حسرة ... بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
فبقيت بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أني لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع
فالعين بعدهم كأن حداقها ... سملت بشوك فهي عور تدمع
وتجلدي للشامتين أريهمو ... أني لريب الدهر لا أتضعضع
والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تردِّ إلى قليل تقنع

فتأمل الكلمات المنسجمة انسجاماً تاماً مع معانيها والمتآلفة تمام التآلف كأنما فصلت قدراً بقدر تفصيلاً محكماً رائعاً .

## الشعراء المخضرمون ومدى تأثرهم بالإسلام

طغى سيل عرم من الشعراء المخضرمين الذين تأثروا بالإسلام تأثراً عميقاً وصدر جمهور منهم في جوانب من أشعارهم عن قيم الإسلام الروحية التي آمنوا بها إيماناً راسخاً . وقد نلمس الكثير من شعرهم بين دفات كتب الأدب والتاريخ والسير . ولشعراء المدينة النصيب الأوفى في هذا الميدان . لقد ناصروا الرسول ( ص ) بكل ما عندهم من قوة ودافعوا عن الدعوة الإسلامية بكل ما أمدهم الله من جهد وصبر ، يتقدمهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة . وكان إلى جانب هؤلاء

(34) الصقيل المهند : السيف .

الثلاثة المبرزين شعراء آخرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة الشعرية ، وقد رويت لهم أشعار تظهر مدى إيمانهم العميق بالدين الإسلامي .

قال عبد الله بن رواحة في هجاء الكافرين :

شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مثوى الكافرينا

وهذا الشاعر خاصة كان دائم الاستمداد من القرآن . وبتحول العقيدة تحول معها القلب وتحول معه اللسان ، فشعراء قريش منذ فتح مكة دخلوا في دين الله وتابوا عن الماضي ليكفروا عما قدمت ألسنتهم من شعر فيه طعن بالإسلام . فليس لهم إلا الإعتذار للرسول لعل الله يقبل توبتهم . قال ابن الزبعري :

يا رسول المليك إن لساني راتق ما فتقتُ إذ أنا بور[35]
إذ أجاري الشيطان في سنن الغـ ـيّ ومن مال ميله مثبور[36]
آمن اللحم والعظام بما قدّ تَ فنفسي الفدا وأنت النذير

ومن الشعراء المشهورين إلى الشعراء الذين لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة مثل عبدة بن الطبيب ، من شعراء الفتوح ، فقد روى له صاحب المفضليات قصيدة فيها الكثير من معاني القرآن الكريم كالتقوى ، والبر بالوالدين ، والحذر من النهام . يقول :

أوصيكم بتقى الإله فإنه يعطي الرغائب من يشاء ويمنع
وبرّ والدكم وطاعة أمره إن الأبرّ من البنين الأطوع
واعصوا الذي يزجى النهائم بينكم متنصحاً ذاك السُّهام المُنْقَعُ[37]

وهذا سُوَيد بن أبي كاهل اليشكري يقول قصيدة يفخر فيها فخراً جديداً لا عهد له به من قبل، فخراً إسلامياً صرفاً .

يقول :

كتب الرحمن والحمد له سعة الأخلاق فينا والضَّلَعْ[38]
وإباءً للدنيات إذا أعطي المكثور ضيماً فكنع[39]

---

(35) راجع ابن سلام الجمحي ص 202 ورتق الفتق : سده . بور : ضال ، هالك

(36) سنن : طرق . مثبور : هالك .

(37) يزجى : يدفع . السهام : السم . المنقع القاتل .

(38) راجع الشعر والشعراء ح 1 ص 384 وحديث الأربعاء لطه حسين ص 190 . والضلع : الاضطلاع بالأمر

(39) المكثور : المغلوب . كنع : خضع .

وبناءُ للمعالي إنما يرفع الله ومن شاء وضع
نِعَمٌ لله فينا ربُّها ، وصنيع الله ، والله صَنَعْ[40]

ثم يمضي مستلهماً من آيات قرآنية معانيه فنراه يصف بعض النمامين الذين يغتابون الناس ويتظاهرون أنهم أصدقاء . قال :

بئس ما يجمع أن يغتابني مطعم وخم وداء يُدَّرِعْ[41]
ويحبيني إذا لاقيته وإذا يخلو له لحمي رتع[42]

ولا يخفى أنه اقتبس المعنى من الآية الكريمة : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ .

ومنهم من أسلم في آخر عمره وهو كبير السن مثل الحصين بن الحُمام زعيم بني مرة الذبيانيين قال :

ويوم تسعر فيه الحروب لبستُ إلى النَّرْع سربالها[43]
فلم يبق من ذاك إلا التقى ونفس تعالج آجالها
أمور من الله فوق السماء مقادير تنزل أنزالها[44]
أعوذ بربي من المخزيا ت يوم ترى النفس أعمالها
وخفَّ الموازين بالكافرين وزلزلت الأرض زلزالها

فالصلة واضحة بين هذه الأبيات وآي الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : ﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾ ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . ومنه قوله تعالى أيضاً : ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ وقوله جل وعلا :

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ماهية نار حامية ﴾ وقوله تعالى أيضاً : ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما تفعلون ﴾ .

---

(40) ربها : أنها . صنع : هنا صفة أي أن الله قادر على أن يصنع .
(41) وخم : غير منظور . يدرع : يلبس .
(42) رتع : أكل بنهم .
(43) تسعر : تتقد . السربال : الدرع راجع الأغاني ج 14 ص 14 .
(44) إنزالها : منازلها .

ولا يخفى أن الشعر في صدر الإسلام تحولت مدلولاته ومعانيه عما كانت عليه في الجاهلية ، ولانت ألفاظه ، وشعر الأنصار من الأوس والخزرج يدل على ذلك . وقد علل النقاد أسباب هذا التحول فعزوه إلى سببين .

الأول : إن الإسلام نزع كثيراً من بواعث الشر التي تثير النفوس وتشعل الأحقاد كالأخذ بالثأر ، والنشوة بالخمر ، والعصبية الجاهلية وحب الإنتقام ، والتروي في حل الأمور بما يسكن النفس ويزيل عنها احتدام الشر والغضب .

وأمر آخر وهو إن كثرة تلقيهم آيات القرآن المعجز ونزوله بينهم كل حين بما يسحرهم ويأخذ بمجامع قلوبهم ، قلل من شأن شعرهم وصغّر قيمته في أعينهم فاستضعفوا أسلوبهم ومعانيهم إلى أسلوبه ومعانيه ، فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليه . ومثلوا لذلك بقوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الإسلام .

يروي الثعالبي فيقول :

« كان حسان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ؟ ويغير في نواصي الفحول ويدعي أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء .

ويقول مثل قوله في بني جفنة ملوك غسان[45] :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان ملكاً ، وكان التحول في العقيدة والقلب واللسان ، تراجع شعره وكاد يركّ في قوله ليعلم أن الشيطان أصلح للشعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك .

ولا ريب أن تغير البيئة من الوبر إلى الحضر ومن الجاهلية إلى الإسلام يغير الطباع ويغير طريق الحياة ويحول الإنسان فكراً وقلباً ولساناً . فالبيئة الإسلامية غيرت حياة المسلمين تغييراً جذرياً في فكرهم وسلوكهم وعقيدتهم ، وسياستهم ومجتمعهم .

فعمرو بن أحمر الباهلي يمرض فيتوجه إلى ربه داعياً[46] :

إليك إلّه الحق أرفع رغبتي ... عياذاً وخوفاً أن تطيل ضمانيا[47]

---

(45) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام عن الثعالبي خاص الخاص ص 173 .

(46) الشعر والشعراء ج 1 ص 315 والإصابة ج 5 ص 119 .

(47) الضمان : ما يصيب الإنسان في جسده من مرض .

فإن كان بُـرءاً فـاجعـل الـبرء نعمـة  وإن كان فيضاً فاقض ما أنت قـاضيا[48]

فمن غير شك أنه كان يستهدي في هذا آي الذكر الحكيم التي تدعو إلى البرء من الله بعيداً عما كان يستدعي به الجاهليون من الأصنام .

ومن الشعراء الذين عرفوا بصدق عاطفتهم الدينية نهشل بن حرّي[49] في مراثيه لأخيه مالك ، وكان قد قتل في معركة صفين قال[50] :

أنـاس صـالحـون نـشـأت فـيـهـم  فـأوْدَوْا بـعـد إلـف واتـسـاق
أرى الـدنـيـا ونحن نـعـيـش فـيـهـا  مـولـيـةً تـهـيّـا لانـطلاق
أعـاذلَ قـد بـقـيـت بـقـاء قـيس  ومـا حـيٌّ عـلـى الـدنـيـا بـبـاق

ومنهم من عرف برقة عاطفته الإسلامية ومع ذلك فحين نتعقب شعرهم نجد فيه بعض اللمسات الإسلامية تظهر من حين إلى حين .

من هؤلاء عبد بني الحسحاس[51] شاعر الغزل الإباحي ولعل قتله من قبل قومه بسبب قوله غزلاً مفحشاً . قال في بعض أبياته :

عـمـيـرةَ ودِّعْ إن تجـهـزت غـازيـاً  كفى الشيب والإسـلام للمرء نـاهيـا

ومثل هؤلاء يروي ابن سلام عن الشاعر ابن مقبل :

« إنه كان جافياً في الدين وكان في الإسلام يبكي أهل الجاهلية »[52] ومع ذلك رشحت على لسانه أبيات يظهر فيها ما يدل بوضوح على تأثره بالدين الحنيف مثل قوله :

هـل الـدهـر إلا تـارتـان فـمـنـهـا  أمـوت وأُخـرى أبتغي العيش أكـدحُ
وكـلـتـاهـمـا قـد خُطَّ لي في صحـيـفـة  فـلا المـوت أهـوى لي ولا العيش أرْوَحُ

يبدو من هذين البيتين تأثر الشاعر بالآية الكريمة : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها أن الله على ذلك يسير ﴾ ( الحديد : 22 ) .

---

(48) فيضاً : موتاً .

(49) الشعر والشعراء ج 2 ص 619 والإصابة ج ص 268 .

(50) أمالي المرتضى ج 2 ص 226 .

(51) الأغاني ج 20 ص والشعر والشعراء ج 1 ص 156 وقد نشرت دار الكتب المصرية ديوانه .

(52) ابن سلام ص 120 والحيوان للجاحظ ج 3 ص 48 .

كما تجد في شعره خيوطاً إسلامية تظهر في نسجه فيقول في الذين همهم الحياة وجمع الذخائر المادية الفانية ، وما الذخيرة الباقية إلا لصالح الأعمال . يقول في ذلك[53] :

الناس همهم الحياة ولا أرى طول الحياة يزيد غير خَبالِ
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

وهذا القول مقتبس من الآية الكريمة : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً ﴾ ( الكهف : 46 ) .

القرآن الكريم والمحيط الإسلامي أثرا تأثيراً واضحاً في نفوس المخضرمين حتى في كبار السن منهم .

يتبين لنا أن الإسلام أضاء نفوس العرب بتعاليمه ، وتعمقت هذه التعاليم الإنسانية القويمة إلى شغاف قلوبهم ، فغيرت نظرتهم إلى الحياة وبدلت مثاليتهم فيما كانوا يحبون ويرغبون ، وقد ظهر ذلك بيناً واضحاً في أشعارهم : المديح ، والهجاء ، والزهد ، والحكمة ، إذ نرى الصفات الدينية والتعابير الإسلامية تتلألأ في قصائدهم وقد زهد فريق منهم في حطام الدنيا فتحول يتبتل إلى ربه ، ويناجيه في شعره ويهجو الشيطان الذي كان يستلهم منه القول في العصر الجاهلي ، وأخذ يحذر الناس من الوقوع في حبائله .

وقد شاع بين الأدباء الباحثين من مستشرقين وعرب حملوا حذوهم إن الإسلام لم يترك آثاراً عميقة في نفوس المخضرمين وخاصة أهل البادية وعلى رأس هؤلاء النقاد المستشرق الفرنسي نالينو[54] . نقول لنالينو وأتباعه أن أشعة الإسلام النيرة نفذت إلى أعماق قلوبهم ، وليراجعوا أشعار حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، ولبيد والحطيئة ، والنابغة الجعدي ليروا بعينهم ويتأملوا ببصيرتهم مدى تأثر المخضرمين بالإسلام ، وليتأكدوا أن هذا التأثر لم يقف عند شعراء المدينة ومكة فقط بل نفذ إلى شعراء البادية مثل لبيد والنابغة الجعدي . . .

وكتب الأدب تزخر بما نظم من أشعار في صدر الإسلام ، وهي أشعار كثيرة تلقاها في كل ما يصادفنا من أحداث العصر . وليس هناك حدث كبير إلا ويواكبه الشعر . ولا ريب أن أكبر الأحداث وأعظمها كانت دعوة الرسول ( ص ) إلى الإسلام . ومضى

---

(53) راجع تاريخ الطبري ج 5 ص 29 .

(54) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ص 95 .

الشعراء ينظمون في هذا العصر مع أنفسهم وقبائلهم وليس مع أحداث العصر ، متأثرين إلى حد كبير بهدي الإسلام . فالشعر لم يتخلف ولم يتوقف في هذا العصر ، عصر الدعوة الإسلامية المباركة ، لكنه غيّر مجراه ومسراه .

وعلى هذا النحو لا تزال تلقانا إشعاعات إسلامية مختلفة عند الكثير من الشعراء المخضرمين الذين آمنوا بالإسلام وهديه وناصروا الرسول ونافحوا عنه ، ولا ريب أن هذه الإشعاعات تسيل على ألسنة أهل المدينة أكثر مما كانت تسيل على ألسنة النجديين وغيرهم .

# الفصل الرابع

# الحديث النبوي

لقد أُوتي النبي المصطفى من اللسن والفصاحة والبلاغة ما ملك به قلوب سامعيه وعقولهم وكأنما كانت المعاني والألفاظ موقوفة بين يديه ، واللغة العربية يملك ناصيتها أفضل تملك ، فيختار منها ما تهش له الأسماع ، وترتاح له النفس ، وتصغي له الأفئدة . والحديث النبوي هو كل ما حكي عن النبي محمد ( ص ) من قول أو فعل أو تقرير ، ولم يكن جميعه أقوالاً له ، بل يؤثر عنه ويكتب ويحفظ . جاء في طبقات ابن سعد عن صالح بن كيسان قال :

« اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم فكنا نكتب السنن ، قال : وكتبنا ما جاء عن النبي ( ص ) ، قال : ثم قال : نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سُنَّة ، قال : قلت إنه ليس بسنة ، فلا نكتبه ، قال : فكتب ولم أكتب ، فأنجح وضيعت »[1] ولا يخفى ما للحديث من أهمية في جميع مناحي الحياة ، ذلك أن القرآن يذكر أصول الدين الإسلامي وأحكامه مجملة دون تفصيل والحديث يفصلها لتصبح سهلة الفهم للخاصة والعامة . فالقرآن مثلاً ذكر الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وكلها من أركان الإسلام ، ولكنه لم يفصل القول ، فجاء الحديث وفصل أوقات الصلاة ومستلزماتها وكيفياتها ، كما فصل القواعد التي يجب اتباعها في جمع الزكاة وتوزيعها وكذلك الصوم والحج . فالنبي ( ص ) بيّن أحكام الشريعة وصوّرها عملياً ، كما صور المبادىء الأخلاقية والإجتماعية والإنسانية التي جاء بها الإسلام . وبذلك أصبح الحديث النبوي مكملاً للقرآن ، وخاصة حين تجمل الأحكام . فقد روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه لما أرسل ابن عباس ليحاج بعض الخوارج أوصاه بأن لا يعارضهم بالقرآن لأنه حمّال أوجه ، ويحتمل معاني مختلفة ، وبأن يكون عماده السنة فلا يجدوا منها مخرجاً »[1] .

---

(1) نهج البلاغة ج 2 ص 146 .

وفي حياة الرسول ( ص ) كان الصحابة يروون الحديث وكان هو نفسه يشجعهم على ذلك . روي عن ابن عباس قال : « اللهم ارحم خلفائي قلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك ؟ قال : الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس » وكان كثيراً ما يقول للوفود : احفظوا أحاديثي واخبروا بها من وراءكم من العشائر .

وقد تكرر حثه على رواية الحديث ففي حجة الوداع المشهورة قال ( ص ) : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » كما كان يرسل رسله في القبائل ليعلموهم القرآن وسنته ولما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تقضي ؟ فقال : بكتاب الله ، فقال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسوله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أرى رأيي واجتهد .

فالحديث كان متداولاً في حياة الرسول وكان ( ص ) : يأمر بنشره بين الناس وإذاعته بين الملأ حتى يقفوا على أوامر الدين ونواهيه في حياتهم الإجتماعية والدينية والسياسية وكل ما يحتاجون إليه من أحكام ونظم وآداب .

ولما توفي وانتقل إلى الملأ الأعلى وانتشر الصحابة في الأمصار الإسلامية أخذوا يبلغون الرسالة معتمدين على كتاب الله وسنة رسول الله . ولا يتركون لا كبيرة ولا صغيرة من أقواله وأفعاله إلا أحصوها وتناقلوها . وبعد الصحابة خلفهم التابعون يروون ما سمعوه منهم وبذلك أخذ الحديث ينتقل من جيل إلى جيل . يقول المحدث : سمعت من فلان أو حدثني أو أخبرني أو أنبأني . وبذلك تكون سند الحديث من الرواة جيلاً بعد جيل . وبسبب تفرق الصحابة فقد يكون للحديث الواحد أكثر من سند . وبذلك تعددت طرق رواية الحديث ، كما تعدد الرواة وأصبح يحتوي متناً وسنداً يطول أو يقصر .

وقد سمي حديثاً لأنه يعتمد على الرواية والتحدث ، وهو يسمى أيضاً السُنّة ، ويقصد بها العادة المقدسة التي رويت عن النبي ( ص ) وصحابته وهي تستعمل في القرآن : تقاليد الأسلاف الأولين . قال تعالى :

﴿ . . . ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سُنّة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ ( فاطر : 43 ) وقد حولها المسلمون فيما بعد إلى التقاليد التي حكيت عن الرسول وصحبه .

وما يجدر بيانه أن بعض أحاديث الرسول ( ص ) دون في حياته ، وقد رخص لنفر من الصحابة أن يكتبوا حديثه ، روي عن رافع بن خديج قال : « قلنا يا رسول الله إنا

نسمع منك أشياء أفنكتبها ؟ قال : اكتبوا ولا حرج »[2] . وفي بعض الأحاديث أن الرسول أمر أصحابه أن يكتبوا لرجل يمني خطبة سمعها منه ، تضمنت بعض الأحكام الدينية[3] . وعلى أي حال كانت كتابة الأحاديث النبوية في حياته محدودة جداً .

وبقي الحال على ما هو عليه ولم يدون الحديث تدويناً رسمياً عاماً حتى خلافة عمر بن عبد العزيز ( 99 هـ ـ 101 هـ ) فأمر بتدوينه رسمياً وعمم في الأمصار الإسلامية .

الصحابة والتابعون كانوا يؤدون الأحاديث لفظاً ويأخذونها حفظاً إلا كتاب الصدقات . . حتى خيف عليها الدروس ، وأسرع الموت في العلماء من حفاظها . عندها أمر عمر بن عبد العزيز أبا بكر الحزمي والي المدينة وكتب إليه : « انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه »[4] وتوفي عمر قبل أن يصله عمل ابن حزم في هذا الصدد .

وفي سنة 124 هـ ظهر تدوين ابن شهاب الزهري ، ثم أخذ التصنيف والتأليف في الحديث يكثر بعد وتتسع رقعته . فظهر موطأ مالك ثم تتابعت صحاحه مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم .

ومن الطبيعي أن التأخير في التدوين جعل الرواة يزيدون أو ينقصون في عبارته ، فقدموا في بعض كلماته وأخروا ، وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ . من أجل ذلك رأى أئمة اللغة والنحو من علماء البصرة والكوفة وبغداد أن لا يحتجوا بشيء من الحديث في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد التي دونوها ، لأن الأحاديث لم تكن تروى بألفاظها كما جاءت عن الرسول ، إنما كانت تروى في أكثرها بمعانيها . من أجل ذلك كان كثير من الأحاديث تتعدد رواياته .

والقاعدة الأساسية لمعرفة الحديث الصحيح سجلها لنا صاحب الأحاديث ( ص ) فقال : « إن الأحاديث ستكثر بعدي كما كثرت على الأنبياء من قبلي ، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فهو عني قلته أم لم أقله » .

ومن أقواله ( ص ) التي سارت مسير الضوء في الظلم قوله للأنصار : « أما والله ما علمتكم إلا لتقلّون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » .

---

(2) تقييد العلم ص 72 .

(3) المصدر السابق ص 86 .

(4) الموطئون أكنافاً : المتواضعون .

وقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . وقوله : « لا تزال أمتي صالحاً أمرها ما لم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً » وقوله : « ما أملق تاجر صدوق » . « المستشار مؤتمن » .

وقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

فهل يسمع المسلمون هذا الحديث وأين هم والإسلام الصحيح ؟ ! وقوله : « لا تجن يمينك على شمالك » .

فهل يعقل أن تجني يدك اليمين على يدك الشمال وهما عضوان في جسد واحد ؟ . نعم ما نراه اليوم قد حصل أن العربي يجني على العربي ، والمسلم يجني على المسلم ، ودولة عربية مسلمة تجني على دولة عربية مسلمة . وهذا ما يؤسف له حقاً .

وقد رسم لنا الطريق لرضاه ومحبته فقال ( ص ) :

« إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون[4] أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم عني مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون »[5] .

وقوله لمحبي المال الذين يفنون حياتهم بجنيه وإذا بالموت يدركهم . « يقول ابن آدم : مالي مالي ، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو وهبت فأمضيت » .

ثم أعطى الحكمة مثلاً واقعياً حسياً ليعتبر منه كل ذي بصر وبصيرة .

قال : « إن قوماً ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا فصار لكل رجل موضع فنقر رجل موضعه بفأس : فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع به ما شئت ، فإن أخذوا على يديه[6] نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا » وما أحوجنا نحن العرب اليوم إلى تطبيق هذا المثل الحكيم إذ لا يحق لأي فرد رئيساً كان أم مرؤوساً أن يخرق السفينة العربية بفأسه لأن له بها موضع ، وذلك ليحافظ على كرسيه وثرواته !!

وقال : « حصّنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة » وقوله : « من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله أن يحرّم لحمه على النار » .

---

(5) المتفيهقون : المتشدقون بالكلام .

(6) أخذوا على يديه : منعوه .

وقال : إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تُناصحوا من ولاّه الله أمركم . ويكره لكم ! قيلَ وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » .

وقال : أوصاني ربي بتسع : « أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، وبالعدل في الرضا والغضب ، وبالقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عِبراً » .

وقال ينصح متكلم : « رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم » هذه الأحاديث رويت بالتواتر ، ومن ينظر لصياغتها يعرف أنه عليه السلام أوتي جوامع الكلم ، وحقاً ما قاله الجاحظ من أنه :

« لم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة وشيد بالتأييد ويُسر بالتوفيق »[7] فتأمل هذه الأحاديث التي كثفت تكثيفاً إذ قل عدد حروفها وكثرت معانيها ، وأشرقت بأنوارها البهية وصياغتها الفريدة .

وكما كان للقرآن الكريم أثر في اللغة والأدب كذلك فإن للحديث النبوي الشريف أثراً أيضاً فيهما . ولا غرو فإن قائله هو أبلغ العرب قاطبة وأفصحهم لساناً وأقدرهم حجة وأسلسهم تعبيراً .

وقد ظهرت فائدة الحديث النبوي وأثره في اللغة والأدب في أنه عاون القرآن الكريم في انتشار العربية ، وتوسيع المادة اللغوية بما أشاع من ألفاظ مستحدثة لم تكن تستخدم من قبل هذا الاستخدام الخاص .

وقد أقبل الأدباء العرب في مختلف الأمصار الإسلامية ، وعلى تعاقب الأزمان يدرسونه ويحفظونه ويستنبطون منه . وقد استمد الأدباء العرب من هذا الكنز في رسائلهم وأشعارهم ما أضاف إليها رونقاً وطلاوة . ومن أثر الحديث في اللغة والأدب إن بدأت المؤلفات المختلفة حول غريب الحديث ، وتصنيف الحديث ، وعلوم الحديث ، ومصطلح الحديث ، والموطأ والصحاح إلى غير ذلك من المؤلفات التي استوحيت من الحديث ومن تأثيره أيضاً نشأت الكتابة التاريخية في السيرة النبوية وتراجم المحدثين للحكم لهم أو عليهم ، فكانت طبقات ابن سعد ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، والإستيعاب وميزان الاعتدال

---

(7) البيان والتبيين ج 2 ص 17 .

للذهبي . وغيرها من المؤلفات العديدة في التفسير والشروح . .

فالحديث يكون قد فتح باب التأليف والكتابة العربية وهيأ لظهور مؤلفات عديدة في كل فن في علوم الحديث والفقه مما بشر بقيام نهضة علمية مباركة .

ولا يخفى ما في الحديث النبوي من قوة التأثير ، والأسلوب البليغ الجميل ، وما فيه من الحكمة وضرب المثل ، واستخلاص العبرة ، وروعة التعبير والتصوير ولا عجب فقد ولد النبي ( ص ) في بني هاشم ، واسترضع في بني سعد ، ونشأ في قريش وكان له من الوحي معين لا ينضب . قال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو وحي يوحى ﴾ ( النجم : 3 ـ 4 ) .

## خصائص البلاغة النبوية

كان ( ص ) أفصح العرب لساناً وأبلغهم بياناً وأعذبهم أسلوباً وأروعهم حكمة قال الرافعي : « والبلاغة النبوية تلي في منزلتها الأدبية الذكر الحكيم ، وهي هذه البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها . . . إن خرجت في موعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، في منزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتد فينزو بالدموع ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء إلى الأرض ، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء[5] وجميع من في أرض العرب من الأدباء والبلغاء وقفوا مبهوتين أمام هذه البلاغة الباهرة .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للرسول ( ص ) : « لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت الذي هو أفصح منك فمن أدبك ؟

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقد سمع الرسول ( ص ) يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال ( ص ) : أدبني ربي فأحسن تأديبي » وقد وصف الجاحظ بلاغة النبي محمد ( ص ) فقال :

« كلامه ( ص ) هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد : ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ ( ص : 86 ) .

---

(5) إعجاز القرآن للرافعي ص 314 .

فلا جرم أن يكون المأثور عنه من الحديث صفوة القول بعد القرآن الكريم من ألفاظه يكتسب الأديب ، ومن بلاغته ينتفع كل بليغ ، ومن أثره يستمد مفسر القرآن ، ومن شروح حديثه يستكمل الفقيه الأحكام الشرعية ، ومن كلمه يشيد اللغوي صرحاً حصيناً للغته ، ومن حكمته يستنير الحكيم بأنوار حكمه ، إذ كان صلوات الله عليه « وما ينطق عن الهوى » كل غايته توضيح القرآن ، وهداية الناس إلى الحق ، وتنفيرهم من الشر وإرشادهم إلى دينهم ودنياهم .

وجاء وصف بلاغته ( ص ) في الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام فقال : « وكان ( ص ) فصيح المنطق ، سمح البيان ، سلس الأسلوب ، قوي العبارة ، لامع الرونق ، رائع الحكمة ، موفق المثل ، مونق اللفظ ، مشرق المعنى ، يحس المرء لكلامه حلاوة العسل ، إذا تكلم خفتت الأصوات ، وأنصتت الآذان ، وخشعت الجوارح ، وامتلأت القلوب بجلال العبرة وسمو الموعظة »[9] .

من غريب كلامه

روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : « ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وسمعتها من رسول الله ( ص ) وسمعته يقول : مات حتف أنفه ، وما سمعتها من عربي قبله يريد : مات على فراشه[10] .

وقد يتصرف العرب في اتساع اللغة عن طريق المجاز والاشتقاق فينتزعون بعض الألفاظ من بعضها ، أو يخترعون فكرة من فكرة أخرى ، أو يبتدعون بعض المعاني من معان أخر ؛ ولكن ذلك كله يتم في حدود الموجود المتعارف عليه ولا يتجاوزون إلى أبعد من ذلك . أما المأثور عنه فهو من ابتداعه ( ص ) وغير موجود عند العرب . فقد كانوا يعجبون لانفراده بها ، وهم عرب مثله ، علماً أنه باق بين أظهرهم ، لم يفارقهم ، ولم ينتقل عن بلدهم .

من ذلك روي عنه ( ص ) أنه قال لأبي تميمة : إياك والمخيلة !!

---

(9) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ص 103 .

(10) جاء في القاموس : خص الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بتنامح نفسه . وجاء في النهاية : كان العرب يتخيلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرحت خرجت من جراحه . كما جاء في إعجاز القرآن للرافعي « إن موت الرجل على فراشه من غير حرب ولا قتال أمر كانوا يأنفون له والحتف : الهلاك فكأن صاحب هذه الميتة إنما ماتت إنفته وكبر ياؤه فلم يرفع الموت أنفه في القوم ، بل أذله وأرغمه فكان به هلاكه ، لأن حياته كانت في عزته ، وعزته كانت في أنفه وأنفه هو الذي كبه على الموت وإنما مجاز العبارة كما يقال في الكبر : ورم أنفه . وفي العزة : حمي أنفه راجع الرافعي في إعجاز القرآن ج1 ص 11 .

فقال : يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما المخيلة ؟ قال ( ص ) : سبل الإزار ، أي الكبر . . فعدم معرفة أبي تميمة ، وقوله نحن قوم عرب ، دليل أن هذا اللفظ قد اخترعه النبي ( ص ) ولم يسبق إليه .

وقوله ( ص ) كذلك لا نجشة وهو يحدو الإبل ويطرّب في صوته فتسرع الإبل وتتمايل الهوادج بالنساء « رفقاً بالقوارير » فالقارورة هي القطعة من البلور الرقيق الشفاف ينكسر بسهولة ويجب الاعتناء بها ونقلها برفق وهدوء لتسلم من العطب . فتأمل هذه الاستعارة الفنية الرائعة التي انفرد بها أبلغ العرب لساناً وأفصحهم بياناً .

ومن أقواله الفريدة التي يعرف مثلها العرب قوله ( ص ) : « إياكم وخضراء الدمن » فقالوا : وما ذاك يا رسول الله فقال : المرأة الحسناء في المنبت السوء ، فهي أشبه بالشجرة أو النبتة الناضرة وسط الدمن ، ( وهي كومة أوساخ الإبل ) .

وقال ( ص ) : « نحن الأنبياء أولاد عَلّات لا أولاد أخياف » معنى القول أن الأنبياء دينهم واحد وأمهاتهم مختلفة . أما أولاد الأخياف فأمهم واحدة وآباؤهم مختلفون .

فالأنبياء دينهم واحد وأمهاتهم مختلفة ، يعني أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة .

وبنو الأعيان هم الأخوة لأم وأب واحد . قال علي بن أبي طالب : « يتوارث بنو الأعيان من الأخوة للأب إذا اجتمعوا معهم .

قال ابن بري : يقال لبني الضرائر بنو علات . ويقال لبني الأم الواحدة بنو أم . وأبناء علات لأب واحد وأمهات مختلفة . قال عبد المسيح :

والناس أبناء عَلّات ، فمن علموا ... أن قد أقلّ ، فمجفوٌّ ومحقور
وهم بنو أم من أمسى له نسب ... فذاك بالغيب محفوظ ومنصور

وقال آخر :

أبي الولائم أولاداً لواحدة ... وفي المآتم أولاداً لعلّات

---

(11) جاء في القاموس الجلال : الحلب بعد الحلب ، قيل استيجاب الضرع للحلب بكثرة اللبن . والعَلالة . ما تعللت به أي لهوت به . والعلُّ : الذي يزور النساء . والعَلّة ، الضرة . وبنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى سميت بذلك لأن الذي تزوجها على أولى قد كانت قبلها ثم علّ من هذه ، قال ابن بري : إنما سميت علّة لأنها تعلّ بعد صاحبتها من العلل .

وقال ( ص ) :

بعثت في نفس الساعة ، أي قريباً منها . وكأنه أحسها كما يحس الإنسان أنفاس من يقاربه .

وقال ( ص ) في الحرب :

الآن حمي الوطيس . فالوطيس التنور ومجتمع النيران ، يبغي بذلك شدة الحرب ، فقد استعار نارها والتهاب شررها .

وقال ( ص ) :

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » قال هذا القول الذي جرى مثلاً على الألسنة لأبي عزة الشاعر ، وكان يحرض عليه ، ويؤلب الناس ضد الدعوة الإسلامية المباركة . فأسره يوم بدر ثم منّ عليه وأطلقه فعاد إلى سيرته الأولى في التحريض ضد المسلمين إلى أن تم أسره ثانية يوم أحد . فسأل النبي ( ص ) أن يمن عليه ثانية فقال له ( ص ) « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

يقول الرافعي : فما ندري أي ذلك أعجب أن ينفرد الرسول بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك في لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية ، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها وخالطوا العرب وسمعوا مناطيقهم حين يتوافدون إليهم في موسم الحج ، وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه ، ولا يرددونه في ألسنتهم ، ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشأون عليه من السماع والمحاكاة ، حتى كان هذا الباب فيه ( ص ) باباً على حدة وهكذا كان رسول الله يتميز بالفطرة القوية ، والطبيعة الملهمة ، والموهبة البيانية المبدعة ، واللسان الذرب ، والقول الفحل ، والمنطق الفصل ، مما لا يفهم سره ولا يعرف أمره إلا على أنه معجزة من الله لنبيه ومختاره ومصطفاه .

## خصائص الأسلوب النبوي

أفضل تعريف للأسلوب النبوي هو السهل الممتنع ، أي أنه إذا سمعه أي إنسان فهمه وظن أنه يحسن مثله .

يمثل الأسلوب النبوي البلاغة القريبة والبعيدة وهو نمط فريد وطريقة محكمة ونسيج وحده . كان ( ص ) يوجز القول فتأتي كلماته جوامع وحكماً يكره الفضول ويلبس الباطل ثوب الحق ، وربما أطال في بعض خطبه فيكون كلامه للإرشاد والوعظ

وتبليغ الرسالة . ولكن الغالب كان مقتصداً في ألفاظه ، محيطاً بمعانيه ، هذا إلى إحكام الأسلوب في غير تعقيد ولا تكلف ، مع رونق وعذوبة وجلالة ، ومع قوة وإشراق وجزالة . ومع تجنب سجع الكهان الذي كان فاشياً في تلك الأيام .

**أما ألفاظه :**

نزهت عن اللحن والخطأ والقصور ونفي منها الحوشي والمبتذل والساقط لأن الذي اختاره الله سبحانه وتعالى ، المصطفى ، اختار بطبعه المتمكن وفطرته السليمة ألفاظاً بليغة مشرقة عذبة صاغ بها كلمات رشيقة وقوية وجليلة تنطق عن قوة الملكة وسلامة الذوق .

**وأما معانيه ( ص ) :**

فهي الأدب الرفيع في صياغته ، والحكمة الصادقة في مدلولها ، والنور المشرق إلى الهداية ، والحق المنزه عن الشك والريب ، والإلهام الذي وهبه إياه رب العالمين ليهدي الناس إلى الصراط المستقيم .

**موضوع الحديث النبوي**

1 ـ من أولى اهتماماته ( ص ) تبليغ الدعوة الإسلامية . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ ( المائدة : 6 ) .

2 ـ شرح القرآن الكريم وبيان أحكامه مفصلة المجمل منه تفصيلاً واضحاً ليسهل فهمه وتوضح مدلولاته .

3 ـ تشريع النظم الدينية والإجتماعية والسياسية والإدارية لا صلاح الفرد في مجتمعه وإصلاح المجتمع العربي والإنسانية بصورة عامة . ذلك أن الرسول الأمين جاء رحمة للعالمين قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ ( الأنبياء : 107 ) .

4 ـ نعي المشركين والوثنيين وتقبيح ما كانوا عليه من ضلال وبهتان وتوجيههم إلى الهدى بالبيان الواضح والحجة القويمة .

5 ـ تقرير الإيمان بالبعث واليوم الآخر والأنبياء المرسلين والملائكة بالأدلة النقلية والعقلية للناس جميعاً من جميع الأصقاع المختلفة ليوضح لهم بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى ينال فيها الإنسان جزاء أعماله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

لقد كانت غايته أن يغرس فيهم هذا الشعور ليسعد من يسعد عن بينة ويشقى من يشقى عن بينة .

ومهما قيل عن البلاغة النبوية يبقى القلم قاصراً عن استجماع جوانبها إنها بلاغة من صنع الله حسب رأي الزيات قال :

« إن بلاغة الرسول من صنع الله ، وما كان من صنع الله ، تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن قياسه ، فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره ، هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ، وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ، وهل يجد في نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلال والروعة . إن البلاغة النبوية هي المثل الأعلى للبلاغة العربية . وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فإن البلاغة صفة محمد وحده »[12] .

## الحديث النبوي يدعو إلى المساواة

قال رسول الله ( ص ) : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » كان العرب في الجاهلية يقدسون القوة ويجلون القوي ويرهبونه ، فإذا ما تعدى حدوده فلا يجرأ أحد على محاسبته أو إظهار عيوبه .

أما الضعيف فكانوا يرمونه بالتهم ويقيمون عليه الحد وينشرون كل ما عنده من معايب . هكذا كانت بيئتهم ومحيطهم وعاداتهم ، فوضى إلى أبعد الحدود في كل مناحي الحياة . لذلك كانت نهاية المجتمعات القديمة التي مارست مثل هذه الأعمال ، فتغاضت عن أخطاء السادة ولم تحاسبهم ، وقست على الضعفاء والمساكين فأقامت عليهم الحد ، الهلاك والفناء .

ولما جاء الإسلام بعدالته السمحاء، ساوى بتشريعاته القويمة بين جميع الناس ، ونظر إلى الخلق نظرة واحدة لا فرق بين عبد حبشي وبين زعيم قرشي . فالناس في الميزان الإسلامي سواسية كأسنان المشط وما يتميزون به هو « التقوى » تقوى الله العلي العظيم فلا ينظر نظرة خاصة إلى القبيلة والعشيرة ، ولا إلى القريب والحسيب ولا الصديق ولا الولد أو الأخ أو الأب . . . قال رسول الله ( ص ) « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

---

(12) من وحي الرسالة ج 2 ص 79 .

ولا يخفى ما لهذا المبدأ من أهمية كبرى في إصلاح المجتمعات ، ومن تأثير في توثيق العلاقات الإجتماعية بين الأفراد . فهم دائماً يتطلعون إلى رؤسائهم وحكامهم بالتزامهم بالمبادىء ، ورعايتهم لحرمة القوانين ، فيتخذونهم أسوة حسنة ، ويسيرون على نهجهم .

وفي ظل المساواة هذه يرضى الإنسان بحياته ويطمئن ، ويسلك سلوكاً متزناً هادئاً ، وبذلك يضمن السعادة له والتقدم لمجتمعه .

ومن خلال هذه الحياة الهادئة المطمئنة يسود التعاون بين أفراد المجتمع الواحد ، ومن التعاون التعاطف ، ومن التعاطف المحبة ، روح الحياة وهدف الأحياء . وعند ذلك تخيم السعادة وينمو المجتمع ويتقدم .

وفي ذلك قال ( ص ) :

« مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

فما أحرانا نحن اليوم ، وفي كل يوم ، إلى التمسك بهذا الحديث الشريف والعمل به في هذه الظروف الأليمة . حيث العدو يتربص بنا ويدمر ويخرب ويسفك الدماء الطاهرة . ما أحرانا إلى التمسك بحبل الله تعالى إنه سميع مجيب .

## الحديث النبوي يدعو إلى الإشتراكية

قال ( ص ) : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له »[13] .

لو طبق المسلمون هذا الحديث بطريقة عملية لذابت الفوارق الإجتماعية بينهم وبذلك تتوثق العلاقات الإجتماعية بينهم وتقوى صلة الأفراد بعضهم ببعض . فالحديث كما هو واضح منه يدعو إلى تأكيد العلاقات الإجتماعية ويحث المسلمين على أن يوزعوا ما زاد عن حاجتهم من مال ، أو طعام ، أو وسيلة من وسائل المواصلات لأبناء المجتمع المحتاجين ، الذين لم تسعدهم الظروف بمثل ما أسعدت إخوانهم .

ولا شك أن هذه المثالية تقضي على الطبقية وتذيب كل الفوارق الإجتماعية فلا

---

(13) الفضل : الزائد عن الحاجة ـ والظهر : ما يركب من دواب وماشية ونحوه فليعد به على من لا ظهر له : فليعطه مساعدة وعوناً لمن لا يملكه وقد عبر بالظهر لأن الدواب كانت وسيلة المواصلات قديماً فعبر بالظهر عن الدابة .

وجود لطبقة مترفة تنعم بكل شيء ، وأخرى بائسة لا تجد شيئاً وإذا ما فعل المسلم ذلك وأحس مع أخيه المسلم فأعطاه ما فاض عنه من خير فإنه يكون قد قام بواجبه الإنساني ولا حق له في الفضل ، فالإسلام جعل ما يدفعه القادرون لإخوانهم المحتاجين واجباً يلزم أداؤه ، وليس تبرعاً ومنّة ، بل زكاة لماله ، وأجراً يثيبه الله عليه « والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

من هنا كانت الزكاة في الإسلام ، وهي نظام اجتماعي ثمرته حفظ التوازن بين طبقات الأمة الواحدة ، وبذلك يكون الإسلام أول من سبق العالم إلى وضع هذا النظام[14] ، وخصوصاً الشرائع التي عاصرت نشأته . وحسبك أن تعلم أن القانون الروماني كان يسوغ للدائن أن يسترق المدين .

ولا يفهم من هذا الحديث أن بعض الناس ينتظرون ما يقدم إليهم من الأغنياء انتظاراً موقوتاً ، أو أنهم سوف يحترفون التسول من ذوي القلوب الكريمة . فإن الإسلام قد شجع على العمل وباركه ، وجعله أساس الجزاء في الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله . . . ﴾ ( الجمعة : 15 ) وقال رسول الله : « اليد العليا خير من اليد السفلى »[22] فالعليا التي تعطي والسفلى التي تأخذ . هذا في زمن السلم ، فكيف في زمن الحرب لا شك هو واجب مؤكد .

## الحديث النبوي يدعو إلى تربية الفرد

قال رسول الله ( ص ) : « لا يكن أحدكم إمّعة يقول : « إنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم[15] إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم » يدعونا هذا الحديث إلى تربية الشخصية الفردية للمسلم فلا يكون ( إمعة ) سلبياً في مجتمعه لا رأي له ولا دور ، يسير وراء الآخرين بغير اقتناع ، ويعمل بإيحاءاتهم وإرشاداتهم ولا حول له ولا طول فإذا تغيّر رأي غيره تغير معهم حتى ولو جاء مخالفاً لما يعتقد ويرضى يكون منقاداً لا رأي له في مجتمعه .

إن أمثال هؤلاء يضرون أنفسهم أولاً ويسيئون إلى مجتمعهم ثانياً لأن المسلم الحقيقي إنسان إيجابي له رأيه وله دوره الفاعل والمعروف يتبع الناس إن كانوا محسنين

---

(14) راجع سورة التوبة الآية 60 .

(15) إمعة : الذي لا رأي له يتابع كل أحد على رأيه ولا يثبت على شيء .

(16) وطنوا أنفسكم : توطين النفس تمهيدها والمقصود تعويدها .

ومصيبين فيما يقولون ويفعلون ، ويخالفهم إن كانوا مخطئين أو مسيئين .

وقد نشاهد الكثير من هذه النماذج في مجتمعنا الحاضر ، فيقصر أحد الناس في أداء الواجب فتسأله وتلومه فيقول لك : مبرراً تقصيره بتقصير غيره ، فلان فعل الفعل نفسه فلماذا تلومني وحدي ؟ !

كالترهل الذي نلقاه في مدارسنا وجامعاتنا ، والإهمال بالقيام بالواجب والتأخير في الحضور والتحصيل ، وهذا هو الطالب الإمعة .

وفي المجتمع أكثر الناس يقولون بغير ما يعتقدون ، ويرتكبون الأخطاء والآثام فيشربون المسكرات ، ويتاجرون باسم الحرية والديمقراطية ويلبسون أثواباً مزيفة ، وينقلون الشائعات المغرضة ، وغير ذلك من العادات الضارة والسلوك المشين ، وإذا طلبت إليهم أن يكفوا عن سلوكهم السيء ، وممارساتهم الخاطئة يكون جوابهم : إن ما نفعله يفعله سائر الناس !! فلماذا تلقون اللوم على عاتقنا هؤلاء يقصدهم الحديث الشريف ويطلب إليهم أن يكون عندهم شخصية فردية مستقلة ورأي خاص مستقل فلا يعملون إلا ما يقتنعون به ولا يسيرون وراء غيرهم دون قناعة منهم ، سواء أكان خوفاً من عقوبة أو طمعاً بمكافأة . إن المسلم الحقيقي يأبى أن يكون تابعاً دائماً لا رأي له بين قومه ، ولا دور له في مجتمعه بل عليه أن يكون سند نفسه فيقول ( لا ) عندما يجب قولها ، ويقول نعم عندما يقتنع بها ويراها في مكانها المناسب .

# الفصل الخامس

# النثر في عصر صدر الإسلام

## « الخطابة »

لا يخفى أن الحياة في صدر الإسلام قد تبدلت تبدلاً تاماً بجميع أوضاعها وأحدثت انقلاباً جذرياً في الجوهر والمظهر في السلوك والأخلاق ، والعقائد والشيم وكل مناحي الفكر والقول .

كانت الحياة الفكرية في الجاهلية تعتمد على الشعر في أغلب الأحيان في مفاخراتهم ، ومنافراتهم ، وخصوماتهم ، وغزواتهم ، ومحاوراتهم . ولسانهم كان المعبر عن كل ما يجيش في صدورهم من أفكار ، ويختلج في خواطرهم من أحاسيس .

ولما جاء الإسلام أذهب عنهم كل ما عندهم من تناحر وتنافر ، وما تشحن صدورهم من أحقاد غادرة وأضغان ثائرة ، وخصومات منكرة ، وقضى على الحمية الجاهلية ، وبغّض إليهم التفاخر بالآباء والأنساب .

وبذلك احتلت الخطابة المنزلة الأولى وكان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع لألوانها ، فنبه شأنها وارتفع ذكرها ، وعلت مكانتها، وعظمت منزلتها . وقد كانت أداة الدعوة إلى الدين الحنيف واللسان الناطق بالرسالة الإسلامية .

اعتمد عليها رسول الله ( ص ) ليبين للناس معاني الإسلام الروحية التي تقوم على تأكيد وحدانية الله سبحانه وتعالى ، والترغيب في العمل الصالح ، والإيمان بأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يجد فيها المرء جزاء ما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ﴿ كل يد وما كسبت رهينة ﴾ ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

ثم انتقل ( ص ) إلى المدينة ( يثرب ) وأقام مجتمعاً جديداً يشرح للناس بحسن بيانه الحلول والمشكلات التي كانوا يعانون منها ، كمشكلة الرقيق ، وتوزيع الثروة ، والعلاقة بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشكلات . كما كانت تجيئه وفود العرب فيخطب في كل وفد ، يدعوهم إلى الدين ، ويبين لهم الأحكام الشرعية والآداب الاجتماعية ، والفتاوى الدينية كما أمر رب العالمين جل وعلا . ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ ولهذا كانت الخطابة متممة للذكر الحكيم .

من هنا كانت فرضاً في صلاة الجمع والأعياد ، ومواسم الحج ، وقد قضت على كل لون قديم لا يتفق وروح الإسلام .

وظهر إلى جانب الخطب الدينية الخطب السياسية استجابة للمواقف التي كانت تطرأ على الدولة من حين إلى حين .

وكانت الفتوح وأخذ الخلفاء من بعد النبي يرسمون بخطبهم سياسة الدولة في رعاياهم ، ويحددون دساتيرهم التي يلتزمونها في حكم الناس ومعاملاتهم ، فيحضون فيها على غزوة أو جهاد .

ومضت الخطب في اتجاهين أساسيين : المواعظ الدينية ، والحض على الجهاد .

ثم نشبت المعارك بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وتكاثر الخطباء بين أنصار لعلي وأنصار لمعاوية ، وجرت بين الفريقين مناظرات ، ورسائل ، ومحاورات ، عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

وهكذا أدت الأحداث وتتابعها إلى ازدهار الخطابة ورقيها .

### أسباب ازدهارها

احتاج الإسلام إلى الخطابة ، في سبيل « الدعوة إلى الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحميس الجند على الجهاد في سبيل الله . وقد احتاج إليها الخلفاء من بعد ، والأمراء في الجيش والولاة ، لإعلان سياسة الدولة وتبليغ أوامرها .

قال الدكتور عمر فروخ « فكان الرسول ( ص ) والخلفاء الراشدون وأمراء الجيوش وولاة الأمصار والقضاة من الخطباء ضرورة غير أن بعضهم كان أخطب من بعض ، فعلي بن أبي طالب كان خطيباً موهوباً فوق عثمان بن عفان وعمر بن الخطاب ،

ولا غرو فكلام علي يأتي في مراتب البلاغة بعد القرآن والحديث »[1] .

ولعل الذي مكن للخطابة هذا التمكين وجعلها مرفوعة الذرى ، منشورة الراية هو ما أسبغه الإسلام على المجتمع الإسلامي الجديد من حرية واسعة ، وما غرسه فيه من صراحة يستطيع من خلالها الإنسان أن يناقش ويراجع ويخاصم ويحاور ، حتى الحاكم يؤيده أو يخذله . وهذه الحرية قد اتسع مداها وامتد أفقها ، حتى شملت النساء ، فالمرأة المسلمة لا تسكت عما تظن أنه حق لها . وقد كانت تتحدث وتجادل وتخطب .

يروى أن امرأة ذهبت إلى رسول الله ( ص ) وقالت : يا رسول الله ، إني وافدة النساء إليك ، ثم ذكرت ما للرجال من أجر ، ثم تساءلت : فما لنا من ذلك يا رسول الله ؟ فقال ( ص ) : أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة الزوج ، واعترافاً بحقه ، يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله » .

وكانت امرأة تعترض طريق عمر بن الخطاب وهو يخطب فتراجعه حتى لقد يرجع عن رأيه ، ويقول : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » وهذا لعمري منتهى الحرية والصراحة في أفضل عصر متحضر .

وأم الخير بنت الحريش البارقية كانت من أنصار علي كرم الله وجهه في سياسته . وقد خطبت في ذلك خطباً ألهبت النفوس وأثارت الحماس ، ودفعت الناس دفعاً إلى مقابلة أعدائهم والكر عليهم بسيوفهم ورماحهم ، حتى أنها أوفدت إلى معاوية والي الشام ، بعد أن استتب الأمن له والسلطان ، فسألها عن كلامها حين قتل عمار بن ياسر ، فقالت : لم أكن زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثهن لساني حين الصدمة ، فإن شئت أن أحدث لك مقالاً غير ذلك فقلت ، فقال معاوية : لا أشاء ذلك .

هذه بعض مآثر الحرية على الخطابة في ظل الإسلام العادل السموح . وتمضي الخطابة في ازدهارها مع الخلفاء الراشدين ، فكثرت خطب الجمع والأعياد التي كانت فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يحلونه ثم كانت الفتوح وبدأ الحض على الجهاد في سبيل الله وما يستلزمه من تحميس الناس له ، وتحريضهم عليهم ، لنشر الدين الحنيف في أطباق الأرض . من هؤلاء قواد الجيوش في كل قطر يخطبون في الجند ليحثوهم على الصبر في القتال حتى الاستشهاد ، وهم إن لم يخلدوا في هذه الدنيا فسوف يخلدون في

---

(1) تاريخ الأدب العربي ج 1 ص 256 .

جنات النعيم عملاً بالآية الكريمة : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ( آل عمران : 169 ) .

ومما شجع الخطابة في عصر الخلفاء الراشدين هو السماح لخطابة الوفود في مجالسهم ، تستميح لأقوامها وتذكر حاجتها . ومن هؤلاء نذكر الأحنف بن قيس ، سيد تميم ، وأحد قواد الفتوح ، اشتهر بغير خطبة ألقاها بين يدي الخليفة[2] .

وقد حلت الخطبة الدينية مع المسلمين في البلاد التي فتحوها ، وكان هذا بلا شك عاملاً من عوامل نموها حيث رغب الناس في ترديدها وصياغتها مستلهمين من القرآن الكريم وخطب الرسول ( ص ) فيما يعظون به الناس من مواعظ حسنة . من هؤلاء نذكر عبد الله بن مسعود في إحدى مواعظه . خاطب فيها أهل الكوفة :

« أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى ، وخير الملل ملة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد ( ص ) ، وشر الأمور مستحدثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . . خير الغنى غنى النفس . الخمر جماع الآثام . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . مكتوب في ديوان المحسنين من عفا عفي عنه . السعيد من وعظ بغيره . . أحسن الهَدْي هدي الأنبياء »[3] .

وفي هذين الإتجاهين : المواعظ والإرشاد ، والحض على الجهاد في سبيل الله مضت الخطابة حتى أواسط خلافة عثمان بن عفان . ولما أشعل الثوار النار عليه ، أمثال الأشتر النخعي في الكوفة ، ومحمد بن أبي بكر في مصر ، وأخذوا يؤلبون الناس توالت الحوادث وقتل عثمان ، وتولى علي بن أبي طالب مقاليد الخلافة ، فاجتمعت السيدة عائشة وطلحة والزبير ، وقرروا الخروج عليه ، وقصدوا البصرة ، مما اضطر علي إلى أن يتبعهم وينزل الكوفة وكانت موقعة الجمل التي انتصر فيها علي وتم له بيعة أهل العراق .

ولا ريب أن مثل هذه الظروف تستدعي كثرة الخطب بين أنصار علي وخصومه . ثم حدثت معركة صفين على حدود الفرات بين علي ومعاوية ، وكان علي خطيباً مفوهاً ، وكان بجيشه غير خطيب من أمثال : عمار بن ياسر ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وعدي بن حاتم الطائي ، وعمر بن الحمق ، وشبث بن ربعي . وقبل اندلاع الحرب

---

(2) البيان والتبيين ج 2 ص 144 وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب .

(3) البيان والتبيين ج 2 ص 56 .

كان يتبادل علي ومعاوية الوقود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما »[4] وترجح كفة علي رجحاناً واضحاً ، فيلجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة إذ يرفعون المصاحف على أسنة رماحهم مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله »[5] .

ولما توقف جنود علي عن الحرب ، مانعهم فهددوه بأن يصبح مصيره مصير عثمان فنزل على إرادتهم فخرج عليه فريق من جيشه ممن رفضوا التحكيم ، ونزلوا معسكراً في حروراء بالقرب من الكوفة ، فسموا بالحرورية ، ثم عرفوا باسم الخوارج . فحاول علي وعبد الله بن عباس إقناعهم ورجوعهم إلى سواء السبيل فقامت بينهما مناظرات في مسألة التحكيم ، وكان عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف . من هنا ارتفع عالياً سهم المناظرة عالياً ولما لم يسمع الخوارج كلامه ولم يطيعوا اضطر علي إلى حربهم ، وفتك بهم فتكاً ذريعاً في موقعة النهروان . وكانوا يظهرون بسالة غريبة يدفعهم إلى ذلك خطباؤهم من أمثال عبد الله بن وهب الراسبي ، وحرقوص بن زهير السعدي ، والمستورد بن عُلّفة ، ومن يرجع إلى خطبهم يجدها تنقد حماسة وعنفاً وحمية[6] .

وانتهى التحكيم بمهزلة خلع علي ، ثم امتدت يد آثمة من أيدي الخوارج إليه وطعنته طعنة غادرة .

بعد هذا الاستعراض السريع ، يتضح لنا كيف نمت الخطابة في هذا العصر نمواً واسعاً ، وذلك بتأثير الإسلام وبتكاثر الأحداث وتتابعها ولا يخفى ما أدت هذه الخطابة من فوائد جلى للغة العربية لم يكن للعربية عهد بها . فقد حملت معاني الدين الحنيف ، وأدت الرسالة النبوية ، وكل ما تحوي من عبر وتعاليم . فكل خطيب كان يحمل قبساً من هذه التعاليم يستضيء بها في كل ما يخطب ابتغاء التأثير على الناس ، وخاصة في خطبه الدينية الخالصة في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج .

ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سنة في كل خطبة حتى الخطبة السياسية ، أما الخطبة التي كانت تخلو منه فسموها خطبة بتراء ، والتي تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلاة على الرسول ( ص ) شوهاء[7] .

---

(4) الطبري ج 2 ص 501 .

(5) تاريخ الأدب العربي شوقي ضيف ص 110 .

(6) راجع في ذلك الطبري ج 4 ص 54 .

(7) راجع البيان والتبيين ج 2 ص 6 .

أما عن السجع في خطابة صدر الإسلام فقد كان شيئاً عارضاً ، « إذ كان الرسول ( ص ) لا يسجع في خطابته ، وكان ينفر منه حين يلهج به أحد محدثيه »[8] للتشبه بالكهان في سجعهم . وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلة الصحابة .

يروى أن صحاراً العبدي وفد على عمر بن الخطاب قادماً من غزو مكران في بلاد فارس ، فأراد عمر أن يسأله عن شأنها وشأن العرب هناك فأجابه[9] : « أرض سهلها جبل ، وماؤها وشل ، وثمرها دقل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل وشرها طويل ، والكثير بها قليل . إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلوا بها ضاعوا » ولما سمع الخطبة عمر أنكر على الخطيب السجع وقال له : « أسجاع أنت أم مخبر » .

وما يلاحظ بشأن الخطابة في صدر الإسلام أنها أصبحت ذات موضوع محدد واضح يجول فيه الخطيب ليحقق الهدف الذي يبغيه ، وليست كما كانت في الجاهلية تأخذ شكل أقوال متناثرة لا رابط بينها .

ويمكننا القول أن الخطابة في هذا العصر نمت نمواً سريعاً ، ونهض معها النثر نهضة واسعة ، بما أضافه الخطباء من معاني الإسلام ، فولدوا فيها ما استطاعوا وفرعوا ما أرادوا فأجادوا إجادة مشكورة ، ونحن نقف بكل تقدير وإجلال أمام خطابة الرسول ( ص ) وخطابة الخلفاء الراشدين لنتتبع خطوات التطور التي خطاها النثر العربي بأساليبه ومعانيه في ميادين البلاغة والبيان .

## خطابة الرسول ( ص )

الرسول الأمين على هدي القرآن الكريم كان يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الهداية السماوية ، إنه المصطفى الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، أوتي من حلاوة اللسان ، وأعلى درجات الفصاحة ما ملك به قلوب سامعيه ، وكأنما معاني الكلام ومتانة الأساليب موقوفة بشخوصها بين يديه ، امتلك ناصية العربية وأخذ يختار منها ما تأنس له الأسماع وتصغي له الألباب .

وأكثر الخطب التي وصلت إلينا أطراف قليلة من خطب طويلة كانت تطول أحياناً

---

(8) صحيح مسلم ج 5 ص 111 .

(9) الطبري ج 2 ص 257 ووشل : قليل ودقل : ردىء .

إلى ساعات[10] . وأغلب هذه البقايا من خطبه ( ص ) قالها بعد الهجرة من وحي الآيات التي كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً ، وتارة مشرعاً، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغي رائع . وهذه أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس في دخوله إليها صلاة الجمعة وهي تمضي على هذه الشاكلة »[11] .

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ، وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنوٍ من الساعة وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرّط وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ المسلمَ أن يحضّه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رؤوف بالعباد . والذي صدّق قوله ، وأنجز وعده لا خُلف لذلك ، فإنه يقول عزّ وجلّ : ﴿ ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ فاتقوا الله عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية ﴿ ومن يتق الله يكفّرْ عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾ ومن يتق الله فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقّى مقته ويوقّى عقوبته ، ويوقّى سخطه ، وإن تقوى الله تبيض الوجوه ، ويرضى الرب ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرّطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ﴾ وسماكم مسلمين ﴿ ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيي من حيّ عن بينة ﴾ ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم » .

---

(10) إعجاز القرآن للباقلاني ص 62 .

(11) تاريخ الطبري ج 2 ص 115 .

يفيض من هذه الخطبة مواعظ رائعة عظيمة :

استهلها الرسول ( ص ) بتقرير وحدانية الله ، وقد أسبغ نعمه على الناس فأخرجهم من ضلالة الجاهلية ليدخلوا في رعايته الإلهية .

وعليهم أن يعملوا ما يرضيه ليدخلوا في جناته ، فأما الجنة وشفيعها العمل الصالح ، وأما النار وبئس القرار .

كما عليهم الجهاد في سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية في أطراف الأرض . والرسول في كل ذلك يستوحي من كتاب الله ويستمد منه ما يضيء به كلامه فتشع كما يشع نور الشمس في السماء .

وأحياناً كان ينتقل بسرعة من الوعظ الروحي إلى التشريع ليتم بناء المجتمع الإسلامي فيعيش المسلم متعاوناً مع جماعته في سبيل الخير ، وهو خير عميم لجنات النعيم ما بعده خير ، وإلى جانب هذا هو خير للبشرية جميعاً من كل جنس وعرق ولون .

وهذه خطبة أخرى قالها عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع[12] هي خطبة من كلمة ( ص ) يتمثل فيه صحة الطبع ، وتتجلى السهولة مع كثافة المادة ، وإذا كانت الخطب محل إطناب ، كما قالوا ، فإننا نرى أن الإيجاز هنا زاحم الأطناب وتغلب عليه ، مع تحقيق الغرض المطلوب ، وذلك أمر لا يتيسر إلا لمثل الرسول ، خير ناطق من العرب ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب . قال ( ص )[13] :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهْدِ الله فلا مضلّ له . ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

أوصيكم ـ عباد الله ـ بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، واستفتح بالذي هو خير .

أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أبين لكم ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا .

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة

---

(12) كانت في السنة العاشرة من الهجرة وهي السنة التي توفي فيها ابنه إبراهيم ( ص ) .

(13) البيان والتبيين ج 2 ص 31 والسيرة النبوية ج 4 ص 250 والعقد الفريد ج 4 ص 57 .

يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها وإن ربا الجاهلية موضوع[14] ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السِّدانة[15] ، والسقاية[16] ، والعَمْد قَوَدٌ[17] ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يُعبَدَ في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس ! إنما النسيء[18] زيادة في الكفر يُضَلّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرّم الله .

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض ، منها أربعة حرم : ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم . ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم إن تعضلوهن[19] وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح[20] فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان[21] ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

---

(14) موضوع : محرم وساقط .

(15) السدانة : خدمة الكعبة .

(16) السقاية : سقاية الحجاج .

(17) العمد : القتل المتعمد ، القود : قتل القاتل بمن قتل .

(18) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ويحلونه عاماً إن أرادوا الإغارة .

(19) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .

(20) ضرب غير مبرح : ضرب غير مقبل .

(21) عوان : جمع عانية وهي الأسيرة ، أي أسيرات

أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر[22] .

من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل[23] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

يبدو واضحاً أن الرسول ( ص ) بعد الحمدلة والتسليم والوصية بالتقوى انتقل مباشرة يبين طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف حدوداً بين الجاهلية والإسلام .

ولكي يقضي على الثأر وكل أسباب الحروب رد دم القتيل إلى الدولة فهي التي تعاقب عليه ، ثم حرّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً ثم بدأ بتشريعات لا بد للمجتمع إلا أن يأخذ بها ليعيش في سلم ووئام ومحبة . فأعلن :

إن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وإن رد الأمانة واجب شرعي على صاحبها . وحرّم الربا لأنه استغلال غير شرعي وأعطى مثلاً حياً من عشيرته ، عمه الموسر عباس بن عبد المطلب . كما أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب .

ولم يبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج وأوجب في قتل العمد القود ، أي قتل القاتل بمن قتل . لأن ذلك أصبح من مسؤولية القضاء في الدولة . ثم حدد دية القتيل غير العمد بمائة بعير ليحفظ للجماعة وحدتها وتعاونها بمحبة

---

(22) للفراش : أي لصاحبه . والعاهر الحجر : أي أن هذا مقضي به رغم أنفها أو لعله يشير إلى رجمها وهذا نراه أصوب .

(23) الصرف : التوبة والعدل : الفدية .

ووئام . ثم حذر الرسول ( ص ) من وساوس الشيطان وغواياته ، محرماً التلاعب بالأشهر الحرم ، واضعاً تقويماً قمرياً لا يتغير .

ثم رفع من شأن المرأة التي كانت مظلومة في الجاهلية وجعل لها حقوقاً وعليها واجبات داعياً إلى التعاطف والتراحم بينها وبين الرجل والتعامل برفق وإحسان .

ثم يعود ( ص ) إلى علاقة الفرد مع الجماعة ويعلن أن المؤمنين أخوة لكل أخ على صاحبه واجبات التعاون والتآزر والتحاب إلى ما فيه الخير والصلاح ، فلا نهب ولا بطش ، ولا ظلم ولا سفك دماء ، وهذا عهد بين المسلمين المؤمنين من نقضه عد كافراً آثماً ، لأن عهد الجاهلية ولّى وانقضى ولا تنابذ ولا تفاخر فالناس كلهم سواسية ولا عربي عدناني ولا عربي قحطاني ولا عربي ولا أعجمي فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب . لقد وضعت قواعد جديدة وموازين جديدة ولم يعد للنسب والحسب من دور يذكر في ميزان التاريخ الإجتماعي ، إنما الميزان الجديد الذي يخضع له كل كبير وصغير ويعمل به في الحياة هو « التقوى » .

ويلفت الرسول ( ص ) إلى ما قرره القرآن في الميراث وأنصبته ، وفي شرعية الأبناء والذين كانوا ينسبون لغير آبائهم من النساء العواهر ، فحرم ذلك تحريماً باتاً .

وبهذا بيّن رسول الله في خطبته هذه ما ينبغي أن يأخذ به المسلم نفسه في علاقاته مع أبناء مجتمعه وفي علاقاته مع أسرته حتى تزكو نفسه وتصفو سريرته ولا ينحرف قلبه عن المحجة بل يترقى في مراتب السلم الإنساني والكمال الحضاري .

هذه الخطبة وغيرها من الخطب النبوية صيغت بأسلوب نبوي فريد عرف به ( ص ) دون غيره من سائر البشر وقد وصف أسلوب خطابته الجاحظ وصفاً دقيقاً فقال إنه :

« جانب التقعيب[24] ، واستعمل المبسوط في موضع البسط والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة ، وشيّد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى عليه الله المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له

---

(24) التقعيب : التكلم بأقصى قعر الفم .

خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلم القصاب ولا يلتمس إسكات الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج[25] إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ، ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فحوى ، من كلامه ( ص ) »[26] .

ثم أضاف الجاحظ في وصف الأسلوب النبوي المشرق البليغ :

فهو الذي فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله فهو الذي رسمها ، وفجّر ينابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنما احتشد الكلم بأزمّته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه في الدلالة ، يسعفه في ذلك ذوق مرهف وحس دقيق تتبينهما فيما روي عنه من قوله : « لا يقولنّ أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل : لقست نفسي »[27] .

مما يدل أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البعيد عن كل مستكره .

## خطابة الخلفاء الراشدين

حفلت كتب الأدب والتاريخ بقدر ليس بالقليل من خطب الصدر الأول والخلفاء والصحابة ، ونأخذ منها « أدب الجهاد » لنتعرف من نماذجها على تلك الآداب والأخلاق التي كان على المجاهدين في سبيل الله أن يأخذوا بها ، ذلك أن أدب الجهاد يكشف عن روح الإسلام وجوانب كثيرة من قيمة الإنسانية ومثله العليا . وتطالعنا هذه الروح ممثلة في الخطابة .

### خطابة أبي بكر الصديق

خطبة أبي بكر في وصيته إلى أسامة بن زيد وجيشه حين سيّره إلى الشام . يقول فيها :

« يا أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عني :
لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً

---

(25) الفلج : الفوز .

(26) البيان والتبيين ج 2 ص 17 .

(27) الحيوان ج 1 ص 335 ولقست النمس : خنث .

كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسكم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله . . . »[28] .

يتوضح من هذه الخطبة كيف لقن أبو بكر المجاهدين آداب الحرب وشرف القتال ، فصور أخلاق المسلمين وهم في سبيل الجهاد ، وحذرهم من كل ما يعيبهم ويشوه سمعتهم الإسلامية النبيلة .

حذرهم من الغدر والخيانة والتمثيل بقتلى الأعداء ، والبعد عن أذى الأطفال والشيوخ والنساء ، وكذلك عدم المس بالنبات والثمرات والأنعام لأن لهذه حرمتها ، فقد جعل الله فيها رزقاً لعباده . ثم يحدثهم عن أدب المصلين واحترام المتعبدين من أهل الكتاب . فالإسلام دين السماحة والرحمة ، فلا ينبغي أن يتعرض المجاهدون لأهل الذمة من اليهود والنصارى في صوامعهم بسوء . ومن آداب الطعام يذكرهم بذكر اسم الله على كل ما يأكلون . وفي الوصية الأخيرة يأمر المجاهدين بضرب المخادعين الذين يدعون الزهد بمظاهرهم الخادعة ويرتدون لباس الدين ليستروا به عيوبهم ، يدعون الدين والدين منهم براء .

جملة من الآداب تشتمل الوصية ، لأن المجاهد المسلم يرفض منطق القوة المبنية على الباطل ويمضي في سلوكه حسبما تقتضيه المثل الإسلامية النبيلة . فالقتال في نظر الإسلام لا تثيره روح العصبية الحمقاء ، وإنما تكتنفه روح التعقل الذي يرعى لكل شيء حرمته فيعرف المجاهد كيف يستعمل سيفه استعمالاً لائقاً به وبكرامته .

### خطابة عمر بن الخطاب

لعل هذه الخطبة أول صيحة لعمر في الحث على الجهاد وهو على أبواب الخلافة . قال للمجاهدين :

« إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين

---

(28) تاريخ الطبري ج 3 ص 226 أما العقد الفريد فيذكر أن هذه الوصية موجهة إلى يزيد بن أبي سفيان ج 1 ص 129 .

الطرّاء المهاجرون عن موعود الله ! سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : « ليظهره على الدين كله » والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولي أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون »[29] .

فساروا في الأرض كما قال عمر واستجابوا له ولما وعدهم الله به في كتابه . وحين اجتمعوا ولى عليهم أبا عبيد بن مسعود ووعظه بالشورى وبالروية فقال :

« اسمع من أصحاب النبي ( ص ) ، وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبيّن ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف »[30] .

## خطابة عثمان بن عفان

يستمر الجهاد في أيام عثمان رضي الله عنه ، ويمضي المجاهدون في سبيل الله وتمتد رقعة الإسلام في الأرجاء . ولكن لم ترد عن عثمان خطابة تشرح آداب الجهاد ، وإن أثرت عنه خطب قصار في جهاد الخارجين عليه في لحظات المحنة إزاء الفتنة الكبرى التي أثارها الثوار وأهل الشقاق في أواخر حكمه . وقد كان أقل قدرة في الخطابة من أبي بكر وعمر ، يروى أنه ارتج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال[31] :

« إنكم في دار قُلْعة وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم ، صبُحتم أو مسّيتم . ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرّنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جدّوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ واضربْ لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ .

وقد جاهد حتى الرمق الأخير من حياته وكانت الثورة عليه ، فلم ينحرف بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى الوحدة وعدم فتق الفرقة وهو بذلك أخذ يعظهم حتى

---

(29) تاريخ الطبري ج 3 ص 444 .

(30) العقد الفريد ج 1 ص 128 والطبري ج 3 ص 445 .

(31) الطبري ج 3 ص 305 والقلعة : أي أنها لا تدوم .

لا تبطرهم الدنيا وأن يؤثروا ما بقي على ما فني فيتخاذلوا ويصبحوا أحزاباً .

## خطابة علي بن أبي طالب

كان علي كرم الله وجهه « خطيباً مفوّهاً لا يشق غباره »[32] ولعل أقوى خطبه تعبيراً عن الجهاد ، خطبته عن الجهاد[33] قال :

« أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجُنّته الوثيقة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء[34] ، وسيم الخسف ، ومُنِعَ النصف[35] الا وإني دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً وقلت لكم : « أغزوهم قبل أن يغزوكم » فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا . فتواكلتم وتخاذلتم حتى شُنت الغارات عليكم ، وملكت عليكم الأوطان . وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكري ، وأزال خيلكم عن مسالحها[36] .

فيا عجباً : « والله ، يميت القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم . فقبحاً لكم وترحاً[37] حين صرتم غرضاً يرمى[38] يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون فإذا أمرتكم بالسير إليهم في الصيف قلتم هذه حمّارة القيظ ، أمهلنا حتى يسبخ[39] عنا الحر . وإذا أمرتكم إليهم في الشتاء قلتم هذه صبّارة القرّ[40] أمهلنا حتى ينسلخ عنا البرد . كل هذا فراراً من الحر والقر . فأنتم والله ، من السيف أفرّ .

يا أشباه الرجال ولا رجال . حلوم الأطفال ، وعقول ربات الحجال[41] وددت لو

---

(32) البيان والتبيين ج 2 ص 52 .

(33) قالها حين أغار سفيان بن عوف الأزدي على الأنبار وعليها حسان البكري فقتله وأزال تلك الخيل عن مسالحها فخرج عندها علي وألقى هذه الخطبة .

(34) الجُنّة : الوقاية . شمله البلاء : عمه المصائب .

(35) النصف : الأنصاف . الخسف : الذل .

(36) أخو غامد : سفيان بن عوف أرسله معاوية لشن غارات على أطراف العراق .

(37) الترح : الحزن .

(38) هدفاً يرمى : هدفاً للهجمات والاعتداء .

(39) حمارة القيظ : أشده . يسبخ : يخف .

(40) صبارة القر : شدة البرد .

(41) حلوم : عقول . ربات الحجال : النساء .

أني لم أركم ولم أعرفكم . معرفة ، والله ، جرّت ندماً ، وأعقبت سدماً[42] . قاتلكم الله ، لقد شحنتم صدري غيظاً ، وأفسدتم علي رأي بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم ! وهل أحد منهم أشد لها مراساً[43] ، وأقدم فيها مقاماً[44] مني ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وها أنا قد ذرفت على الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع » .

ـ سمع علي قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين ، فخطب فيهم وقال : «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين . ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر . ثم قلتم مكان سبكم إياهم : اللهم احقن[45] دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به[46] .

ـ وكان الخوارج يتنادون للاجتماع بقولهم : « لا حكم إلا لله » وهم يبغون إضعاف سلطة الإمام علي ، إذ يعنون أن لا سلطة للإمام علي عليهم لأن السلطة الحقيقية هي لله . لما سمع الإمام علي قولهم هذا قال : كلمة حق يراد بها باطل ! نعم ، إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله . وأنه لا بد للناس من أمير بَرّ أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع بها الكافر ، ويبلّغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بَرٌّ ويستراح من فاجر .

بدأ الإمام علي بتأكيد معنى الجهاد في أدق تعبير يمكن أن يوصف به باعتباره الطريق إلى الجنة ، فكلما جد المجاهد سعيه في الجهاد في سبيل الله أسرع به الطريق إلى الجنة .

ثم يمضي في تصوير الجهاد فلا يصف المجاهدين وما هم عليه من خلق يكون مثالاً للمجاهدين يحتذونه ، وإنما الذي يصوره هنا هو الصورة المعاكسة لذلك تماماً ، صورة الراغبين عن الجهاد ، الراضين بالذل والخسف نتيجة لتخاذلهم وانصرافهم عن نصح قائدهم ، وما أدى إليه ذلك من صور الهزيمة . فقد صور الجهاد من وجهه المسلوب ولهذا

---

(42) السدم : الأسف .

(43) المراس : المعاناة والتمرين .

(44) ذرفت : زادت سني على الستين .

(45) حقن الدم حبسه

(46) أرعوي : رجع . الغي : الضلال . لهج الشيء : أولع به .

يعرج في تصويره لهذه السلبية أيضاً على خصومه الذين دعا للجهاد ضدهم والذين خرجوا في قتالهم على كل المثل الخلقية الإسلامية . فالمرأة المسلمة قد ضاعت هي الأخرى عند الخصوم حرمتها .

وهنا يبرز علي صورة رائعة من قوة الإيمان وشدة الحساسية وعمق الألم والحسرة في قلب المسلم الملتزم بأصول الجهاد الخلقية تلك الأصول التي تخلى القوم عنها ، وتقاعس آخرون عن مواجهة هؤلاء وردهم . ولم يبق غير الأسف ، والتقريع والتأنيب إلى آخر الخطبة ، وعلي بن أبي طالب من أعظم فصحاء العرب ، وأقدرهم خطابة ، يستميل القلوب بقوة أسلوبه ، وجمال معانيه ، وروائع حكمه ، يبرزها بقوة حجته وترابط أفكاره ، وقوة استدلاله . قال الدكتور فروخ : « على أن الذي لا ريب فيه على أن علياً كان خطيباً قديراً ومن مشاهير الخطباء ، تدل على ذلك خطبه المتفرقة في كتب الأدب وخطبه المجموعة في « نهج البلاغة » موجزة ، قصيرة الجمل ، متينة التركيب جامعة لأوجه البلاغة ، واضحة المقاصد تكثر فيها الكلم الجوامع »[47] .

## خطبة عدي بن حاتم

لما قتل عثمان رضي الله عنه ، في 18 ذي الحجة من سنة 35 هـ أي في 656/6/18 م اضطر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى قبول الخلافة وعندها كانت الأحوال مضطربة جداً . سار علي بالحزم والعدل ، لكن عصيان معاوية الذي كان والياً على الشام آنذاك ، والمطالبة بالاقتصاص من قتلة عثمان[48] شغلاه عن تحقيق الكثير من مخططه ، وبتأثير ذلك توقفت الفتوحات وقد تخلف عن البيعة أيضاً عائشة وانضم إليها طلحة والزبير . وسار الثلاثة معاً إلى العراق يحرضون الناس على علي ، ويثيرونهم ضده . ولما علم بذلك توجه إلى البصرة مع أنصاره ، فأقبل عدي بن حاتم ، وطلب إليه أن يأذن له باستدعاء بني طيء قبيلته ، ليكونوا عوناً له . فأذن له عليّ . وحين وصل عدي إلى قومه جمعهم ، وخطب فيهم قائلاً : « يا معشر طيء ! إنكم أمسكتم عن حرب رسول الله ( ص ) في الشرك ، ونصرتم الله ورسوله في الإسلام على الردّة ، وعليّ قادم عليكم ، وقد ضمنت له مثل عدة من معه منكم فخفوا معه[49] . وقد كنتم تقاتلون

---

(47) تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ ج 1 ص 309 .

(48) « المطالبون بدم عثمان هم الذين كانوا قد قتلوه أو حضروا على قتله » راجع تاريخ الأدب العربي د عمر فروخ ج 1 ص 307

(49) خفوا معه : أسرعوا لنصرته .

الجاهلية على الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنت عنكم الوفاء[50] ، وباهيت بكم الناس[51] ، فأجيبوا قولي ، فإنكم أعز العرب داراً لكم فضل معاشكم[52] وخيلكم ، فاجعلوا أفضل المعاش للعيال[53] ، وفضول الخيل للوهاد ، قد أظلكم علي والناس معه من المهاجرين والبدريين ، والأنصار ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فإن هذا سبيل للحي فيه الغنى والسرور ، وللقتيل فيه الحياة والرزق فصاحت طيء : نعم . . . نعم . حتى كاد أن يصم من صياحهم »[54] .

مضمون الخطبة :

اشتملت هذه الخطبة على الأفكار الرئيسية التالية :

ـ أراد عدي ترغيب قومه بالجهاد ودفعهم إلى الوقوف في صف علي بن أبي طالب لأنه هو خليفة المسلمين وصاحب حق . فأثار فيهم النخوة والرجولة وذكرهم بمواقفهم حين نصروا الله ورسوله أيام الردة .

ـ قارن بين موقفين متناقضين تماماً ، موقفهم في الجاهلية حيث كانوا يقاتلون من أجل الدنيا ، وموقفهم الحالي مع علي حيث يقاتلون من أجل الآخرة .

ـ بيّن لهم بكل وضوح أن موقفهم وجهادهم مع علي يحققان لهم الفضيلتين معاً : إحداهما في الدنيا وهي الغنائم والأسلاب مع النصر ، والثانية في الآخرة وهي الخلود والجنة . لذلك حثهم على القتال في سبيل الحق .

ـ ولكي يستجيبوا له ، ولا يتخلفوا عن رأيه ، أثار العزة في نفوسهم فذكرهم بأنهم أعز العرب داراً وأمنعهم جانباً .

ـ والحقيقة أنه كان لخطبته صدى مسموع في نفوس قومه ، وقد أصاب منهم الهدف الذي يبغيه فأقنعهم وأثارهم حتى وافقوا جميعهم وصاحوا صيحة عالية : نعم . . . نعم !

---

(50) ضمنت عنكم الوفاء : تعهدت أن تدخلوا في طاعة علي .

(51) باهيت : فاخرت .

(52) فضل معاشكم : زيادة في المال والخيل .

(53) العيال : من يجب الإنفاق عليهم .

(54) أن يصم : يصاب بالصمم .

تحليل الخطبة :

يعد عدي خطيباً ناجحاً في هذه الخطبة ، لأنه استطاع أن يقنع قومه وأن يثيرهم ، وهذه هي الخطبة الناجحة التي تعتمد على إقناع العقول والتأثير في النفوس . لقد ذكرهم بمفاخرهم الماضية حيث أنهم لم يحاربوا الرسول قبل أن يسلموا ، ثم وقفوا موقفاً محايداً حمد لهم . ولم يسكتوا عن المرتدين ، بل حاربوهم وقضوا عليهم .

وتجاه هذه المواقف النبيلة فإن الله سبحانه وتعالى قد وسع عليهم في المال والخيل . وسيكون لأولادهم فضل المال إذا استشهدوا ، كما ينبغي أن يكون فضل الخيل للجهاد .

ثم بيّن لهم أنهم أعز العرب داراً ، وأمنعهم قوة ، مع وفرة الخيل والمال . واقنعهم بأن موقفهم الجديد مع علي سيضيف إليهم شرفاً آخر فوق ما عندهم ، فهم يحاربون أعداءه لأنه هو على حق وهم على باطل فيكسبون بذلك فضلين واضحين فضل الدنيا وكسب المغانم في الحرب ، وفضل الآخرة وهو للشهيد حياة أبدية خالدة ، وجنة وافرة الثمرات والخيرات .

وكسب آخر لهم وهو أن علياً ليس وحده في المعركة ، بل معه خلق كثير وبخاصة المهاجرين والأنصار وأهل بدر ، وبذلك يكونون قد حققوا مزيداً من الفخر ومزيداً من المجد المشرق في الدنيا والمسعد في الآخرة وهذه الخطبة تعكس بوضوح الحالة السياسية التي كانت سائدة آنذاك ، والإضطراب الحزبي ، والخطيب هنا لم يعتمد على العاطفة الدينية وحدها في الحث على الحرب ، بل أضاف إليها دوافع أخرى هامة في حياتهم ، منها : إثارة العصبية القبلية التي تذكرهم بمفاخر الجاهلية ، والإغراء بالمنافع الدنيوية كالغنائم والأسلاب .

وتكشف الخطبة عن قضايا هامة وهي : القتال في الجاهلية على الدنيا والمكاسب الزائلة ، والقتال في الإسلام على الآخرة الباقية . . وللحي في مسيرة الجهاد نصيب وللشهيد في طريق الجنة النصيب الأكبر ، ثم الإمساك عن الحرب في شرك الجاهلية ، والانتصار للإسلام ولرسوله في الإسلام ، وقد استجابوا له وحقق هدفه .

## صدر الإسلام : عصر الخطابة الذهبي

من خلال هذه النماذج الرفيعة من الخطب في عصر صدر الإسلام يتبين لنا أن أزهى عصور الخطابة كان هذا العصر الذي شاهد مولد الدين الحنيف ، ومشرق النبوة ، ونزول القرآن ، وانتصار الدعوة الإسلامية .

إن حياة الجهاد التي شملت الأمة العربية ، وكثرت الأحداث والفتن ، التي يطول فيها الجدل ويحتدم النزاع ، وتجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله ونكبة عثمان ، وانقسام جماعة المسلمين أيام علي ومعاوية أحزاباً وشيعاً كل ذلك جعل للخطابة دوراً هاماً في الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية ، فكانت أداة المتحاورين ، ووسيلة المتجادلين ، يوضح كل منهم بها مذهبه ، ويدلي بحجته ، ثم جعلها الدين شعار المجتمعات الرسمية . أيام الجُمَع والعيدين ومواسم الحج . كما كانت سلاح القوم عند قدوم الوفود والتقاء الصفوف .

## أنواع الخطب في صدر الإسلام

اعتمد المسلمون في عصر صدر الإسلام ثلاثة أنواع من الخطب وهي :

1 ـ **الخطب الدينية** : وهي التي اعتمدت في الدعوة إلى الإسلام ، وشرح العقيدة ، وتبيين الأحكام ، وفي الوعظ والإرشاد ، كخطب الجُمَع والعيدين ، وموسم الحج ، ورسائل الوفود . ومن هذا النوع كانت أكثر خطب النبي ( ص ) .

2 ـ **الخطب السياسية** : وهي التي اعتمدها الخلفاء والولاة والقواد في شرح المسائل السياسية : كاستحقاق الخلافة وولاية العهد ، وبيان المناهج السياسية كالخطب التي أوردنا نماذج منها من الخلفاء الراشدين ، أبو بكر وعمر وعلي .

3 ـ **الخطب العسكرية** : وهي التي قالها قواد الجيوش والأمراء عند الزحف والتقاء الصفوف عند القتال . فكان لا بد للقائد من إلقاء خطبة يوصي بها الولاة ، ويوضح لهم هدفهم ويعظهم ويرشدهم إلى ما فيه نجاحهم بما كان يلقيه من الحماسة في قلوبهم . كخطب علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد .

وكما نلاحظ أن ميادين الخطابة أخذت تتسع باتساع الفتوحات الإسلامية وهي في كل أنواعها تستمد مادتها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بكل ما فيها من المعاني الرفيعة والأساليب البليغة ذات البهاء والرونق والإشراق .

## خصائص الخطابة في عصر صدر الإسلام

تمتاز أساليب الخطابة في صدر الإسلام بصفات عدة أبرزها :

ـ تفتتح الخطبة بحمد الله تعالى والصلاة على النبي محمد ( ص ) .

ـ تختتم بما يناسب المقام من الدعاء للمخاطبين ، أو السلام عليهم ، أو بتمجيد الله والثناء عليه أو نحو ذلك . .

ـ اقتباس ما يناسب موضوع الخطبة من آيات القرآن الكريم ، أو أحاديث نبوية .

ـ حرص الخطيب على انتقاء الألفاظ الجزلة البعيدة عن خشونة البداوة والمنسجمة مع معانيها فلا إطناب ولا إيجاز وإنما مختصر مفيد ، وإذا وجد بعض الأطناب أو الإيجاز فهذا يعود إلى الخطيب حسب مقتضى المقام من هنا كان القول المأثور لكل مقام مقال .

ـ أسلوب قوي وجميل ، شديد التأثير يصل إلى أعماق القلوب ويمتلك زمام العقل والوجدان ، فيهذب الطباع الخشنة ويلين القلوب القاسية بالحجة والبرهان مدللاً بالآيات المحكمة والأحاديث الصائبة وقصارى القول أن اللغة العربية لم تشهد عصراً حافلاً بكثرة الخطباء ووفرة الخطب مثل هذا العصر ، والخطابة وصلت إلى أرفع درجاتها وأرقى منازلها بتأثير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

## الكتابة في صدر الإسلام

لقد نوه القرآن الكريم بالكتابة والقراءة في أول آية نزلت على الرسول ( ص ) ، فقال عزّ وجلّ : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ ( العلق : 1 ـ 5 ) .

كما نوّه سبحانه وتعالى بالقلم ، أداة الكتابة الأساسي منذ عرفت الكتابة جاء في سورة القلم قوله تعالى : ﴿ **ن . والقلم وما يسطرون** ﴾ ( القلم : 1 ) .

لقد قسم سبحانه بالقلم الذي كانوا يسطرون به في رق وفي كتاب . قال تعالى : ﴿ **والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور** ﴾ ( الطور : 1 ـ 3 ) جاء القسم بالكتاب المسطور في رق . حيث كانت الكتابة في أول عهدها على الرق ، وهي الحجارة المرققة وعلى جلود الحيوان كما ورد أيضاً من أدوات الكتابة في القرآن الكريم : القرطاس ، والصحف ، واللوح ، وترددت الكتابة في كثير من الآيات قال تبارك وتعالى : ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة** ﴾ .

وقوله أيضاً : ﴿ **بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ** ﴾ .

والرسول ( ص ) شدد على نشر الكتابة بين أصحابه ، وتشجيعاً لذلك جعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة تعليم عشرة من صبيان المدينة[55] .

---

(55) الطبقات لابن سعد ج 2 ص 14

ولأن الكتابة عامل هام في تسهيل المعاملات الإجتماعية وعنصر لا بد منه في ترقية الحياة الإنسانية ، حث القرآن على استخدامها في المعاملات يقول عزَّ وجلّ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً . . . ﴾ ( البقرة : 282 ) .

وانطلاقاً من هذه الآية كانت الكتابة هي الوسيلة الوحيدة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فالصحابة كانوا يكتبونه حتى يتحفظوه .

وكان هناك جماعة يكتبون آياته بين يدي الرسول مثل عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأُبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، حتى بلغ عدد كتابه ( ص ) ثلاثة وأربعين كاتباً . كان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ، ويكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير ، كما كان يكتب لهم في قبائلهم عبد الله بن الأرقم ، والعلاء بن عقبة ، الحضرمي . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقب الكاتب[56] .

وفي العهد النبوي كتب القرآن الكريم ، وكتبت رسائل النبي إلى الأقيال والأمراء والملوك ، وكتبت أيضاً عهود الصلح بينه وبين قريش وغيرهم ممن دخل في ذمة المسلمين .

وكان كتابه ( ص ) نوعين : كتاب وحي ، وكتاب أعمال . . . من بين كتاب الأعمال الزبير بن العوام وجهل بن الصلت ، كانا يكتبان الصدقات ، والمغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير كانا يكتبان التداين والمعاملات ، وحذيفة بن اليمان كان يكتب خرص النخل .

يتوضح مما تقدم أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تستخدم على نطاق واسع ، لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهم أمور المسلمين في معاملاتهم وعقودهم .

## نماذج من الكتابة في صدر الإسلام

هذه معاهدة أمر الرسول بكتابتها بينه وبين أهل نجران وفيها يبين ما عليهم من خراج يقول ( ص ) « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على

---

(56) الوزراء والكتاب للجهشياري ص 14 .

أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يغيّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانه وليس عليهم دية ولا دم جاهلية . . ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » .

ومن كتبه أيضاً ( ع ) كتابه إلى هرقل في السنة السابعة من الهجرة . أرسل الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي ، ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله أجرك مرتين . فإن توليت فإنما عليك إثم الاريسيين[57] .

﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً . ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ( آل عمران : 64 ) .

ولما تولى أبو بكر الصديق مقاليد الخلافة ارتد كثير من العرب ، فوجه لهم الجيوش وبعث مع قادتها كتاباً مفتوحاً يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله ، وأن من استجاب وكف وعمل صالحاً قُبل منه ، ومن أبى فلن يعجز الله وقوتل حتى يقر بالحق .

ثم اتبع ذلك بعهد آخر لأمراء الأجناد ضمنه هذه المعاني نفسها وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول .

. . زال يتراسل معهم حتى رئب الصدع وتحول الأجناد مع أمرائهم إلى الفتوح . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر بن الخطاب .

وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برَّ وعدل فذلك علمي به ورأي فيه ، وإن جار وبدّل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون »[58] .

وولي عمر بن الخطاب ، وتمت في عهده فتوح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفتح كان يولي عليها الأمراء والولاة ، ولا بد للخليفة من مراسلتهم وتوجيههم ، سواء

---

(57) الاريسيين : هم العمال والفلاحون لأنهم تبع لسادتهم .

(58) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي لشوقي ضيف ص 227 عن الوثائق السياسية .

فيما يعود لتنظيم الجيوش والتأهيل للحرب ، أو فيما يعود إلى طرق معاملة أهل البلاد المفتوحة وما أثر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري والي البصرة . جاء فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسُنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، فإنه لا ينفع التكلم بحق لا نفاذ له . آس[59] بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرّم حلالاً أو أحل حراماً . ولا يمنعنّك قضاءٌ قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهُديت فيه لرشدك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي بالباطل . الفهمَ الفهمَ عندما يتلجلج في صدرك ، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي ( ص ) إعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينةً أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر ببينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[60] في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالبينات والإيمان ثم إياك والقلق والضجر والتأذّي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق ، التي يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله . والسلام عليك »[61]

هذه الرسالة تعد وثيقة هامة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم من الرفق بالرعية ، ومعاملة الجميع على قدم المساواة ، لا فرق بين كبير أو صغير ، ولا بعيد أو قريب . ثم يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه ، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يفيده في الوصول إلى الحق يجتهد برأيه . ويقول أن الأصل في المسلم أن يكون عدلاً إلا أن تنتفي عدالته فلا تصح شهادته .

ثم يوضح للحاكم موقفه من الخصوم فلا يتأذى بهم ولا يتنكر لهم . والرسالة تعد

---

(59) آس : أي سوّي بين الناس . وحيفك : ظلمك .

(60) ظنيناً : متهماً .

(61) البيان والتبيين ج 2 ص 48 .

دستوراً للحكم سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يعاملوا به من الرفق والعناية .

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان بن عفان يكتبون عهودهم عندما ينتصرون أو عندما يدخل القوم في طاعتهم دون حرب مقتدين بما مضى من عهود في عهد أبي بكر وعمر .

وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته في الحرب والسلم .

وخلف عثمان علي ولكثرة الحروب في عهده احتاج الأمر إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . من أهم ما كتب حينئذٍ وثيقة التحكيم بينه وبين معاوية . والرسالة التي وجهها إلى مالك الأشتر وليه على مصر .

وهذا نص الكتاب الذي أملاه علي بن أبي طالب على مالك الأشتر عامله على مصر . يقول الكتاب :

« ثم اعلم يا مالك ، إني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله على ألسن عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فأملك هواك ، وشح بنفسك عما لا يحل لك فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت أو كرهت . واشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم والتلطف بهم ، ولا تكونن سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ في الدين أو نظير لك في الخلق ! تفرط منهم الزلل[62] ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، وولي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاّك ! وقد استكفاك أمرهم ، وابتلاك بهم ، ولا تنصبنَّ نفسك لحرب الله ، فإنه لا يدلك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته . ولا تندمنَّ على عفو ، ولا تبجحنَّ بعقوبة[63] ولا تسرعنَّ إلى بادرة[64] وجدت منها مندوحة[65] ، ولا تقولنَّ مؤمّر آمر فأطاع ، فإن ذلك إدغال في القلب[66] ، ووهكهة للدين ، وتقرب من

---

(61) تفرط منهم الزلل : يسبق منهم الخطأ .

(62) يجح بالشيء : فرح به .

(63) البادرة : ما ظهر من حدة الغضب .

(65) مندوحة : متسعاً ومخرجاً .

(66) إدغال : إفساد .

الغير ، وإذا حدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة[67] أو مخيلة[68] ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك فإن ذلك يطامن[69] إليك من إطماحك[70] ، ويكف عنك من غربك[71] ، ويفي إليك بما عزب عنك من عقلك » .

فتأمل هذه الأحكام الواردة في هذا النص ، والشمول الذي وضع فيه المتحدة بتشكيل لجنة خاصة ، باسم لجنة حقوق الإنسان وعهد إليها بمهمة دراسة موضوع تدوين حقوق الإنسان عام 1946 م وكانت ثمرة جهودها إعلاناً عالمياً أفردته الجمعية العامة للأمم المتحدة لحقوق الإنسان ، كحق الحياة ، وحق الحرية ، وحق التمليك . . وغير ذلك من الحقوق[72] .

وليس ما ذكرنا من هذا النص لعلي بن أبي طالب هو الوحيد في التشريع الإسلامي ، بل نجد تلك الحقوق يزخر بها الشرع الإسلامي وهي من الأوليات التي يجب على المسلم المؤمن تطبيقها ، وهي قرارات ملزمة يقع كل من تجاوزها تحت طائلة المسؤولية على عكس ما نشاهد ونسمع في عصرنا الحاضر من قرارات وتشريعات تفتقد صفة الإلزام والعقاب وبالتالي هي عديمة الجدوى .

من هذا المنطلق تميز التشريع الإسلامي بتلك الخاصة عن جميع المبادىء الأرضية ، بل والسماوية ، لأنه سوى بين الروح والجسد مساواة دقيقة ، فلاءم كل عصر وساير جميع الحضارات الإنسانية ، ودفع الناس للتنافس على الفضيلة ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

هذا الشعار يحمل للناس عامة شعلة من النور لا تخمد نارها ولا تنطفىء عبر الأجيال والأزمان .

والإسلام ، كما هو واضح من تعاليمه ، ألغى جميع الإمتيازات الشخصية بين

---

(67) الأبهة : الكبرياء والعظمة .

(68) مخيلة : العجب والخيلاء .

(69) طامن : خفض .

(70) الطماح : النشوز .

(71) الغرب : الحدة .

(72) كان ذلك في 10/12/1948 ووقع الإعلان في ثلاثين مادة .

جميع أفراد الأسرة البشرية أياً كانت صفتهم ، واعتبر الخلق جميعاً كأسنان المشط ، وهم قسمان : إما أخ في الدين أو نظير في الخلق .

ـ المساواة بين الحاكم والمحكوم : جميع الناس في التشريع الإسلامي متساوون ، الحاكم والمحكوم ، أمام القضاء ، فلا فرق بين رئيس ومرؤوس ، ولا بين جنس ولون ، أو غني وفقير ، ولا يختلف الحكم بالنسبة للجاني أياً كانت صفته ، كما على الحاكم أن يمنح الناس من صفحه وعفوه فلا يشعر أنه فوقهم أو آمرهم ، لأن الله قد ولاّه عليهم وهو فوق الجميع ، أي فوق الراعي والرعية .

كل ذلك حتى لا يشعر الحاكم من إفساد في قلبه وضعف في دينه وزوال لحكمه . وإذا غرب هذا عن باله فلينظر إلى عظم ملك الله فوقه وقدرته منه على ما لا يقدر عليه من نفسه . عندها لا ريب أنه يخفف من حدته ويفي إليه بما عزب عنه من عقله .

وإذا نظرنا إلى التقنين الوضعي لا نجد من سبيل للمقارنة بينه وبين التشريع الإسلامي ، وإن وجدنا فيه ما يقبله العقل السليم ، فقد اقتبس منه كل ما قاله في الحرية والعدالة والمساواة .

شخصية الحاكم وما يجب أن يكون عليه من العدالة النفسية ، والثقافة الحقوقية حتى يتمكن من إقامة العدل بين المجتمعات البشرية . إنه تقنين يسير مع كل عصر ، ويجب أن يضطلع به أي حاكم .

**المعاني الواردة في النص :**

ـ لا مخرج للحاكم ، لاستظهار الحق ليعمل له ويقف عنده ، من لزوم وقوفه على تطورات التاريخ ، في إقليمه ، وما كان يجري عليه من تشريعات وتقاليد وأعراف ، وذلك ليمكنه من الإفادة منها ، في تيسير أموره وتنفيذ أوامره ، وليستبين من خلالها من تسرب منه الجور فيعمل على منعه ، وما يصلح منها العباد فيرسخه ويشيد عليه .

ـ غاية التشريع الإسلامي : العدالة في التشريع الإسلامي هي الهدف والغاية ، والإسلام أوجب على الحاكم الإسلامي انتهاج سبيلها ، لإيصال كل ذي حق حقه ، دون أي امتيازات عرقية أو اجتماعية . فإيقاف المرء عند حدوده المشروعة ، وإيصاله إلى حقوقه ، من أهم العوامل الرئيسة لبقاء تماسك الهيكل الإجتماعي . لذلك ركز الإمام علي على عامله بأن يملك هواه ويشح بنفسه وأوقفه على أن الإنتصاف للنفس ميزان العدل . ثم أراد من الحاكم أن يحيط عدله بعوامل اللطف والرحمة والمحبة فعليه إذن أن

يقضي على بوادر الزلل التي تملك الإنسان أحياناً فتزل به القدم ويصعب عليه الإنفلات من إسارها . قال رسول الله ( ص ) : « لا يكون المسلم مسلماً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره منها ما يكره منه » ولعمري هذا هو المعنى الدقيق للعدالة النفسية ، وتلك هي القواعد المتينة للعدالة الإجتماعية .

ـ حماية الفرد من عسف الحاكم : « ولا تكونن سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق » وهذا مرتشف من قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ ( الممتحنة : 8 ) .

ـ ما يلفت إليه أن هذا الكتاب يعد من أول الوثائق الدستورية لحماية الفرد والمجتمع وقد دونها الإسلام وأهملتها المجتمعات المعاصرة المسماة بالحضارية ، وعلى الأخص المجتمعات الغربية ، التي وقعت فيها أبشع أنواع الجرائم ضد الجنس البشري إشباعاً للنزوات العنصرية . وبعد حدوث هذه الجرائم قام المجلس الإقتصادي الاجتماعي للأمم والحق يقال أنه منذ عهد عمر وما بعد أصبحت الكتابة جزءاً أساسياً من أعمال الدولة ، فقد رسمت للمسلمين ولأهل الذمة العلاقات السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، وكل ما يتصل بالأنظمة في البلاد المفتوحة .

فالحاجة إلى الكتابة في صدر الإسلام كثيرة نختصرها فيما يلي :

1 ـ احتاج المسلمون إليها أول الأمر لتدوين القرآن وكتابة رسائل الدعوة إلى الإسلام .

2 ـ الحاجة إليها ماسة أيضاً في شؤون الملك والسياسة ، والحروب والسلم ، وكتابة العهود والمصالحات والوصايا والإرشاد .

3 ـ كما دعت الحاجة إليها من أجل تدوين الدواوين وتنظيمها .

لما اتسعت الفتوحات في عهد عمر وكثرت موارد الدولة من الغنائم أصبحت الحاجة ماسة إلى إنشاء الدواوين وذلك لضبط مواردها ومصارفها وتنظيم أعطيات المسلمين .

وقد عهد الخلفاء بأمور الكتابة في الدواوين إلى العرب والموالي المتعربين ، وقد فضلوا أن تبقى كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل البلاد المفتوحة نفسها ، ففي مصر كتبت بالقبطية وفي العراق وفارس بالفارسية ، وفي الشام بالرومية . وبقي الحال على هذا

المنوال حتى تعلم العرب هذا الفن ، فن كتابة الدواوين واتقنوها اتقاناً تاماً ، فتحولت بعد ذلك الكتابة إلى اللغة العربية وذلك في العصر الأموي الذي نأتي في الحديث عنه فيما بعد .

ومن مميزات أسلوب الكتابة في عصر صدر الإسلام :

أ ـ السهولة والوضوح للوصول إلى الغرض المطلوب .

ب ـ بعدها عن التكلف والسجع وخلوها من عبارات التفخيم وتأثرها بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

ج ـ ميلها إلى الإيجاز ، الإيجاز المعبر عن القصد ، الصائب للهدف .

د ـ كانت تستهل : باسمك اللهم ، ثم السلام عليكم غالباً ، أو السلام على من اتبع الهدى إذا كانت موجهة إلى غير المسلمين ثم يثنون بقولهم : « إني أحمد الله وإليه أنيب » .

وقد يبدأ الكاتب غالباً بأما بعد ، ويذكر الغرض الذي يرمي إليه . ويختمها بقوله : والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وواضح من ذلك أن الكتابة قد تطورت تطوراً واسعاً في عصر صدر الإسلام ، وذلك بتعدد موضوعاتها التي لم يكن للقرب عهد بها من قبل ، وبما كانت تحمل من النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيدة . وكان الرسول ( ص ) هو الذي سهل طريقها وتبعه خلفاؤه لبيان حاجات المسلمين وحاجات البلاد المفتوحة .

## الوصايا

وهذا لون آخر من ألوان النثر في صدر الإسلام ، الوصية . وهي خلاصة موجزة عن حياة المرء في شؤونه وشجونه ، وآخر ما يقدمه في حياته أو نهايتها ، بعد أن اختبر الحياة بكل ما فيها من حلو ومر ، وهناء وشقاء وطيب وخبيث فيوصي أبناءه وأهله بالأمور التي يرى فيها مخايل السعادة والرفعة وسواء السبيل .

وقد كانت الوصية في الجاهلية وأقرها الإسلام بعد أن وضع لها شروطاً خاصة وإلزام الموصى له بتنفيذها دون أي تبديل أو تعديل . وقد نزل فيها آيات في القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين ، بالمعروف حقاً على المتقين . فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ﴾ ( البقرة : 180 ـ 181 ) .

وقوله عزَّ وجلّ في سورة النساء : ﴿ . . . من بعد وصية يوصي بها أو دين . . . ﴾ ( النساء : 10 ) .

ومن الوصايا في صدر الإسلام :

## وصية للخليفة عمر بن الخطاب

أوصى للخليفة من بعده فقال :

أوصيك بتقوى الله ، وشدة الحذر منه ، ومخافة مقته ، أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، وتخشى الناس في الله . وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم . ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . فإن ذلك ، بإذن الله ، سلامة لقلبك ، وحط لوزرك وخير في عاقبة أمرك ، حتى تفضي من ذلك إلى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك .

وآمرك أن تشتد في أمر الله ، وفي حدوده ومعاصيه ، على قريب الناس وبعيدهم . ثم لا تأخذك في أحد رأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمة الله . واجعل الناس عندك سواء لا تبالي على من وجب الحق ثم لا تأخذك في الله لومة لائم .

وإياك والأثرة والمحاباة في ما ولاك الله مما أفاء على المؤمنين فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ؟ فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفة عما بسط الله لك ، اقترفت به إيماناً ورضواناً . وإن غلبك الهوى ، اقترفت به سخط الله .

### الأفكار الرئيسية في الوصية

1 ـ يوصي من بعده : بتقوى الله ، لأن التقوى هي الميزان الأساسي في التشريع الإسلامي ، فهي تقي المؤمن من الإنزلاق في محارم الله ، وتحفظه من الوقوع في المآثم .

2 ـ العدل في الرعية : على الحاكم في الإسلام أن يكون عادلاً بين الناس جميعاً لا فرق بين قريب أو بعيد ، أو بين غني أو فقير ، أو مسلم أو غير مسلم . وهو ينفذ حكم الله بين عبيد الله ، ويطبق شريعة كتاب الله على جميع الخلق « يتفرغ لحوائجهم وثغورهم » « ولا يؤثر غنيهم على فقيرهم » لأن ذلك خير له في عاقبة أمره .

3 ـ التشدد في أمر الله وحدوده : لما كان الحكم تنفيذاً لأوامر الله وجب على الحاكم في الإسلام التشدد في المحافظة على حدوده . وحدود الله هي محارمه فلا تجاوز

لها ، ولا التقاعس عن تنفيذها ، بل يجب مراعاتها على أكمل وجه . ذاك من تجاوز حدود الله وقع في المعاصي ، ومن أهملها وقصر دونها يكون جاهلاً أو مهملاً ، وفي الحالتين لا يقبل له عذر أو تبرير .

4 ـ الحزم في تطبيق حكم الله : على الحاكم في الإسلام أن يكون حازماً في تنفيذ الأحكام فلا تأخذه في أحد رأفة . ولا يتراجع أمام عواطف الأقرباء والأصدقاء حتى ولو كان الحكم يجري على أهله . فكل الناس عنده سواء لا يبالي على من وجب الحق ، ولا « تأخذه في الله لومة لائم » .

5 ـ التحذير من الأثرة والمحاباة فيما ولاه الله على المؤمنين : لا فضل لمؤمن على آخر ولا فضل لحاكم على محكوم لأن الله أمر بالمساواة بين عباده والحاكم مسؤول عن رعيته أمام الله فلا يحابي ولا يداري مما أفاء الله على المسلمين ، فالمال مال الله والمساواة بين عباد الله ضرورة حتمية وتكليف شرعي لا بد من مراعاته . فإن اقترف الحاكم لدنياه عدلاً وعفة اقترف به إيماناً ورضواناً ، وإن غلبه الهوى والميل اقترف غضب الله وسخطه وخسر آخرته بدنياه .

يجري عمر بن الخطاب في وصيته هذه بأسلوب فطري يخلو من التصنع والتكلف ، وإن ورد بعض المقابلة في بعض الجمل فقد جاء في محله دون قصد معتمد . فهو أسلوب سهل التعبير ، واضح المعاني ، ليس فيه كلمات غريبة أو حوشية . أصاب الهدف المقصود بكل يسر وإيجاز بعيداً عن التطويل والإطناب .

## وصية معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد

لما حضرت معاوية الوفاة كان ابنه يزيد ، ولي عهده غائباً ، فدعا مسلم بن عقبة المري ، والضحاك بن قيس الفهري ، وقال لهما : أبلغا عني يزيد وقولا له :

يا بني ، إني قد كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد . فانظر أهل الحجاز ، فإنهم أهلك وعترتك[73] ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعهده . وانظر أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً ، فافعل . فإن عزل عامل أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علام أنت عليه منهم ؟

---

(73) عترتك : عشيرتك ، قومك الأقربون .

ثم انظر أهل الشام ، فاجعلهم الشعار[74] دون الدثار[75] ، فإن رابك من عدوك ريب ، فارمهم بهم[76] . فإن أظفرك الله بهم ، فأردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يقيموا في غير بلادهم ، فتأدبوا بغير أدبهم . وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع[77] . وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين بن علي فإنه أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ؛ ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه . فإن خرجت وظفرت به ، فاصفح عنه ، فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وقرابة من محمد ، صلوات الله عليه وسلامه .

وأما ابن أبي بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليست له همة إلا في النساء واللهو وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير . فإن هو وثب عليك ، فظفرت به ، فقطّعه إرباً إرباً ، واحقن دماء قومك ما استطعت .

مضمون الوصية :

تتضمن الوصية الأفكار الرئيسية التالية :

1 ـ اطمئنان يزيد لتسلم الحكم بما مهده له والده معاوية ، وهذا هو الهم الأكبر عنده قبل موته . فهو يعلم في قرارة نفسه أن كثيراً من قريش هم أحق بالخلافة من ابنه يزيد ، لكنه بذكائه ودهائه وألاعيبه مهد ليزيد بتسلم الخلافة قبل موته حيث جعلها وراثة بدل أن كانت شورى بين المسلمين كما أرادها الله في كتابه العزيز . قال تعالى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم . . ﴾ ( الشورى : 38 ) وقال سبحانه أيضاً : ﴿ . . . وشاورهم في الأمر ﴾ ( آل عمران : 159 ) لقد أطاع هواه وحرص على مصالحه الشخصية وخالف كتاب الله وأهمل مصالح المسلمين .

2 ـ يوصيه ليكرم أهل الحجاز لأنهم عترته الأقربون فعليه أن يتعهدهم كما يوصيه بأهل العراق ليستجيب لطلباتهم مهما تعددت وصعبت عليه ، فهو يعلم أنهم لا يستقرون

---

(74) الشعار : الثوب الداخلي الذي يلبس على شعر الجسد .

(75) الدثار : ثوب يلبس فوق الشعار .

(76) فارمهم : الضمير للعدو ويستوي فيه الواحد والجمع .

(77) وقذه : صرعه ، تركه عليلاً .

على رأي ثابت معلوم ، والإستجابة لطلباتهم أهون عليه من سل « مائة ألف سيف » وإشعال نار الحرب . أما أهل الشام فهم أصحابه وأعوانه في الحكم ، لأن الشام كانت مركز ولاية معاوية طيلة عشرين عاماً ، وقد جعلها مركز خلافة مدة عشرين عاماً أخرى ، لذلك هو يأمن أهل الشام ويستعين بهم « فإن رابك من عدوك ريب ، فارمهم بهم » .

3 ـ تخوفه من نفر من قريش : وهو أربعة : الحسين بن علي الذي يعلم أن الحق له في تسلم الخلافة وهو قريب الرسول ورحمه ، فإن خرج على يزيد وظفر به فعليه أن يصفح عنه ولكن يزيد خالف الوصية وأقدم على قتل الإمام الحسين في كربلاء . وعبد الله بن عمر لا خوف منه لأنه مولع بالعبادة ليل نهار ولا شأن له في السياسة .

أما عبد الرحمن بن أبي بكر فليس له هم إلا في النساء ، وهو إمعة يرى أصحابه صنعوا شيئاً فيصنع مثلهم . لكن الذي كان يحذره منه ويخافه هو : عبد الله بن الزبير ، فهو في نظر معاوية « يجثم على صدر يزيد جثوم الأسد ويراوغ مراوغة الثعلب » لذلك يوصيه إن وثب عليه وظفر به يقطعه إرباً إرباً .

4 ـ والوصية الأخيرة لابنه يزيد ، الذي يحرص على حكمه بعد موته ، فهو حقن دماء قومه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، لأنه حصنه الحصين وملجؤه الأمين . هذه هي أهم الأفكار الرئيسية الواردة في الوصية . أما أسلوبها فهو موجز بليغ ليس فيه تكلف يجري فيه صاحبه على السليقة . وإن وجدنا بعض المحسنات اللفظية والتشبيهات والإستعارات فقد وردت في مكانها دون أن تقحم اقتحاماً كقوله « فأجعلهم الشعار دون الدثار » و « يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب » . كما لا نجد فيه إطناباً وتطويلاً فهو مختصر مفيد .

## وصية علي بن أبي طالب لابنه الحسن

تتلمذ الإمام علي بن أبي طالب على يدي الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ( ص ) فكان قمة في البلاغة والفقه والعلم والأدب والحكمة وقال في جميع ألوان النثر : الحكمة والخطابة ، والترسل ، والأدب ، والفقه ، والقضاء ، والوصايا . . منها ما قاله لابنه الحسن في هذه الوصية :

لا تخلفنَّ وراءك شيئاً من الدنيا ، فإنك تخلفه لأحد رجلين : إما رجل عمل فيه

بطاعة الله فسعد بما شقيت به ، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عوناً له على معصيته . وليس أحد هذين حقيقاً أن تؤثره على نفسك .

يا بني احفظ عني أربعاً ، وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن : أغنى الغنى العقل . وأكبر الفقر الحمق . وأوحش الوحشة العُجب[78] . وأكرم الحسب حسن الخلق .

يا بني إياك ومصادقة الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك . وإياك ومصادقة البخيل ، فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه . وإياك ومصادقة الفاجر ، فإنه يبيعك بالتافه . وإياك ومصادقة الكذاب ، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ، ويبعد عليك القريب .

الأفكار الرئيسية الواردة في الوصية :

1 ـ يوصيه بأن هذه الدنيا فانية ولا قيمة لأي شيء فيها بالنسبة للآخرة التي هي خير وأبقى . ثم لماذا جمع المال والمتاع ليخلفه كل منا لأولاده ؟ وهم قسمان : منهم من يعمل بطاعة الله فيسعدون بما نحن شقينا به ومنهم من يعمل بمعصية الله فنكون لهم عوناً على المعاصي والآثام وعلى أي حال فإن الصنفين يجب أن لا نؤثرهما على أنفسنا . وهذه نصيحة واقعية لكل أب في هذه الحياة الغرارة الرخيصة .

2 ـ والوصية الثانية قيمة جداً تفيد كل إنسان في كل زمان ومكان ، وتوطد العلاقات الإجتماعية بين أفراد المجتمع ، وتجعل الإنسان محبوباً . بين معاشريه وأخوانه . فقال : أغنى ما في الوجود : العقل . فهو نور يهدي إلى الحق ، ويسهل اكتساب المعارف ، ويحفظ الإنسان من الزلل والخطأ والشطط ويكسب الفرد منزلة رفيعة ومحترمة بين قومه ، وهو كنز ثمين به تميز الإنسان عن الحيوان الأبكم .

وأكبر الفقر الحمق : ليس الفقير هو الذي يحتاج إلى المال ، بل الفقير هو المحروم من العقل ، الإنسان الأحمق الذي يتحمس لأتفه الأمور ، والطائش الذي لا يتروي في حل مشاكله ولا يتأمل ملياً في تصريف أموره . وهذه بلا ريب هي صفات الجاهل والمتخلف الذي يضع الأمور في غير مكانها ، والحضارة بحد ذاتها لا تحوي العلم فحسب وإنما هي الحلم والأخلاق ، هي ضد النزق والطيش والتهوس والتسرع وما شابه .

قال عمر بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

---

(78) لأن المتكبر الذي يعجب بنفسه يمقته الناس حتى لا يجد له أنيساً .

« وأوحش الوحشة العُجب »

التكبر مرض يصيب الفرد فيتوهم نفسه أنه أفضل الناس فيتيه عليهم ويتجاوز حدوده بينه وبينهم ، لذلك يمقته الناس فيتفرقون من حوله ولا يجد له أنيساً يأنس به ويتعاون معه ؛ فتصبح حياته موحشة باردة خالية من الحياة المرحة .

« وأكرم الحسب حسن الخلق » .

الركيزة الأساسية في الإسلام الأخلاق الحسنة وهي من صفات المؤمنين . ورد عن النبي ( ص ) : « إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » بالأخلاق الحسنة يعلو المرء بين قومه ويصبح محبوباً في مجتمعه وينظر إليه بعين العطف والمحبة فيشكر إن أحسن ، ويسامح إن أخطأ أو زلت به القدم قال ( ص ) :

« إن الخلق الحسن ليميث الخطيئة كما تميث الشمس الجليد » وقد سأل رجل رسول الله عن حسن الخلق ، فتلا قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين** ﴾ ثم قال ( ص ) : « وهو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » وإن أفضل مدح لرسول الله ( ص ) من رب العالمين قوله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ وما أرسل ( ص ) إلا كما قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقد قال أحد الحكماء : سوء الخلق سيئة لا ينفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا يضر معها كثرة السيئات . ثم تابع في وصيته لابنه الحسن :

ليبتعد عن مصادقة الأحمق لأنه بدل أن ينفعه يضره ، والبخيل لأنه يبعد عنه ما هو بأحوج ما يكون إليه . والفاجر فإنه يبيعه بالتافه . وأما الكذاب فعليه أن يبتعد عنه لأنه يقرب عليه البعيد ، ويبعد عنه القريب ، فهو كالسراب مخادع يظهر للعطشان أنه ماء يرويه فيلهث إثره فإذا هو خيال يغويه هذه هي أبرز معاني هذه الوصية القيمة التي كانت صالحة لعصره التي تصلح لكل عصر .

أما عن الأسلوب فهو محكم بليغ فصلت فيه الكلمات على أقدار معانيها ، وصفه الأدباء والبلغاء بأنه « تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق »[79] .

---

(79) راجع تاريخ الأدب العربي د . عمر فروخ والحياة الأدبية في صدر الإسلام د . خفاجي .

وقال في وصية عامة :

أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل[80] لكانت لذلك أهلاً : لا يرجونَّ أحد منكم إلا ربه . ولا يخافنَّ إلا ذنبه . ولا يستحين أحد ، إذا سئل عما لا يعلم ، أن يقول : لا أعلم . ولا يستحين أحد ، إذا لم يعلم الشيء ، أن يتعلمه .

وعليكم بالصبر ، فالصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ولا خير في جسد لا رأس معه ، ولا في إيمان لا صبر معه .

الأفكار الرئيسية في هذه الوصية :

1 ـ عزة النفس

يخاطب الإمام علي جميع المسلمين المؤمنين ويطلب إليهم ألا يرجون إلا الله وحده سبحانه وتعالى ، ولا يرجون سواه من أهل الأرض .

يطلب منهم أن يكونوا أعزاء ، رأسهم عال عن الصغائر ، ونفسهم عزيزة عن الطلب . وقد أرادهم الله أن يكونوا كذلك . قال تعالى : ﴿ . . . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . . . ﴾ ( المنافقون : 8 ) فأي تكريم وأي تفضيل وأي تعزيز أفضل من هذا للمؤمنين ؟ فقد أعطوا أعلى الدرجات وأسماها في المخلوقات ، ومنحوا العزة من رب العالمين العزيز الحكيم . فالمؤمن كما هو عزيز على الله هو عزيز أيضاً على سائر المخلوقات ، لذلك عليه ألا يرجو إلا ربه فقط . لأنه سبحانه وتعالى : ﴿ مالك الملك يعطي الملك من يشاء وينزع من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ﴾ .

فكرامة المؤمن ليست ملكه الشخصي وهو حر التصرف بها ، بل هو مسؤول أمام الله عزَّ وجلَّ عن المحافظة عليها وصونها من المهانة والمذلة .

2 ـ الخوف من الذات الإنسانية

إن المؤمن الذي يخاف ذنبه يبتعد عن الوقوع في أوحال الخطيئة لأنه يريد أن يكسب رضى الله ويتجنب سخطه . جاء في الحديث : من عرف نفسه عرف ربه . ويمكن أن نقول : من خاف نفسه خاف ربه وحاسب نفسه عن كل بادرة تبدو منه تجاه الآخرين . وما من شك أن الذي يحاسب نفسه ، إن أخطأ يتراجع ويتوب إلى الله ، وإن أحسن يتابع ويحمد الله .

---

(80) ضرب آباط الإبل : شد الرحال وحث المسير .

3 ـ قاعدة صحيحة في طلب العلم

الصراحة العلمية ضرورة حتمية ، والعالم المؤمن إذا سئل عن أمر عليه أن يقول الحقيقة فيصرح بكل ما عنده من علوم ومعارف ، فإن علم عليه أن ينشر علومه بين الناس ولا يكتمها في صدره ، وهذا واجب شرعي ، لأنه إن لم يفعل كان أشبه بالجاهل أو بالرجل الغني البخيل الذي يخزن أمواله عن الناس ويمنعهم من الإفادة منها . أما إذا كان لا يعلم فعليه أيضاً أن ينطق بالحق فيقول عند سؤاله هذا الأمر لا أعلمه وسوف أحاول تحصيله من مصادره ، وإن لم يفعل واستحى أمام سائليه وأجاب إجابة مغلوطة فقد أخطأ أيضاً وتحمل مسؤولية إجابته المغلوطة التي يتعلمها الناس خطأ ويلهجون بها وينشرونها بين الناس بالشكل المغلوط . وهذا بلا ريب مرفوض شرعاً . ولا بأس عليه إن صرح بما يعلم وما لا يعلم لأن الإنسان يمضي معظم حياته ولا يستكمل علومه .

4 ـ ثم يوحي بالصبر

« والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد » أي أنه الأساس في الحياة فكما لا يمكن أن يكون الجسد بلا رأس كذلك لا يمكن أن ينجح الإنسان في حياته دون الصبر . ولا خير في جسد لا رأس معه ، كما لا خير في إيمان لا صبر معه .

والصبر صبران صبر على من نكره وصبر على من نحب ، فلعل المكروه يعود عن غيه ويرجع إلى رشده . والصبر على من نحب واجب لأن كل إنسان قد يخطىء وعلى المؤمن أن يسامح من أخطأ نحوه ويقبل عذره .

أما الصبر على من نكره له حدود يجب مراعاتها وعدم التهاون بها ، ذلك أن تحمل أذى الغير مرات عديدة ووقتاً طويلاً يعد إهمالاً للواجب ، أو جبناً وخوفاً من الظالمين . والظلم في الإسلام مرفوض بكل أشكاله وألوانه وكما قالوا : إنما للصبر حدود فلا يجب تجاوزها كما لا يجب التقاعس عنها . تتصف وصايا الإمام علي بخصائص عدة نوجزها :

أ ـ النزعة الدينية : لا تصدر عن عقله فحسب، بل صدرت عن إيمانه الديني ونظرته العامة إلى الحياة والأحياء ، وإلى معنى الإنسان ووجوده على هذه الأرض وفي الحياة للدنيا الزهيدة الفانية .

ب ـ النزعة الداخلية : الفضائل عند الإمام علي لها بعد نفسي وليس لها وجه مادي وشجاعة المرء لا تنحصر في القوى الجسدية ، بل هي في قوة النفس وعفتها وقدرتها في تجاوز الأخطاء ، كما تتمثل أيضاً في الصبر وقوة الاحتمال .

ج ـ النزعة المثالية : يوصي الإمام علي المرء ليكون قادراً على النجاح في الواقع بكل ما فيه من مفاسد وأخطاء ، كما يدعوه إلى أن يرتقي إلى مثال الفضيلة والكمال . لقد صور الإنسان الذي يتمثله في ذهنه المتحرر من عبودية نفسه ومن عبودية الآخرين ، والصريح في أقواله وأعماله ، والصابر على تجاوز محنه بإرادة وعقل وإيمان .

## وصية زياد بن أبيه[81] لعماله

يقول لكل من ولاّه من رجاله :

خذ عهدك ، وسر إلى عملك . واعلم أنك مصروفٌ رأسَ سنتك ، وأنك تصير إلى أربع خلال . فاختر لنفسك : إنا ، إن وجدناك أميناً ضعيفاً ، استبدلنا بك أضعفك ، وسلّمنك من معرتنا[82] أمانتك . وإن وجدناك قوياً ، خائناً ، استهنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرك ، وثقلنا غرمك . وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين . وإن وجدناك أميناً قوياً ، زدنا في عملك ، ورفعنا ذكرك ، وكثرنا مالك ، وأوطأنا عقبك .

الأفكار الرئيسية الواردة في الوصية :

1 ـ ساس البلاد التي تولاها سياسة صارمة ، وكان قوياً شديداً حازماً جريء القلب فصيح اللسان يقرن قوله بفعله ولا يتهاون البتة في إدارته . استتب الأمن في البلاد التي تولاها استتباباً كاملاً . ورد في تاريخ الطبري : « فامن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه فيأخذه » . وقال هو عن نفسه : « لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه »[83] .

نلمح في هذه الوصية ملامح القوة والشدة والحزم فاستعمل فعل الأمر في أول الوصية فقال لعامله « خذ عهدك وسر إلى عملك » فهو يختصر القول ويقتصد في الكلام والوقت فيقول : خذ العهد الذي عهدتك به ولا تتأخر في المسير إلى عملك .

وحتى لا يطمع الوالي ، يبلغه من أول الطريق : إنه مصروف رأس سنته ، وهو

---

(81) هو زياد ابن سمية ، وزياد بن أبيه ، ثم زياد بن أبي سفيان بعد أن استلحقه معاوية عام 665 هـ ، من دهاة العرب المشهورين ، ومن كبار الإداريين في صدر العهد الأموي . المجاني الحديثة ص 311 ج 2

(82) المعرّة : الأذى ، الإساءة . العزم : الشدة .

(83) ولي فارس في عهد علي بن أبي طالب فضبطها ثم استدرجه معاوية إلى حزبه ، فألحقه بنسب أبيه ، وولاه البصرة ، الكوفة . فكان أول من جمع له المصران ، ثم ضم إليه خراسان وسجستان . وعندها قال لمعاوية . إني أرى بحبي فارغة فهل لي بضم ولاية أخرى ؟ !

أمام أربع خلال ، على مفترق طرق أربعة يستطيع أن يختار لنفسه الطريق الذي يريده :

أ ـ فإن وجد عامله أميناً على مصالح الولاية لكنه ضعيف استبدله بغيره ولم يعاقبه حيث شفعت به أمانته .

ب ـ وإن وجده قوياً ولكنه خائن الأمانة التي أوكل بها ، استهان بقوته ، لأن قوة السلطة أقوى وأشد تستطيع تأديبه ، كما تستطيع أن توجع ظهره وتنتقم منه شر نقمة .

ج ـ وإن حاول جمع الناس من حوله ليقوم بانقلاب ضد الدولة ، فهي له بالمرصاد ، وسوف يفشل لا محالة . لأنه مراقب مراقبة دقيقة والدولة له بالمرصاد .

د ـ وإن كان أميناً قوياً ، زادت له الدولة في عمله ، ورفعت له ذكره ، وزادت له المال له ولأولاده من بعده . فالمطلوب من العامل الأمانة والقوة .

يعتمد زياد في وصاياه أسلوب الترهيب والترغيب أو الوعد والوعيد ، فهو قوي مع الأقوياء ، وحازم عندما يلزم الحزم ، ويده طويلة تستطيع أن تنال من العامل مهما كان قوياً . لكنه متسامح إلى أبعد الحدود مع العمال الأقوياء الأمناء ، الذين يخدمون الدولة بصدق وأمانة ويقومون بواجبهم على أكمل وجه ، فيسوسون الرعية سياسة عادلة ، ويسلكون طريقاً سلياً واضحاً لا عوج فيه فيما يعود لمصالح الخلافة .

2 ـ التأكيد على صدق الوعيد

لقد أراد زياد أن يحيط جميع العمال بكل ما يجعلهم يرهبونه ويتأثرون بقوله . ولما خشي أن يكون تهديده ليس إلا وسيلة للإرهاب حسبما يتوهمون أعطاهم الجواب مباشرة « إن وجدناك أميناً خائناً ، أو أميناً ضعيفاً ، أو يجمع الناس من حولهم ويتزعمهم ضد الوالي ، أعطاه العلاج المناسب في وقته ، فليعرف كل عامل عما هو إليه قادم ، وليحذر نتائج فعله .

ويبدو هنا في هذه الوصية وفي هذا المقطع ، شديدة التماسك ، يتبع اللاحق منها بالسابق وذلك لأن الكاتب هنا لا يورد أفكاراً حكمية ، بل هو يعالج قضية معينة فيتصدى إلى جميع منافذها ويسدها واحداً واحداً .

الهدوء بعد العاصفة :

عرف زياد بحنكته السياسية ، فأدرك أن التعسف والتهديد قد يدفع بالولاة إلى التمادي بالعصيان ، لذلك رأيناه يميل إلى اللين ويتنكب عن الأفكار القاضية ، فبعد أن عرض الأبواب المسدودة والصعبة ، عاد فجعل أمام عماله مخرجاً لهم فقال : « وإن

وجدناك أميناً قوياً ، زدنا في عملك ، ورفعنا ذكرك ، وكثرنا مالك ، ووطأنا عقبك » .

فهو يحاول أن يطعمه ويغريه بالمال والجاه لذلك نرى روح الوصية قد تبدلت ، وطبيعة الأفكار مالت إلى الهدوء والإطمئنان ، وأصبحت أكثر تقيداً بالعدل . فهو لا يعتمد في عقابه وثوابه على النزعات الخاصة والميول الشخصية ، بل يأخذ بعين الاعتبار حسن التصرف ، والأخذ بمبادىء العدالة فكل يد بما كسبت رهينة . فمن كان أميناً وقوياً زاد له في ماله ورفعه وقدره ؛ ومن كان ضعيفاً وخائناً أثقل ظهره ونال جزاءه .

فبعد الوعيد والتهديد جاء السكون المفاجىء الذي يعقب العاصفة المدوية . وبعد أن كان يتوعد العمال ونراه يعود إلى الوعد الطيب والأمل السعيد ، والمخرج الطبيعي الهادىء لكل من أراد السكون والحياة السعيدة المنسجمة مع سياسة الدولة ومصالح الولاية .

وقد درج على هذا الأسلوب في جميع وصاياه ، الشدة ، والحزم ، والعدالة !! قال في وصية عامة :

استوصوا بثلاثة منكم : الشريف ، والعالم ، والشيخ . فوالله ، لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته .

ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به .

ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه .

فما يريدون منه بعد هذا ؟ هو يقدر الشريف والعالم ، والشيخ وينكل وينتقم ويوجع الشاب ، والجاهل ، والوضيع الذين يستخفون بهذه الفئة الكريمة والمحترمة في المجتمع .

وبهذا التصرف الذكي ، وبهذه الحنكة البارعة ، وهذه السياسة الحكيمة التي تعتمد الوعد والوعيد ، والشدة في موضعها ، والعنف عند لزومه استطاع زياد أن يكون الحاكم الناجح القادر الذي حقق سمعة عالية ، وفريدة في عصره .

# الفصل السادس

# شعراء صدر الاسلام

## حسان بن ثابت[1]

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن عدي من بني مالك ابن النجار ، من سادة قومه وأشرافهم ، وبنو النجار أخوال رسول الله ، لأن أم جده عبد المطلب منهم . وبنو النجار من الخزرج وهي القبيلة الكبيرة التي أقامت في المدينة مع الأوس . وأم حسان « الفريعة » بنت خالد بن حبيش خزرجية مثل أبيه ، وقد أدركت الإسلام ودخلت في دين الله ولد حسان ونشأ في يثرب « المدينة » نحو عام 60 هـ ، وكانت المدينة في العصر الجاهلي مجتمعاً صغيراً تسوده الحروب الدامية التي كانت تقوم بين الأوس والخزرج ، وبينهم وبين اليهود الذين كانوا قد استوطنوا المدينة .

وكان جده كريماً محباً للسلم ، لما اختلف الأوس والخزرج بعد يوم سُمَيْحة[2] في أمر القتل والديات ، أهدر المنذر ديات قومه الخزرج واحتمل ديات القتل من الأوس من ماله الخاص حرصاً على السلم .

نشأ شاعراً يتكسب بالشعر ويتنقل بين بلاط جلّق « دمشق » وبلاط الحيرة ، وكان إلى الغساسنة أميل وقد مدح أولاد الحارث الأعرج من آل جفنة الغساسنة وأحفاده من بعده ، واستمر الغساسنة في وصل حسان بالجوائز حتى بعد أن دخل في الإسلام وانتهى من مدحهم .

---

(1) راجع ترجمته في ابن سلام ص 179 والشعر والشعراء ج 1 ص 264 وتاريخ دمشق لابن عساكر ج 4 ص 125 والإصابة ج 2 ص 8 .

(2) بئر قرب المدينة .

بالإضافة إلى كونه شاعر قبيلة الخزرج يرد على قيس بن الخطيم شاعر الأوس . ولما أسلمت القبيلتان وهاجر الرسول المدينة ، ألّف بين قلوبهم وجمع شتاتهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخواناً . عند ذلك دخل حسان في الإسلام وانقطع إلى الرسول يمدحه ويرد عنه هجاء المشركين من أمثال عبد الله بن الزِبَعْري وعمرو بن العاص وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، غير أنه لم يشهد الغزوات مع الرسول لأنه كان جباناً .

يروى أنه لما اشتد هجاء المشركين للرسول ( ص ) ندب الأنصار ، فقال حسان : أنا لها ، وأخذ حسان وكعب يعارضان المشركين بمثل قولهم من الوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب . وكان رسول الله يحثه على ذلك ويدعو له بمثل « اللهم أيده بروح القدس » تصدى لهجاء قريش وذكر مثالبها ، فكان قوله « أشد من وقع الحسام في غبش الظلام » ولأجل أن يكون لهجائه مضاضة في نفوس قريش أتى أبا بكر فاعلمه أنساب قريش وجعل يدله على عوراتهم . فجعل يتعرض لأعراضهم بعيداً عما يمس رسول الله .

وهكذا عاش حسان في الإسلام شاعر الرسول والرسالة ، أما في عهد خلافة الراشدين ، وخاصة في عهد أبي بكر وعمر ، لم يلحظ له نشاط سياسي ، ولما كان عهد عثمان عادت له العصبية الجاهلية في بعض الأحيان وأصبح عثمانياً يمالىء بني أمية على عليّ . ولما قتل عثمان أخذ حسان يشير إلى بني هاشم عامة وإلى علي خاصة . قال :

يا ليت شعري ، ولست الطيرَ تخبرني ... ما كان شأن علي وابن عفانا
لتسمعنّ وشيكاً في ديارهم ... الله أكبر ، يا ثارات عثمانا

وكذلك كان حسان خصماً لعائشة زوج الرسول ، ويذهب بعض الرواة إلى أنه كان ممن خاض في حديث الإفك سنة 5 هـ منذ أيام الرسول ( ص ) ولكنه عاد فاعتذر إلى عائشة بأبيات منها :

حَصانٌ رزانٌ ما تُزنّ بريبةٍ ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[3]
فإن كان ما قد قيل عني قلته ... فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

كان حسان من فحول الشعراء ، كثير الشعر جيده ، وهو أشعر أهل المدر[4] . غير أنه في الجاهلية أشعر منه في الإسلام . وقد علل الأصمعي هذا السبب فقال :

---

(3) حصان : عفيفة . رزان : وقور رصينة . ما تزن بريبة : لا يتطرق الشك إلى سلوكها . غرثى : دقيقة الخصر . لحوم الغوافل : لا تغتاب أحداً .

(4) أهل المدر : أهل المدن وأهل الوبر : أهل البادية .

« الشعر نَكِدٌ ، بابه الشر فإذا دخل في الخير ضعف . هذا حسان بن ثابت فحل فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره »[5] .

وشاعرية حسان كانت مضرب المثل ولا غرو فظروف حياته ساهمت إلى حد كبير في إذكاء شاعريته .

ـ فقد ورث الشعر من قومه فأبوه شاعر وجده شاعر وآله من أعرق بيوت العرب في قول الشعر . وابنه عبد الرحمن كان شاعراً وحفيده سعيد عبد الرحمن هو شاعر أيضاً . ولكن كان هو أشعر أهل بيته .

ـ فخره بقومه . كان كل شاعر يفتخر بأمجاد عشيرته وهذا بلا ريب سبب وجيه في إثارة الشاعرية وإذكائها .

ـ الحروب وما نتج عنها من هجاء متبادل ومديح وفخر ، فالمناقضات بينهُ وبين شاعر الأوس قيس بن الخطيم التي خاضها حسان في الجاهلية كانت سبباً مباشراً في بعث شاعريته .

التكسب وطمعه في المال جعلاه يعتني بقول الشعر وذلك أن له خصوماً ومنافسين يترقبونه . ولاميته المشهورة في مدح جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغسانيين فضلها جبلة على شعر النابغة . ثم جاء الإسلام وأسلم حسان وأخذ يخوض معارك الشعر في الدفاع عن الرسول والرسالة ، بكل ما عنده من ذخيرة شعرية وهذا بلا شك أكسبه منزلة عالية ، وشاعرية خصبة .

حسان يعد من المعمرين ، عاش ما يزيد عن المئة عام وقالوا أدرك العشرين بعد المائة قضى نصف عمره منها في الجاهلية والنصف الثاني في الإسلام . فانقسم شعره : جاهلي ـ إسلامي . شعر حسان في الجاهلية قوي جزل رائع ، من شعر الفحولة ، بعيد في مذهبه وعموده ، شأنه شأن الشعراء الجاهليين . قال عنه ابن سلام « حسان فحل من فحول الشعراء » .

أغراضه الشعرية

أكثر أغراضه في الجاهلية تتركز في الأبواب التالية :

ـ الفخر : وصف فيه مجد قومه ومآثرهم الحسنة ومكانتهم الرفيعة بين العرب

---

(5) الموشح المرزباني ص 62 .

وأحسابهم المعروفة ، وكلنا يعلم ما كان للحسب من دور في الجاهلية .

ـ المدح : أكثر مدحه كان تكسبياً مدح بني غسان بن المنذر وسواهم ممن كان يظن فيهم الأيادي السمحاء المعطاء .

ـ الهجاء : أول شعره الهجائي كان في مناقضة لقيس بن الخصيم ، شاعر الأوس ، ثم هجا خصومه وخصوم قبيلته عامة .

ـ الغزل : ولا ننسى حسان شاعر الغزل الرقيق الذي ترشح كلماته حباً وتنضح عاطفة ، وعاطفة المحبين لا تخبو . تغزل بشعثاء وعميرة وبغيرهن من الحبيبات الكثيرات .

شعر حسان في الجاهلية من أجود شعر أهل المدر وهذا ما أجمعت عليه العرب . وأهل المدر هم : أهل المدينة ، ومكة ، والطائف ، وأهل قرى البحرين من عبد القيس ، وكان أجزل شعره ما قاله في شبيبته وكهولته في الجاهلية .

وأما شعره في الإسلام : فيقول بعض النقاد فيه أنه ضعف ولان عما كان عليه في الجاهلية ، ويقول البعض الآخر ومن لهم بصر بالشعر أن شعره في الإسلام لا يزال كعهده في زمن الشباب قوياً حصيفاً رصيفاً في مواضع خاصة ، في هجائه للمشركين بمعارضة شعرهم وفي فخره وحماسته .

كما يرون أيضاً أن كثيراً مما وجد من شعره ضعيفاً ليناً هو شعر موضوع ولم تكن نسبته إليه صحيحة ، وإنما وضعه المتكثرون من رواة المغازي والسير . قال الأصمعي : « حسان أحد فحول الشعراء » فرد أبو حاتم : « تأتي له أشعار لينة » فقال الأصمعي : « تنسب له أشياء لا تصح عنه » .

ومن هذا الباب أشعاره المملوءة غيظاً على قتلة عثمان ، فإن كثيراً منها وضعه الأمويون ليظهروا للناس أن شاعر الرسول نفسه كان في صفهم وإلى جانبهم ، وليغسلوا عنهم عار الأشعار التي نظمها حسان في هجاء أسرتهم حين كان أبو سفيان وغيره من رؤوسها يقودون الجيوش ضد الرسول ويحاربون ضد الرسالة الإسلامية . ومثلها ما يضاف إليه من أشعار في مديح الزبير بن العوام وعبد الله بن العباس[6] .

وقد علل النقاد عن سبب ليونة شعره الإسلامي فقالوا : إنه يعود إلى انبهاره بما

---

(6) راجع البيان والتبيين ج 1 ص 330 والديوان ص 74 .

جاء في القرآن الكريم ، وبما نطق به الرسول الأمين من خطب ومواعظ وأحاديث ورسائل في مثل هذه الأغراض ومن المسلم به أن يرى نفسه ضعيفاً أمام المعجزات .

ومنها أن كثيراً من شعره الإسلامي قاله ارتجالاً عند حدوث الوقائع الداعية إليه ولم يفعل كما فعل النابغة وغيره من عبيد الشعر وقد روي عن حسان نفسه عندما سئل عن لين شعره قالوا : « لان شعرك أو هرم في الإسلام يا أبا الحسام ، فأجاب : « إن الإسلام يحجز عن الكذب والشعر يزينه الكذب »[7] .

وعلل الأصمعي ظاهرة لين شعر حسان في الإسلام فقال : بأن الشعر نكد يقوى في الشر ويضعف في الخير وهو يرمي إلى الهجاء ونوجز القول إن شعر حسان في مناقضة شعراء المشركين والرد عليهم والدفاع عن الرسول والرسالة كان قوياً جزلاً رائعاً وهو كشعره في زمن الشباب حصيفاً رصيناً ، وكذلك كان فخره وحماسته لهما من القوة كشعره في الجاهلية . ولما استسلم المشركون ودخلوا في الإسلام ، وسكت صوت المعارضة سكتت شاعرية حسان ، وأخذ ينظم شعره هادئاً ليناً لا قوة له ولا فخامة فيه كما كان شعره في الجاهلية .

وأغراض شعره في صدر الإسلام :

ـ الهجاء : هجا فيه المشركين مدافعاً عن الإسلام وعن النبي ( ص ) وقد أجاد فيه إجادة واضحة .

ـ المدح : مدح الرسول ( ص ) وخلفاءه وكبار الصحابة الذين أبلوا بلاء حسناً في سبيل الدعوة الإسلامية .

ـ الرثاء : أكثر منه في رثاء الرسول ( ص ) وشهداء الغزوات الإسلامية .

ـ وصف الغزوات الإسلامية والإشادة ببطولة المسلمين الشجعان الذين ضحوا بأنفسهم من أجل الدفاع عن الدين الحنيف .

ـ الحكمة : قال الحكمة متأثراً بالقرآن الكريم وأسلوب رسول الله ( ص ) البليغ ، ومن خلال تجاربه في الحياة الطويلة ، معتمداً في ذلك على ضرب الأمثال المعبرة تعبيراً حياً عن واقع الحياة .

---

(7) الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام لعبد المنعم خفاجي .

## أسلوبه الشعري

يتصف أسلوب حسان في شعره بميزات خاصة نذكر أهمها :

ـ التأثر الواضح بالقرآن الكريم والدين الحنيف ، وبالحديث النبوي الشريف وذلك بعد دخوله في الإسلام .

ـ كثرة الألفاظ الإسلامية في شعره في فترة دخوله في الإسلام .

ـ عدم تجويده وتنقيحه لشعره ، لم يهذب شعره كما كان عليه المصنّفين كالنابغة والأعشى والحطيئة وزهير وسواهم من الشعراء الذين سموا « عبيد الشعر » لكثرة عنايتهم وتجويدهم وتنقيحهم لشعرهم .

ـ ذلك اللين الفني الذي ظهر في شعره بعد ظهور الإسلام له مظاهره وأسبابه .

وهكذا كما نرى يختلف شعر حسان وأسلوبه في شعره عن أسلوب معاصريه في الجاهلية والإسلام بقلة مبالغته في تجويده وتنقيحه ، وعدم تكلفه ، بل كان يرسل الشعر ارتجالاً كما تجود به القريحة ، فيكون منه الجيد الصافي ، والضعيف البادي التقصير . من هنا نعرف سبب قلة اطراد الغريب في شعره ، فنجد لفظاً غريباً بجانب ألفاظ كثيرة سهلة لينة ، ولعل السبب في ذلك تغير البيئة لسكناه المدن ومحادثاته مع أهل الصناعة والتجارة والزراعة . ولهذا قال :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا  بل لا يوافق شعرهم شعري

## معانيه الشعرية

كانت معاني شعر حسان في الجاهلية تماثل شعر غيره من ذلك العصر وله معان رائعة قوية في مدح الملوك والأمراء ، وقد أحسن السلوك إلى دورهم ونال الفاضل من عطاياهم . كما له وصف في الخمر يعتبر من الشعر الجيد لما فيه من المعاني المبتكرة .

أما شعره في الإسلام فأكثره مستمد من معاني القرآن كالآيات التي نزلت في غزوة بدر وأحد والخندق ، والرد على المشركين وقد استفاد كثيراً من إرشاد القرآن وضرب الأمثلة في الوعظ والحكمة ، فاقتبس الكثير من ذلك .

والخلاصة أن شعر حسان مظهر من مظاهر تأثير الإسلام والقرآن في الأدب العربي . ويكاد هذا التأثير يفقد عند غيره من الشعراء كالحطيئة مثلاً مع أنه من المخضرمين . وذلك لأن الحطيئة أسلم ثم ارتد ، ثم عاد إلى الإسلام على طمع ورقة دين ، فلم تتملك روحه بنعم الإسلام كما هي الحال عند حسان .

ولحسان الكثير من المعاني الرائعة التي قلده فيها الشعراء ، وقد استجادها النقاد واعتبروها من المعاني الجيدة المبتكرة . من ذلك قوله :

يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم  لا يسألون عن السواد المقبل

وقد اقتبس هذا المعنى الشعراء من بعده .

وقال أيضاً في الوصف تظهر فيه الرقة والدقة معاً :

لو يَدبُّ الحولِيُّ من ولد الذرِّ  عليها لا ندبتْها الكلوم

وهذه المبالغة جيدة إذ جعل الشاعر دبيب النمل على ظاهر الجلد ، فكان من المقبول أن يحصل هذا التأثير .

أما قول امرىء القيس في هذا المعنى :

من القاصرات الطرف لو دب فحول  من الذر فوق الإتب منها لأثرا

نرى فيه مبالغة شديدة حيث جعل النملة تؤثر في جسدها حين تمر عليه من فوق القميص .

وهذا المعنى نجده أيضاً في قول أحمد شوقي يقول :

خطرات النسيم تجرح خديـ  ـه ولمس الحرير يدمي بنانه

ومن الأقوال التي اقتبسها الشعراء عن حسان ، قوله في مدح النبي ( ص ) :

ما إن مدحت محمداً بمقالتي  لكن مدحت مقالتي بمحمد

وهو كما لا يخفى معنى رائع بأسلوب رفيع .

أخذ المعنى أبو تمام فصاغه بألفاظ جديدة وقال :

ولم أمدحك تفخيماً لشعري  ولكني مدحت بك المديحا

ولقد أخذ المعنى نفسه أبو الطيب المتنبي فقال :

الطيب أنت إذا أصابك طيبه  والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

يبدو واضحاً أن حساناً قد سبق كل الشعراء إلى هذا المعنى ولم يأت بعده من زاد فيه ، وقد حاز الفضيلة لأنه قد تيسر له من غير تكلف ذلك المعنى البديعي المسمى بالعكس فأبو تمام لم يوفق إلى المعنى تماماً إذ جعل كلمة المديح بدل الشعر .

أما المتنبي ففي بيته هذا خلل في النظم لا يفهم منه المعنى إلا بكد الذهن والحقيقة أن حسان بن ثابت شاعر محلق في كل جوانب الشعر عظيم في شاعريته ، وعظيم في موقفه النبيل في الدفاع عن الإسلام وعن رسول الإسلام .

## المختار من شعره

كان حسان شاعر الخزرج والمدينة في الجاهلية ، وكان يمدح المناذرة والغساسنة ولكنه كان إلى هؤلاء أميل . حظي بجوائزهم وصلاتهم وغرر مدحه كانت في آل جفنة من ملوك غسان . وفد على عمرو بن الحارث من ملوك غسان ، فوجد عنده النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة ، فقال له عمرو : إني باعث إليك بصلة سنية ، ولا أحتاج إلى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السبعين أن يفضحاك ، فقال حسان : لا بد من القول، واستأذن في الإنشاد الشاعرين وأنشد :

المقدمة التقليدية ـ دار الأحباب

أسألت رسم الدار أم لم تسأل ... بين الجوابي فالبُضَيْع فحومل[1]
فالمرج مرج الصفّرين فجاسم ... فديار سلمى دُرَّساً لم تحلل[2]
دِمَنٌ تعاقبها الرياح دوارس ... والمدجنات من السماك الأعزل[3]
دار القوم قد أراهم مرة ... فوق الأعزة عزهم لم ينقل[4]

مدح آل غسان :

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول[5]
يمشون في الحلل المضاعف نسجها ... مشي الجمال إلى الجمال البزّل[6]
الضاربون الكبش يبرق بَيضُه ... ضرباً يطيح له بنان المفصل[7]
والخالطون فقيرهم وغنيهم ... والمنعمون على الضعيف المرمل[8]
وُلاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل[9]

---

(1) الجوابي والبضيع وحومل السماء أماكن .

(2) مرج الصفرين وجاسم : موضعان بالشام . درساً : جمع دراسة وهي البالية .

(3) الدمن : رسم الدار . المدجنات : السحب الكثيرة الأمطار والسماك : أحد السماكين في السماء . سماك أعزل ، وسماك رامح وهما نجمان نيران ممطران .

(4) لم ينقل : لم يزل ولم يتحول .

(5 و6) لله در : لله عملهم وأصل الدر : النفس . نادمتهم : جالستهم على الشراب وجلق دمشق . والخلل الدروع . البزل : جمع بازل وهو ما برزت نابه من الإبل .

(7) الكبش سيد القوم وقائدهم . البيضة : الخوذة تلبس على الرأس .

(8) المرمل : الذي فني زاده والتصق بالرمل .

(9) جفنة : أبو الملوك من بني غسان . مارية : هي بنت الأرقم أم الحارث الأعرج من ملوك غسان يمدحهم بالشجاعة والكرم .

يسقون من ورد البريص عليهم ... بردى يصفق بالرحيق السلسل[10]
يُغشَوْن حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل[11]
بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

مشيب ... وقوة

فلبثت أزماناً طويلاً فيهم ... ثم ادّركتُ كأنني لم افعل[12]
ولقد يراني مُوعِدِيٌّ كأنني ... في قصر دومة أو سواء الهيكل[13]

وصف الخمر

ولقد شربت الخمر في حانوتها ... صهباء صافية كطعم الفلفل[14]
يسعى عليّ بكأسها متنطف ... فيعلني منها ، ولو لم أنهل[15]
إن التي ناولتني فرددتها ... قُتلتْ ـ قُتلتْ ـ فهاتها لم تقتل[16]
كلتاهما جلَبُ العصير ، فعاطني ... بزجاجة أرخاهما للمفصل[17]
بزجاجة رقصت بما في قعرها ... رقصَ القلوص براكب مستعجل[18]

فخر واعتزاز

نسبي أصيل في الكرام ومذودي ... تكوي مواسمه جنوب المصطلي[19]
ولقد تقلدنا العشيرة أمرها ... ونسود يوم النائبات ونعتلي[20]
ويسود سيدنا حجاجحَ سادةٍ ... ويصيب قائلنا سواء المفصل[21]

---

(10) البريص : موضع بدمشق ، وبردى : نهر دمشق . يصفق بالرحيق : ينقله من إناء إلى إناء ليصفو . الرحيق : الخمر . حول قبر أبيهم : كناية عن الاستقرار .

(11) يغشون : يأتيهم الضيوف بكثرة . تهر : تنبح . السواد المقبل : موالدهم تكفي الضيوف مهما كان عددهم .

(12) طويلاً : صفة لمفعول مطلق أي لبثت لبثاً طويلاً . أدركت : امتنعت عن اللهو الطعام : نبت يبيض ورقه إذا يبس .

(13) أوعده : أنذره بالشر . قصر دومة : حصن . والهيكل : بيت لعبادة النصارى .

(14) الحانوت : دكان الخمار . صهباء : بيضاء اللون لاتخاذها من عنب أبيض .

(15) المتنطف : لابس القرط ، وأعله : سقاه ثانية ولو لم أكن ظمآناً .

(16) قتل الشراب : مزجه بالماء . وقتلت : يدعو عليها بالقتل .

(17) كلتاهما : الصرف والممزوجة . عاطني : ناولني . المفصل : مفاصله من الإعطاء .

(18) رقصت الكأس بما في قعرها : صعدت الفقاقيع من أسفل إلى أعلى . القلوص : الناقة .

(19) المذود : اللسان . مواسم جمع ميسم وهو آلة يكوى بها . المصطلي : المستدفىء .

(20 و21) النائبات : الشدائد . والحجحاج : سادة في المكارم . سواء : وسط .

ونحاول الأمر المهم خطابةً فيهم ونفصل كل امر معضل[22]
وتزور أبواب الملوك ركابنا ومتى نحكم في البرية نعدل[23]

أسلوب القصيدة :

إذا تأملنا أسلوب القصيدة ألفيناه جزل اللفظ رصين العبارة ، قوي التركيب ، يجنح إلى الإيجاز ويقل فيه المجاز ، وقد يأتي فيه باستعارة رائعة ، وإشارة بديعة ، وكناية دقيقة . وهذه بعض الأمثلة : « شم الأنوف » كناية عن سيادتهم وعلو مكانتهم .

« أولاد جفنة حول قبر أبيهم » كناية عن استقرارهم فلا يبرحون إلى أمكنة أخرى للتفتيش كغيرهم عن الماء والكلأ .

« ومذودي تكوي مواسمه جنوب المصطلى » استعارة رائعة تجعل من لسانه أحياناً مادة لاذعة وكأنها مكواة تكوي من تصيبه .

ملامح البيئة :

عاش حسان ما يقارب المائة والعشرين عاماً قضى منها ستين عاماً في الجاهلية ، وباقي حياته في الإسلام ، فهو كما عرف عنه شاعر مخضرم . قال الشعر في الجاهلية بكل ما شاء له اللسان ، وكل ما يرضي لنفسه العنان ، على هواه ينشد ما يروق له من الألحان ، فكان شعره في الجاهلية أقوى منه في الإسلام ، والقصيدة هذه تعد من درر قصائده استهلها بذكر الديار على الطريقة التقليدية ، ثم ذكر الدروع والمطايا والخمر ومستلزماتها ، والأحساب والأنساب والاصطلاء بالنار على عادة الشعراء الجاهليين .

افتخر حسان بالسيادة والقوة والجاه والوفادة على الملوك والأقيال من العظماء وهذا منهج جاهلي جرى عليه الجاهليون .

في القصيدة جنوح إلى الإيجاز وزهد في ألوان الخيال والمجاز ، وألفاظ تتردد بين الوضوح والغرابة . وهذا الأسلوب غير المنسجم مع نفسه والمتقلقل هو أسلوب جاهلي أيضاً .

## المختار من شعره في الإسلام

يوم فتح مكة المكرمة سنة 8 هـ قال حسان في ذلك اليوم العظيم يمدح الرسول ( ص ) ويهجو أبا سفيان بن الحارث :

---

(22) المهم : المشكل .

(23) الركاب : الإبل ، البرية : الخلق .

عَفَتْ ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراءَ منزلها خلاءُ
إذا ما الأشْربات ذكرتَ يوماً ... فهنّ لطيّب الراح الفداء
نولّيها الملامة ما ألمْنا ... إذا ما كان مَغْثٌ أو لحاء[1]
ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأسداً ما ينهنهها اللقاء[2]
عدمنا خَيْلَنا إن لم تَرَوْها ... تثير النَقْع موعدها كداء[3]
ينازعنَ الأعنّةَ مصيغاتٍ ... على أكتافها الأسل الظماء[4]
تظلُّ جيادنا متمطراتٍ ... تلطّمهنّ بالخُمُر النساء[5]
فإما تُعْرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء[6]
وإلا فاصبروا الجلاد يوم ... يُعزُّ الله فيه من يشاء
ألا أبلغ أبا سفيان غني ... مغلغلة فقد برح الخفاء
بأي سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء[7]
هجوتَ محمداً وأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء[8]
أتهجوه ولست له بكفء ؟ ... فشركما لخيركما الفداء !
هجوت مباركاً تبراً حنيفاً ... أمين الله شيمته الوفاء[9]
أمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء ؟
فإن أبي ووالده وعِرْضي ... لعرض محمدٍ منكم وقاء !

وفي عام 9 هـ وفد بنو تميم على الرسول في المدينة بعد فتح مكة ، وكانوا قبيلة كبيرة يعتدون بأنفسهم وعددهم ووجاهتهم في العرب . فلما دخلوا على الرسول قالوا : « يا محمد جئنا نفاخرك ، فاذن لشاعرنا وخطيبنا » قال ( ص ) : « قد أذنت لخطيبكم » فقام عطارد بن حاجب فخطب مفتخراً بتميم فرد عليه من المسلمين ثابت بن قيس . ثم قام

---

(1) المغث : القتال والشر . اللحاء : السباب . قلنا الذنب في ذلك الخمر .
(2) ينهنه : كف ، منع . اللقاء : القتال .
(3) موعدها كداء : فتح مكة ( كداء : ثنية ، طريق ملتوية في الجبل عند مكة ) .
(4) ينازعن الاعنة : يجذبن الاعنة من أيدي فرسانها . الأسل : الرماح . الظمأ : العطاش .
(5) تمطرت الخيل : جاءت مسرعة تلطمهن : تضرب النساء وجوه الخيل بخمرهن ليردنها .
(6) إن خليتم سبيلنا دخلنا مكة معتمرين . انكشف الغطاء : تم وعد الله بالغيب .
(7) مغلغلة : رسالة .
(8) عبد الدار بطن من قريش ، لعله يشير إلى معركة أحد حيث حمل اللواء لهم عبد أسود .
(9) البر : الذي يبغي الخير لقومه . الحنيف : الذي لم يعبد الأوثان في الجاهلية .

الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم فأنشد قصيدة مطلعها :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع[10]

فلما فرغ من إنشاده قال رسول الله ( ص ) لحسان « قم ، فأجب الرجل ، فقال حسان :

إن الذوائب من فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بيّنوا سُنّة للناس تتبع[11]

يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع[12]

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير محدثة ... أن الخلائق، فاعلم، شرها البدع[13]

إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا[14]

إن سابقوا الناس يوماً فاز سبقهم ... أو وازنوا أهل مجدٍ بالندى متعوا[15]

أعفةٌ ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يردیهم طمع[16]

لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خوْرٌ ولا جزع[17]

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع

ولحسان بن ثابت بضع مدائح في الرسول ( ص ) أشهرها :

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد[18]

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن : أشهد[19]

وشق له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد

نبيٌ أتانا بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثان في الأرض تعبد

---

(10) البيع : أماكن العبادة .

(11) الذوائب : الشعر المتدلي من الرأس المقصود الرؤساء ، فهر : قريش المهاجرون ، إخوتهم : الأنصار « أهل المدينة » . قد بينوا سنة : جاؤوا بطريقة ، بدين ، أي الإسلام .

(12) السريرة : النفس . داخل الإنسان .

(13) السجية : الطبيعة . غير محدثة : قديمة . البدع : الأمر الجديد المخالف لعادات القوم .

(14) لا يرفع الناس . . : لا يصلح الناس ما مزقوه . إذا هزموا أحداً لا يستطيع أحد نصره .

(15) متعوا : ارتفعوا حتى بلغوا الغاية .

(16) طبع : بكسر الباء : فساد . أردى : أهلكه .

(17) الخور : الضعف . الجزع : الإضطراب عند المصيبة .

(18) أغر : أبيض الوجه .

(19) الخمس : الصلوات الخمس .

فأمسى سراجاً منيراً وهادياً ... يلوح كما لاح الصقيل المهند[20]
وأنذرنا ناراً وبشر جنةً ... وعلمنا الإسلام ، فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربي وخالقي ... بذلك ما عمرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك ، إلهاً أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله ... فإياك نستهدي وإياك نعبد

وله أيضاً بضع مراث اخترنا منها هذه القصيدة :

بطيبة رسم للنبي ومعهد ... منير ، وقد تعفو الرسوم وتهمد[21]
ولا تمحي الآيات من دار حُرمةٍ ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد[22]
وواضحُ آياتٍ وباقي معالمٍ ... وربع له فيه مصلًّ ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد
يُذكرنَ آلاء الرسول ، وما أرى ... لها محصياً نفسي ، فنفسي تبلد
مفجعة قد شفّها فقدُ أحمد ... فضلت لآلاء الرسول تعدّد
فبوركت يا قبر الرسول ، وبوركتْ ... بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وهل عدَلَتْ يوماً رزية هالك ... رزية يوم مات فيه محمد
تقطّعَ فيه منزل الوحي عنهم ... وقد كان ذا نور يغور وينجد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى ... حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
وما فقد الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يُفْقَد
رباه وليداً ـ فاستتم تمامه ... على أكرم الخيرات ـ ربٌّ ممجد
تناهت وصاة المسلمين بكفه ... فلا العلم محبوس ولا الرأي يفند[23]

وعلى هذا النحو انشح شعر حسان الإسلامي بأنوار الدين الحنيف وهديه الكريم . وقد وقف مدحه على رسول الله ، رسول الإسلام والسلام ، وقصر هجاءه على المشركين الذين كانوا يتعرضون للرسول وللرسالة بهجائهم[24] .

---

(20) سراجاً منيراً . من الآية 46 سورة الأحزاب . المهند : السيف مصنوع من حديد الهند .

(21) طيبة : المدينة . المعهد : المكان يتردد عليه الناس . تهمد : تسكن .

(22) الهادي : الرسول . كان يصعد إليه ويخطب منه .

(23) يفند : يفسد ، يضعف .

(24) كان يوضع منبر في مؤخر المسجد فيناجي عن رسول الله ، يرد على الذين كانوا يجحونه راجع الكامل ص 778 .

ولقد اكتسب شعر حسان في الإسلام كثيراً من العذوبة والإخلاص وكثرت فيه التعابير الإسلامية لأنه كان يتخذ القرآن الكريم منهله العذب العزيز . قال الدكتور عمر فروخ :

« وحسان خليق أن يسمى رأس البديعين ، فهو الذي بدأ فن الشعر في المديح النبوي » .

## النابغة الجَعْدي ( ـ 65 هـ )

هو عبد الله[1] بن قيس بن عبد الله من جعدة بن كعب بن ربيعة أحد بني عامر بن صعصعة . ولد بالفَلْج جنوبي نجد . قيل إن أمه كانت من أهل هجر اسمها خَصَفة . روي أنه ظل ثلاثين عاماً في الجاهلية لا ينطق بالشعر ثم عاد فتفجر على لسانه في الإسلام ونبغ في قوله نبوغاً كبيراً . ولقبه كان « أبو ليلى » .

والنابغة الجعدي أقدم من النابغة الذبياني أدرك النعمان ابن المنذر بينما النابغة الجعدي أدرك المنذر بن محرِّق والد النعمان . وما تميز به عن غيره من شعراء عصره أنه كان من الذين أنكروا الخمر في الجاهلية وهجروا الأزلام وعبادة الأوثان . ولكنه مثل لبيد تغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم وهجا خصومهم وخاصة بني أسد الذين قتلوا أخاً له في بعض حروبهم مع قبيلته . وقد حزن عليه وبكاه كثيراً . ومن رثائه له قصيدته التي يؤنبه فيها بقوله :

فتىً كملت أخلاقه غير أنه ... جواد فما يبقى من المال باقيا
فتى تم فيه ما يُسرُّ صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

أسلم النابغة الجعدي ووفد في قومه لما أخذت وفود العرب تفد على الرسول ( ص ) معلنة إسلامها ، وكان سيداً فيهم وأنشد الرسول قصيدة سنة 9 هـ فأعجب به الرسول ( ص ) . يقول فيها :

بَلغْنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فقال له الرسول الكريم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فأجابه : الجنة . فقال له الرسول : « لايفضض الله فوك »[2] .

---

(1) الفلج ماء في جنوبي نجد انظر ترجمته في الشعر والشعراء ص 103 وأسد الغابة ج 5 ص 2 وأمالي المرتضى ج 1 ص 263 .

(2) الشعر والشعراء ج 1 ص 252 والأغاني ج 5 ص 8 .

ولم يرجع مع قومه بل سكن في المدينة مهاجراً زمناً طويلاً ، ثم عنت على باله البادية ونازعته نفسه إليها ، وكان ذلك في عهد عثمان ، فاستأذنه في ذلك وخرج إلى بلده[3] .

ولما كانت الفتوح خرج مع العرب ميمماً نحو المشرق والفرس مجاهداً في سبيل الله . ثم شهد معركة صفين مع علي بن أبي طالب ، وكان في ذلك الحين يسكن الكوفة ، وقد انخرط في صفوف علي وارتجز الأشعار في مديحه وهجاء معاوية . قال :

قد علم المصران والعراقُ ... أن علياً فحلُها العُتاقُ[4]
إن الألى جارَوْك لا أفاقوا ... لهم سياق ولكم سياق
قد علمت ذلكم الرفاق ... سقتم إلى نهج الهدى وساقوا
إلى التي ليس لها عراق ... في ملةٍ عادتها النفاق[5]

كانت وفاته في أصفهان سنة 65 هـ في أواخر خلافة مروان بن الحكم أوفي مطلع خلافة عبد الملك بن مروان . وقد كف بصره وزادت سنه على المائة .

النابغة الجعدي من الشعراء المخضرمين ، مطبوع فصيح بليغ يجري في شعره على السليقة ولا يتكلف صنعة . إلا أن شعره شديد التفاوت منه الجيد الرائع ومنه الرديء الساقط .

وأبواب الشعر التي خاض فيها هي : الوصف ، والمدح ، والهجاء ، وكان من أوصف الناس للفرس[7] ، ثم الحكمة . ومن العجب أنه كان مغلّباً في الهجاء . لم يتعرض لشاعر بالهجاء إلا غلبه ذلك الشاعر . في الجاهلية غطى عليه النابغة الذبياني . ثم هاجى ليلى الأخيلية زوج سوّار بن أوفى القشيري فغلبا عليه جميعاً ، وهاجى أوس بن مغراء فغلبه أوس ، وتعرض في آخر أيامه لكعب بن جعيل وللأخطل فغلباه . وربما كان ذلك لتعمق الإسلام في نفسه إذ كان يتحرج من المضي في الهجاء المقذع . وهو دائم الحديث عن نعم الله عزّ وجلّ وتحوله من ظلمات الجاهلية إلى أضواء الدين الحنيف يقول[8] :

---

(3) راجع طبقات الشعراء ص 159 .

(4) المصران : الكوفة والبصرة . العتاق : الكريم .

(5) التي ليس لها عراق : التي لا تعرف لها غاية .

(6) طبقات الشعراء 159 أي سنة 684 م وفي الأعلام للزركلي 50 هـ - 670 م .

(7) راجع طبقات الشعراء 26 والشعر والشعراء 159 والبيان والتبيين ج 1 ص 206 .

(8) أمالي المرتضى ج 1 ص 266 والديوان ص 137 .

عُمِّرتُ حتى جاء أحمد بالهدى ... وقوارعٍ تتلى من القرآن
ولبست من الإسلام ثوباً واسعاً ... من سَيْبِ لا حَرِمٍ ولا منّان[9]

قال في قصيدته التي وفد بها إلى الرسول :

أتيت رسولَ الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتاباً كالمجرَّة نَيِّرا[10]
بلغنا السماء مجدُنا وجدودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا
ولا خير في جِلمٍ إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدّرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أوردَ الأمرَ أصدرا
وجاهدت حتى ما أحسُّ ومَن معي ... سهيلاً إذا ما لاح تُمَّت غوّرا[11]
أقيمُ على التقوى وأرضى بفعلها ... وكنت من النار المخوفة أوجرا[12]

والنابغة الجعدي جاهد في سبيل الله وكان يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار وله عدا الأبيات المفردة مواعظ بليغة فيها المعاني الدينية الواردة في القرآن الكريم . قال :

الحمد لله لا شريك له ... من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل في النهار وفي الـ ... ـلـ نهاراً يفرّج الظلما
الخافض الرافع السماء على ... الأرض ولم يَبْنِ تحتها دعما[13]
من نطفةٍ قَدَّها مقدِّرها ... يخلق منها الأبشار والنسما
ثم عظاماً أقامها عصب ... ثمّت لحماً وكساه والتأما
ثم كسا الرأس والعواتق أبـ ... ـشاراً وجلداً تخاله أدما[14]
والصوتَ واللونَ والمعايشَ والـ ... أخلاقَ شتى وفرّق الكلما
ثمتّ لا بد أن سيجمعكم ... والله ، جهراً ، شهادة قسما
فائتمروا الآن ما بدا لكم ... واعتصموا إن وجدتم عصما
في هذه الأرض والسماء ، ولا ... عصمةَ منه إلا لمن رحما
يا أيها الناسُ هل ترون إلى ... فارسَ بادَتْ وخدُّها رغما[15]

---

(9) سيب : عطاء . حرم : منع .

(10) المجرة : مجموعة من النجوم الصغيرة ينتشر ضوءها وكأنها بقعة بيضاء .

(11) غوّر النجم : أفل وغاب .

(12) أوجر : خائف .

(13) الدعم : الدعائم .

(14) العواتق جمع عاتق وهو المنكب .

(15) خدها رغماً : لصق بالتراب كناية عن الذل .

أمسوا عبيداً يرون شاءكم ... كأنما كان ملكهم حلما
أو سبأ الحاضرين مأرب إذ ... يبنون من دون سيله العرما[16]
فَمُزِّقوا في البلاد واعترفوا الـ ... ـهونَ وذاقوا البأساء والعدما[17]
ويُدِّلوا السِّدرَ والأراك به الـ ... ـخَمْط وأضحى البنيان منهدما[18]

وله بضعة أبيات قالها في رثاء ابن له اسمه محارب ، ويذكر أخاً له ، أخاً للنابغة رسمه وَحْوح ، يقول مخاطباً زوجته :

ألم تعلمي أني رزئت محارباً ... فما لك بعد اليوم ، خير ولا ليا
ومن قبله ما قد رزئت بوَحْوَحٍ ... وكان ابن أُمي والخليل المصافيا
فقد كملت خيراته ، غير أنه ... جواد فما يُبقي من المال باقيا
فقد تم فيه ما يُسرُّ صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

من خلال قصائده الدينية يتبين لنا إيمان النابغة الجعدي بوحدانية الله حيث يستعير ألفاظه من الذكر الحكيم ، استهل قصيدته الميمية بالحمد الله . ويستلهم أكثر معانيه من آيات القرآن الكريم ، من مثل قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك . . بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل . . . ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الله الذي رفع السماوات بغير عَمَد ترونها ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ويستمر إلى آخر القصيدة مستلهماً من آيات الذكر الحكيم .

ثم ختم قصيدته بآية كريمة من سبأ من قوله تعالى :

﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم . . فاعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِم وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتي أكل خمطٍ وأثلٍ وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا . . وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث

---

(16) سبأ : مجرورة معطوفة على فارس . وسبأ دولة اليمن . الحاضرين مأرب : الساكنين في مدينة مأرب يبنون سداً ليدفعوا السيل الشديد .

(17) اعترفوا الهون : عرفوه .

(18) السدر والأراك : شجر لا ينفع بثمره . الخمط : ثمر وهو مر الطعم .

ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾[19] .

نراه قد نظم الآيات الكريمة في الأبيات الأخيرة من القصيدة ولا غرابة في الأمر فهو من نجد وأهل نجد والبوادي كان مثلهم مثل أهل الحواضر حين دخلوا في الإسلام فقد تعمق في صدورهم وعبروا عنه في أشعارهم وتألقت أضواؤهم في عيونهم فكرهوا الدنيا وزهدوا في نعيمها الفاني الذي يتلهى به طلابها البسطاء ، وحثوا الناس على التزود بالتقوى والعمل الصالح الذي بقدر ما يستزيد منه الإنسان بقدر ما يكسب أكثر من رضى الله عزّ وجلّ .

قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى ﴾[20] .

## الحطيئة ( ؟ ـ 678 م )

هو جرول بن أوس بن مالك بن مخزوم . . من بني عبس . وقد كان مغمور النسب ، عاش متشرداً بين القبائل لا يثبت على مبدأ ، يميل مع من يرى فيه المنفعة ، فيمدح من يكثر له العطاء ، أو من يخاف من الفتك به ، ويهجو من لا يحظى عنده ولا ينيله ما يرغب فيه . وقد أكثر من الهجاء حتى أصبح لهذا الضرب من الشعر ملكة خاصة فيه لم يلبث أن استعملها أداة للتكسب والمعاش . وتوصل به الأمر إلى هجاء أمه وزوجها معها ، بل لم يتراجع من هجاء نفسه .

يروى أنه أسلم في عهد النبي على الأرجح ، إلا أن إسلامه لم يغير شيئاً من أخلاقه وتردده في المبادىء . وسرعان ما ارتد وعزز الردة بالقول والفعل . وهو يعد من المعمرين عاش طويلاً في الإسلام ، كما عمّر أيضاً في الجاهلية . وليس له من المآتي إلا تعلقه بكبار القوم مدحاً وهجاء ، واحتياله على الكسب دون تمييز دقيق بين الحلال والحرام . وإلى جانب هذا كان بخيلاً عقوقاً يعيش عيشةً غير كريمة .

وهو يعد من عبيد الشعر ، سار فيه على أسلوب زهير بن أبي سلمى وابنه كعب في التنقيح والغربلة والتنخل وحسن التأليف . ولكن تميز برقة وعلوبة تجلتا في الاستعطاف والشكوى ، وكان ولوعاً بالعبث والظرف رافقاه حتى منتهى حياته ، كما كان قادراً على استعمال التهكم الدقيق البعيد الأثر . وصفه ابن سلام فقال إنه : « متين الشعر ، شرود القافية . . » .

---

(19) سبأ الآية 15 ـ 19 .

(20) الأعلى الآية 16 ـ 17 .

اهتم الأدباء بشعر الحطيئة اهتماماً كبيراً فجمعوه وأبعدوا ما كان قد دس فيه من الشعر المنحول ، وضعه الرواة ، ولا سيما حماد الراوية فكان أبو حاتم السجستاني يشدد في قبول ذلك ، ويرفض كل ما يشك بصحته . وقد طبع ديوانه لأول مرة في الأستانة عام 1890 م أخذه ابن حبيب عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني ، ثم شرحه أبو الحسن السكري . وفي سنة 1893 قام المستشرق غولد سيهير (Goldaiher) فنشر الديوان نشرة علمية مع شرح السكري مضيفاً إليه حواشي مفيدة ، وملحقاً به ما ينسب إلى الحطيئة من شعر لم يرد في الديوان .

وفي سنة 1905 م ظهرت له طبعة مصرية اعتنى بإخراجها أحمد بن الأمين الشنجيطي مع شرح السكري[21] .

## مقتطفات من شعره

### قصيدة مدح وهجاء : مدح بغيض وهجاء الزبرقان

الزبرقان صحابي معروف ، كان الحطيئة في جواره فأكرمه وأجرى عليه رزقاً وفيراً . وبنو أنف الناقة من أقرباء الزبرقان ومنافسيه في الشرف في قبيلته ، عملوا على استدراج الحطيئة إلى جوارهم فنجحوا في ذلك ، فأخذ الشاعر المتذبذب في مواقفه يمدحهم ويهجو الزبرقان[22] الذي له عليه يد بيضاء أرسلوا إليه أربعة من رجالهم هم : شماس بن لأي ، وعلقمة بن هوذة ، وبغيض بن شماس ، والمخبل الشاعر فأقنعوه وحولوه عن موقفه . ومن أقواله في ذلك ، هذه القصيدة التي شكاه بها الزبرقان إلى عمر بن الخطاب فحبسه مدة في المدينة .

والله ، ما معشرٌ لامـوا امـرءاً جنبـاً ... في آل لأي وشماس بأكياس[23]
علامَ كلفتني مجد ابن عمكم ... والعيس تخرج من أعلام أوطاس[24]
ما كان ذنب بغيضٍ ، لا أبا لكم ، ... في بائس جاء يحدو آخر الناس ؟[25]

---

(21) راجع المجاني الحديثة للأب شيخو والروائع للدكتور فؤاد البستاني 1930 م .

(22) رووا أن زوجة الزبرقان خشيت أن يعشق زوجها ابنة الحطيئة وكانت جميلة ، فجعلت تسيء معاملته .

(23) الجنب : الغريب . لأي وشماس من القبائل العربية . الأكياس جمع كيس : الظريف الفطن يقول : إن من لامني ، أنا الغريب ، على مدح آل لأي وشماس فليس بكيس .

(24) أوطاس : واد بديار هوازن بجنوبي مكة .

(25) البائس : أراد نفسه

لقد مريتكم ، لو أن درتكم ... يوماً يجيء بها مسحي وأبساسي[26]
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم ... كما يكون لكم متحي وإمراسي[27]
وقد نظرتكم إعشاء صادرة ... للخمس طال بها حبسي وتناسي[28]
مما ملكت بأن كانت نفوسكم ... كفارك كرهت ثوبي وإلباسي[29]
لما بدا لي منكم غيب أنفسكم ... ولم يكن لجراحي فيكم آسي[30]
أزمعت يأساً مبيناً من نوالكم ... ولن ترى طارداً للحر كالياس[31]
أنا ابن بجدتها علماً وتجربةً ! ... فاسل بحربي سعداً ، أعلم الناس[32]
جارٌ لقوم أطالوا هُونَ منزلته ، ... وغادروه صقيعاً بين أرماس[33]
ملوا قراه ، وهرّته كلابهم ... وجرّحوه بأنياب وأضراس
دع المكارمَ لا ترحل لبغيتها ... واقعد ، فإنك أنت الطاعم الكاسي[34]
وابعث يساراً إلى وفر مذممةٍ ، ... واحدج إليها بذي عركين قنعاس[35]
سيري ، أمام ، فإن الأكثرين حصى ... والأكرمين أبا من آل شماس !
من يفعل الخير لا يعدم جوازيَه ، ... لا يذهب العرف بين الله والناس[36]
ما كان ذنبي أن فلّت معاولكم ... من آل لأي صفاةً أصلها راسي[37]

---

(26) مرى الناقة : مسح ضرعها لتدر اللبن . الأبساس : دعاء الناقة لتسكن وتدر . يقول : لقد داريتكم ومدحتكم لتدروا علي بخير فأبيتم .

(27) المدح ـ السقي بالأمراس . إني مدحتكم كي يكون لكم الفضل وحدكم بتحليبي والأنعام علي .

(28) الأعشاء : أن تمشي بعد الشرب . الصادرة : الراجعة من الشرب ، أراد بها الإبل الخمس : من إظماء الإبل وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع . التناس : السوق الشديد يقول : انتظرت خيركم كما ينتظر الضيف مجيء الإبل الراجعة من الشرب .

(29) الفارك : المرأة التي تكره زوجها فتأبى السكن معه .

(30) لما ظهر لي ما كان غائباً في أنفسكم من البغض لي .

(31) أزمعت : صممت وعزمت ، والشطر الثاني من نوع إرسال المثل .

(32) أنا ابن بجدتها : يقال للعالم بالشيء المتقن له . والهاء راجعة إلى الأرض .

(33) جار : أراد نفسه . الهون : الذل . الأرماس : القبور أي غادروه كالميت .

(34) يخاطب الزبرقان فيقول له : حسبك أن تأكل وتلبس ولا شأن لك في المكارم .

(35) يسار : عبد الزبرقان . أحدج : أرحل . القنعاس : البعير الضخم ، العركان : الضاغطان تحت ابطي البعير . يريد أن يقول : ارسل عبدك يأتيك بالوطاب الضخمة وارحل إليها على هذا البعير .

(36) الجوازي : جمع جازية اسم مصدر للجزاء . والبيت معروف ومشهور . قال عمرو بن العلاء « لم نقل العرب بيتاً قط أصدق من بيت الحطيئة » الأغاني ج 3 ص 50 .

(37) فلّت : ثلمت . الصفاة : الصخرة الملساء والخطاب لأهل الزبرقان .

قـد نـاضلوك ، فسلوه من كـنـانتهم  مجداً تليداً ، ونَبلاً غير أنكاس ![38]

المعاني الواردة في القصيدة :

اعتمد الحطيئة في هذه القصيدة الصورة الحسية والكناية اللطيفة لتمثيل المعنى وتجسيده ، وكما قالوا عنه كان من عبيد الشعر ، الذاهبين مذهب زهير ابن أبي سلمى .

في بداية القصيدة يظهر الشاعر هوانه حين قام في جوار الزبرقان فقال إنه بائس جاء يحدو آخر الناس ، مشيراً إلى زوجة الزبرقان التي تعمدت إيذاءه ، فلم ترد إليه الراحلة وقدم في الليل سعياً على قدميه والأمير ارتحل على المطايا ، وهذا مما يقدح بضيافته . فكأنه يسيء إليه أو أنه يعرض به كي يحمله على هجره . وقد تعمد كلمة ( يحدو ) للتدليل على الإرهاق الذي أصيب به .

وكما هو معروف عنه لا يجد غضاضة في أن يتذلل ، حتى أنه هجا نفسه عبر تلك الصورة ، وكأن شيئاً لم يكن ، وقد وطد نفسه على الهوان وبات أمر كرامته رخيصاً مبتذلاً . والتعبير الصوري ماثل في معظم الأبيات :

فهو يتكنى عن العطاء بمرو الناقة ليدر لبنها ، لأنه ربما شاهد كثيراً ممن يستدرون الناقة بمروها ومسحها وأبساسها . وهنا نجده يوجز المعنى يولجه بعضاً ببعض ، فتعمق في إبعاده ، وغدا مادة شعرية إيحائية ، فثمة الممدوح والعطاء ، والناقة واللبن ، والحالب والشاعر الذي ألف بين هذه العناصر ، ومنحها اليقين الحسي مقتبساً الصورة من حياته الواقعية وخبراته الواقعية ؛ وهي خبرات ذات دلالات قائمة وظاهرة حتى البداهة . دلالات العطاء فيما يدر به ضرع الناقة تفيد معنى الرزق المباشر وهو بهذا يتخطى دلالة الظاهرة المادية إلى نطاق المرحلة الكبرى من الخلق الضني . وقلما أدرك شعراء عصر الحطيئة مرحلة الروحانية التي تستولي على المادة وتذيبها . وحسب الشاعر أنه وفق فكسا المعنى المجرد ظلاً فنياً رائعاً . فقال : « كيما يكون لكم متحي وأمراسي » وقد استعار هنا من مشهد السقاء كما كان قد استعار من مشهد الإحتلاب . ولقد ضمن التشبيه تضميناً وتجاوز به عن مرحلة المقابلة إلى مرحلة التوحيد حيث تتخذ مظاهر الوجود ماهيات أخرى لها الطابع النفسي والحسي في آن معاً ، فاختلط عنده واقع الإبل وواقع الكرم والعطاء ، وعدل عن الوصف الحسي فمثل الكره الذي كانوا يضمرونه له بالمرأة الفارك التي لا تطيق الإقامة بجانب زوجها وتكره كل ما يتصل به . ولئن توسل الشاعر التشبيه فإن غايته

---

(38) أنكاس : جمع نكس : أضعف السهام .

التنبه النفسي للعلاقات الإنسانية بين الأحياء ، وإقامة الشبه على الرؤيا التي تجسد اليقين وتنفذ إلى نفس القارىء .

وعبر القصيدة نجد الحروف تتآلف في اللفظة الواحدة ، والألفاظ تتآلف في البيت الواحد ، فالحروف المهموسة وسائل للإيحاء لا يفطن إليها إلا الشاعر صاحب الحس المرهف المتنصت لوقعها . قال :

لما بدا لي فيكم غيب أنفسكم ولم يكن لجراحي فيكم آسي
أزمعت ياساً مبيناً من نوالكم ولن ترى طارداً للحر كالياس !

نلمح لفظاً سلساً ووقعاً رقيقاً ، حيث أدرك الشاعر أن في اللفظ يكمن المعنى ولكنه ليس المعنى البارد ، بل الحي المتطور .

أما الحكمة التي نلمحها فقد وردت في سياق الحكمة العامة ، والحطيئة كما عرف عنه من الشعراء التعبيريين ، يحتفل بأداء المعنى في حلة بيانية شائقة . وقد عايش عاهته ، وشعر بجراحها ، ولم يتجاوزها ، بل أقامت في جسده ونفسه ونسبه ولم تتطور بالتأمل والتمرد ، كما كان دأب الشنفري مثلاً . لهذا فإن حديثه عن الحرية ورد في السياق من باب القول والحجة ليس إلا . ولا يخفى أن عند الشاعر صوراً معبرة ورقيقة العبارة تؤدي المعنى في بعده الإنفعالي وتقوم في بذل المعنى متسامياً على دفعات . فقال :

جار لقوم أطالوا هونَ منزله وغادروه مقيساً بين أرماس

وهكذا نلمح الهجاء يتنامى عنده على درجات بسوء الضيافة فيقول :

ملّوا قِراه وهرّثه كلابهم وجرّحوه بأنياب وأضراس

وقد تطور هذا الهجاء منذ مطلع القصيدة حتى بلغ مرمى بعيداً فاعتمد الشاعر التحليل النفسي ، حين اتهم الزبرقان بالخمول وتفاهة المصر ، فكان همه الطعام واللباس ، فإذا نالهما اكتفى عن السعي والإرتحال طلباً للتقدم والعلى . فهو كما قيل لا يأكل ليعيش وإنما يعيش ليأكل . وهذا النقد اللاذع مقتبس من واقع النفسية العربية التي لا ترى أبداً غاية الوجود في الشبع والري كما هو مصير البهائم ، بل في التعرض للصعاب حتى يتفوق الإنسان بتخطيه حواجز البشر العادية إن تجربة الحطيئة مستمدة من واقع البيئة العربية ومفهوم الوجود العربي الذي لم يكن ليحفل به ، إذ كانت نفسه رخيصة جداً ترضى بواقع الهون وكأن الشابي يقصده بقوله :

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

ثم يتابع الهجاء صعداً فيخاطب الزبرقان فيقول معاتباً عتاباً رقيقاً :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

يقول إذا كنت لا أستحق خيركم وعطاءكم ، فعمل الخير عرف واجب عند العرب الكرام ، وإذا كان الإنسان ممن ينكرون الفضل والله لا يضيع أجر المحسنين .

وأخيراً يخاطب أهل الزبرقان فيقول : إذا كانت معاولكم قد ضعفت وفلّت فالذنب ذنبكم وليس ذنبي ، وأين أنتم من آل لأي الكرام الذين ناضلوا معكم وأكسبوكم مجداً تليداً تنعمون به اليوم ؟

**وله قصيدة في مدح بني أنف الناقة**

بدأها بالغزل ، على الطريقة التقليدية المعروفة ، ثم ذكر سفره في البرية على الناقة ، فصادف الذئب الذي رافقه في البرية المقفرة، ومن بعده ، وصف جزعه من الفقر ثم تخلص إلى ذكر الممدوحين . قال :

طافت أمامة بالركبان آونة ... يا حسنه من قَوام ما ومنتقبا[39]

* * *

وبلدة جبتها وحدي بيعملة ... إذا السراب على صحرائها اضطرابا[40]

بحيث ينسى زمام العنس راكبها ... ويصبح المرء فيها ناعساً وصبا[41]

* * *

والذئب يطرقنا ، في كل منزلة ... عدو القرينين في آثارنا خببا[42]

قالت أمامة : لا تجزع ! فقلت لها ... إن العزاء وإن الصبر قد غُلبا !

هلا التمست لنا ، إن كنت صادقة ، ... مالاً فيكتنا بالخَرْج ، أو نشبا ![43]

حتى نجازي أقواماً بسعيهم ... من آل لأي ، وكانوا سادة نجبا[44]

---

(39) أمامة اسم المرأة التي يشبب بها . ما : صلة ما أحسن قوامها . منتقبها : وجهها .

(40) اليعملة : الناقة القوية المتمرنة على السير .

(41) العنس : الناقة الشديدة . الوصب : التعب الشديد .

(42) القرينان : البعيران يربطان معاً بحبل واحد . يريد أن الذئب كان يتبعنا في الليل حتى كأنه مقرون بنا ، لعل أحدنا يسقط فيفترسه .

(43) الخرج : واد بديار بني تميم .

(44) آل لأي : قوم شماس من بني أنف الناقة .

لم يعدموا رائحاً من إرث مجدهم ... ولن يبيت سواهم حلمهم عزبا[45]
ردّوا على جار مولاهم بمَهْلكة ... لولا الإله ، ولولا عطفهم عطبا[46]
فوفروا ماله من فضل مالهم، ... لولا الإله، ولولا سعيهم ذهبا[46]
قوم يبيت قرير العين جارهم، ... إذا لوى بقوى أطنابهم طنبار[47]
قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم ... شدوا العناج، وشدوا فوقه الكربا[47]
قوم هم الأنف، والأذناب دونهم ... ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا!
ما كان ذنب بغيض، لا أبا لكم! ... في باذل جاه يجدو آبُنقا شُسُبا[48]
ما كان ذنبك في جارٍ جعلت له ... عيشاً، وقد كان ذاق الموت، أو كربا!
جارٍ أنفت لعوف أن تسب به، ... ألقاه قوم دناة ضيعوا الحسبا[49]
أخرجت جارهم من قعر مُظلمةٍ ... لو لم تغثه، ثوى في قعرها حقبا

**وله قصيدة في هجاء ضيف**

من عادة الحطيئة أن يهجو أضيافه ، لذلك كان الناس يتجنبون أن ينزلوا به ، وكان أن نزل به يوماً رجل من بني أسد اسمه صخر فقراه ثم هجاه ، بعد ذهابه فقال :

لما رأيت أن ما يبتغي القرى، ... وأن ابن أعى، لا محالة، فاضحي[50]
شددت حيازيم ابن أعي بشريّة ... على ظمإ سدَّت أصول الجوانح[51]
وما كنت مثل الكاهلي وجِرمه! ... بغى الود من مطروفة العين، طامح[52]

---

(45) يقول : إن مجدهم الموروث لازم لهم لا يفارقهم كالمواشي التي تغدو وتروح إلى أهلها وإن أحلامهم ورزانتهم وسعة عفوهم ملازمة لهم أيضاً فلا يستخفهم الجهل .

(46) مولاهم : الزبرقان . وجاره : الحطيئة الذي استنقذوه من الهلكة في جوار الزبرقان .

(47) العناج : عروة تجعل في أسفل الدلو ليشد بها الحبل . الكرب : العيدان التي تربط على شكل صليب ، يعني : المبالغة في المحافظة على العهد ووثاقة رباطه .

(48) بغيض : ابن شماس . أحد بني أنف الناقة الموكلين إلى الحطيئة . الباذل : الحطيئة نفسه شبّاج . شاسبة : المهزولة .

(49) عوف : جد أنف الناقة .

(50) ما : أي الذي . القرى : في موضع الرفع خبر إن .

(51) حيازيم : جمع حيزوم ، وسط الصدر ، البطن ، ضلع القلب ، ما اكتنف الحلقوم من جانبه الصدر . الجوانح : الضلوع . أصولها : أي ملأت جوفه .

(52) الكاهلي : رجل من بني كاهل بن أسد ، كانت امرأته تبغضه ، فاحتالت له حتى سقته سماً فمات . يقول : إني أكرمت ابن أعي ولم أكن كامرأة الكاهلي لزوجها ، أي لم اسقه سماً . مطروفة العين : أي كأن عينها طرفت ، فلا تملأها من وجهه بغضاً له .

غداً باغياً يبغي رضا ودّها، وغابت له غيب ارمىء غير ناصح[53]
دعت ربها ألا يزال بحاجة، ولا يغتدي إلا على حد بارح[54]
فلما رأت ألا يُجيبَ دعاءها، سقته، على لوح، دماء الذّرارح[55]
وقالت: «شراب بارد فاشربنّه» ولم يدر ما خاضت له بالمجادح[56]
فشدّ بذا خزياً على ذي حفيظة وهان بذا غرماً على كف جارح[57]

ولما سمعه صخر بن أعيا رد قائلاً :

ألا قَبّح الله الحطيئة! إنه على كل ضيف ضافه هو سانح[58]
دُفعتْ إليه، وهو يخنق كلبه، ألا كل كلب، لا أبالك نابح
بكيتَ على مَذْق خبيث قريته؛ ألا كل عبسيّ على الزاد شائح[59]

وقال أيضاً في هجاء ضيف آخر :

وسلّم مرتين؛ فقلت: «مهلاً! كفتكَ المرة الأولى السلاما!»
ونقنق بطنه، ودعا رؤاساً لما قد نال من شِبع، ونامـا[60]

وقال في هجاء أمه :

جزاكِ الله شراً من عجوز! ولقاك العقوقَ من البنينا!
تنحّي، فاجلسي مني بعيداً، أراح الله منكِ العالمينا!
ألم أظهر لك البغضاء مني؟ ولكن لا إخالك تعقلينا[61]
أغربالاً إذا استودعت سراً! وكانوناً على المتحدثينا![62]
حياتك، ما علمت، حياة سوء؛ وموتك قد يسر الصالحينا

---

(53) غابت له : أضمرت له .

(54) البارح : ما مر من الطير والوحش من اليمين إلى اليسار ، والعرب يتشاءمون به .

(55) اللوح : العطش ، ذرارح : جمع ذراح وهي دويبة حمراء منقطة بسواد وهي من السموم .

(56) المجادح : جمع المجدح : خشبة في رأسها شعبتان يجدح بها السويق واللبن أي يخلط .

(57) يقول : ما أشد هذا الفعل على ذي الغضب وما أهون غرمه على الجارح .

(58) سانح : من صنح عليه : أحرجه وأصابه بشر .

(59) المذق : المخلوط بالماء . . شائح : جلد .

(60) تنقنق بطنه : قرقر . يريد أنه لما شبع قرقر بطنه ، ونباح : يا لبني رؤاس وهو حي من كلاب .

(61) لم يرد هذا البيت في الديوان ، لكنني وجدته عند ابن قتيبة ص 182 .

(62) الغربال : يقصد به النمام . الكانون : الثقيل من الناس .

وقال في هجاء زوج أمه :

لجـاكَ الله ثـم لحـاك حـقـاً أبـاً! ولحـاك مـن عـمّ وخـال!
فنعم الشيـخُ أنت، لـدى المخـازي؛ وبئس الشيـخ أنـت ، لـدى المعـالي!
جمـعـت الـلؤم، لا حـيـاك ربي! وأبـواب الـسـفـاهـة والـضـلال

وقال في هجاء نفسه ! خرج يوماً وقد هاجته الرغبة في الهجاء ، فقال :

أبـت شـفـتـاي الـيـوم إلا تـكـلـماً بـسـوء؛ فـمـا أدري لمـن أنـا قـائـله!

فلم ير أحداً ، وبينما هو في الطريق أطل على بئر فرأى صورته ، فقال :

أرى لي وجـهـاً شـوّه الله خـلقـه فـقـبّـح من وجـه، وقـبّـح حـامـله!

# فهرس المصادر والمراجع


1 ـ القرآن الكريم .
2 ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير القاهرة 1286 هـ .
3 ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني القاهرة 1939 م .
4 ـ إعجاز القرآن للرافعي .
5 ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني دار الكتب المصرية .
6 ـ أصول النقد الأدبي للدكتور أحمد الشايب .
7 ـ أمالي المرتضى ط . الحلبي ـ مصر 1954 .
اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية القاهرة .
8 ـ بيان إعجاز القرآن للخطابي .
9 ـ البيان والتبيين الجاحظ ط الحلبي مصر 1945 .
10 ـ تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي د . شوقي ضيف دار المعارف مصر .
11 ـ تاريخ الأدب العربي د . عمر فروخ دار العلم للملايين بيروت .
12 ـ تاريخ الأدب العربي للمستشرق الفرنسي نالينو .
13 ـ تاريخ دمشق لابن عساكر .
14 ـ تاريخ الطبري دار المعارف بمصر 1964 م .
15 ـ تفسير الزمخشري .
16 ـ تقييد العلم للخطيب البغدادي دمشق 1949 .
17 ـ حديث الأربعاء د . طه حسين .
18 ـ الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام د . خفاجي دار الكتاب اللبناني بيروت .
19 ـ الحيوان الجاحظ ط . الحلبي 1945 .

20 ـ ديوان حسان بن ثابت الأنصاري .
21 ـ ديوان النابغة الجعدي .
22 ـ رسالة الغفران لأبي العلاء المعري .
22 ـ السيرة النبوية لابن هشام طـ . الحلبي 1955 .
24 ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة دار المعارف مصر 1967 .
25 ـ صحيح البخاري المطبعة الخيرية بمصر 1320 هـ .
26 ـ صحيح مسلم دار الطباعة العامرة 1332 هـ .
27 ـ طبقات الشعراء ابن سلام الجمحي .
28 ـ الطبقات الكبرى لابن سعد ليدن 1925 م .
29 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه لجنة التأليف والترجمة والنشر 1950 م .
30 ـ علم الاجتماع الأدبي د . حسين الحاج حسن المؤسسة الجامعية بيروت 1983 م .
31 ـ العمدة لابن رشيق القيرواني دار السعادة مصر 1955 م .
32 ـ القاموس المحيط الفيروز آبادي 1301 هـ .
33 ـ المجازات النبوية الشريف الرضي المجاني الحديثة عن مجاني الأب شيخو المطبعة الكاثوليكية بيروت 1951 م .
34 ـ المثل السائر لابن الأثير مطبعة نهضة مصر 1962 م .
35 ـ المزهر للسيوطي طـ . الحلبي .
36 ـ مسند الإمام أحمد القاهرة 1313 هـ .
37 ـ المفصل في تاريخ العرب د . جواد علي دار العلم للملايين بيروت .
38 ـ المقدمة لابن خلدون القاهرة 1322 هـ .
39 ـ نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب .
نحو وعي لغوي د . مازن مبارك ، جامعة دمشق .
40 ـ الوزراء الكتاب للجهشياري .

# صدر للمؤلف

1 ـ علم الاجتماع الأدبي ـ المؤسسة الجامعية ط أولى 1983 .
2 ـ علم الاجتماع الأدبي ـ المؤسسة الجامعية ط ثانية 1986 .
3 ـ علم الاجتماع الأدبي ـ المؤسسة الجامعية ط ثالثة 1990 .
4 ـ أدب العرب في عصر الجاهلية ـ المؤسسة الجامعية ط أولى 1984 .
5 ـ أدب العرب في عصر الجاهلية ـ المؤسسة الجامعية ط ثانية 1990 .
6 ـ حضارة العرب في الجاهلية ـ المؤسسة الجامعية ط أولى 1984 .
7 ـ حضارة العرب في الجاهلية ـ المؤسسة الجامعية ط ثانية 1990 .
8 ـ أعلام في العصر العباسي ـ المؤسسة الجامعية ط أولى 1985 .
9 ـ نظم إسلامية ـ المؤسسة الجامعية ط أولى 1987 .
10 ـ نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية ـ مؤسسة الوفاء 1986 .
11 ـ الأسطورة عند العرب في الجاهلية ـ المؤسسة الجامعية 1988 .
12 ـ حضارة العرب في صدر الإسلام ـ المؤسسة الجامعية 1992 .
13 ـ أدب العرب في صدر الإسلام ـ المؤسسة الجامعية 1992 .

www.lisanarb.com

twitter مكتبة لسان العرب
facebook مكتبة لسان العرب
instagram مكتبة لسان العرب

# فهرس


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| الاهداء | 5 |
| تصدير | 7 |
| تمهيد | 9 |
| الفصل الأول : ما الغاية من قيام دولة إسلامية | 13 |
| الفصل الثاني : القرآن الكريم | 33 |
| بعض أسراره ومزاياه | 40 |
| بلاغة القرآن الكريم | 46 |
| الفصل الثالث : القرآن والشعر | 58 |
| أثر القرآن في الأدب واللغة والعلوم | 65 |
| دعوة الإسلام إلى الأخذ بالأصول التالية | 69 |
| القرآن الكريم يدعو المؤمنين إلى الاتحاد | 72 |
| موقف الإسلام من الشعر | 78 |
| أغراض الشعر في صدر الإسلام | 80 |
| الفصل الرابع : الحديث النبوي | 91 |
| خصائص البلاغة النبوية | 96 |
| خصائص الأسلوب النبوي | 99 |
| الفصل الخامس : النثر في عصر صدر الإسلام | 105 |
| خطابة الرسول | 110 |
| خطابة الخلفاء الراشدين | 116 |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|


صدر الإسلام : عصر الخطابة الذهبي ..... 123
الكتابة في صدر الإسلام ..... 125
الوصايا ..... 133
وصية عمر بن الخطاب ..... 134
معاوية بن أبي سفيان ..... 145
وصية علي بن أبي طالب ..... 145
وصية زياد بن أبيه ..... 142
الفصل السادس : شعراء صدر الإسلام ..... 145
حسان بن ثابت ..... 145
النابغة الجعدي ..... 158
الحطيئة ..... 162
فهرس المصادر والمراجع ..... 171



مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com رابط بديل



1992 / 8 / 430